نبوة محمد صلى الله عليه وسلم

من الشك إلى اليقين

الدكتور فاضل صالح السامرائي

دار عمار للنشر والتوزيع

الطبعة الثالثة

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
٢٠٠٧/٨/٢٦٧٤

٢٣٩
السامرائي، فاضل
نبوة محمد صلى الله عليه وسلم من الشك إلى اليقين /
فاضل صالح السامرائي. ــ عمان: دار عمار، ٢٠٠٧.
(   ) ص.
ر.إ.: ٢٠٠٧/٨/٢٦٧٤.
الواصفات: /السيرة النبوية//الاسلام//

❖ أعدت دائرة المكتبة الوطنية بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية

دار عمار للنشر والتوزيع

عمان - ساحة الجامع الحسيني - سوق البتراء - عمارة الحجيري
تلفاكس ٤٦٥٢٤٣٧ - ص.ب ٩٢١٦٩١ عمان ١١١٩٢ الأردن
E-mail: dar_ammar@hotmail.com

نبوة محمد صلى الله عليه وسلم

من الشك إلى اليقين

الدكتور فاضل صالح السامرائي

دار عمار

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدِّمة ٱلكِتَاب

الحمد لله حمداً يوافي نعمه ويكافىء مزيده وصلى الله على سيدنا محمد إمام الداعين وسيد المرسلين وعلى آله وصحبه وبعد:

فإن موضوع هذا الكتاب يخصّ كل فرد من عقلاء خلق الله بلا استثناء، أقول موضوع هذا الكتاب ولا أقول هذا الكتاب، وذلك أنه يبحث في موضوع نبوة محمد ﷺ الذي ادعى أن الله أرسله إلى الناس كافة يبلغهم منهاج ربهم وأنه خاتم الأنبياء والمرسلين وأن شرعه ناسخٌ لما مضى من الشرائع فمن أطاعه رضي الله عنه وجعله في سعادة دائمة وأدخله الجنة ومَنْ عصاه كان في شقاء دائم وأدخله ناراً وقودها الناس والحجارة.

وهذا موضوع خطير يخص كل فرد ويعنيه وجدير بكل فرد أن يتحقق من صدق هذا الادعاء ويتبينه ويوليه من الاهتمام أبلغه ومن البحث أصدقه حتى يقع على حقيقة الأمر.

وعليه أن يترك وهو في سبيل البحث والتمحيص كل نوع من أنواع الهوى والعصبية فإن ذلك أقرب أن يوصله إلى الحكم السليم.

ولماذا الهوى هنا؟ ولمصلحة من يتعصب؟

قد تكون في الهوى والعصبية مصلحة في غير هذا الموضوع أما في هذا الموضوع فالمصلحة الحقيقية لكل فرد أن يترك الهوى ويبحث إلى أن يقف على بينة الأمر، ثم ينطلق من هناك.

فإنه ينبني على هذا الموضوع سلباً أو إيجاباً تصحيحُ اعتقاد وتصحيح سلوك لأن المسألة مسألة مصير، مصير كل فرد بعينه.

ويصح بل يجب أن يكون هذا الموضوع الشُّغْلَ الشاغل للفرد يبحث ويسأل ويستعين ويستنجد ويستغيث حتى يقف على جلية الأمر.

وهذا موضوع طالما شغلني وأنا في أول الشباب ومقتبل العمر، وقد كان قبل هذه المسألة مسألة (الإيمان بالله).

فإن الله سبحانه وهب لي عقلاً متشككاً أبلغ درجات الشك وقد كانت مسألة الإيمان بالله تبرّحني وكان الهمّ يسيطر على نفسي وقلبي في الليل والنهار في النوم واليقظة ولا أبالغ إذا ما قلت إن هذه المسألة كانت تقطع عليّ النوم. وكثيراً ما كنت أسير في الطريق لا ألتفت إلى مَنْ يمر بي أو يسلِّم عليّ وكثيراً ما يمسك بي صديق فيقول: أين أنت يا فلان؟! فأستيقظ وأنا سائر وقد كنت غارقاً في تفكير عميق.

وكنت أظن أنه ليس على وجه الأرض فرد مؤمن بل كلهم أناس يُخْفُونَ شكوكهم وكنت أرى أن الناس كلهم ملحدون ولكن منهم من يجهر بإلحاده ومنهم من يبرقعه.

وكنت أظن أنه ليس ثمة شخص في الدنيا يتمكن من إقناعي بوجود الله. وكنت مستعداً أن أَهَبَ كل عزيز لمن يقيم لي الدليل على وجوده.

فإن هذه المسألة أخطر مسألة في الوجود في اعتقادي إذ كان يتنازعني أمران: اللذة والحرمان.

أأنتهز الفرصة وأنهب لذات الحياة وأتمتع بها ما استطعت كيف أشاء أم أتصبَّرُ وأسير في طريق الحرمان فلعل هناك إلهاً يدين الناس ويحاسبهم على أعمالهم؟

في أيٍّ درب أسير؟ أفي طريق اللذة أم في طريق الحرمان؟

وكثيراً ما كنت مع نفسي في حوار طويل وأخذٍ ورد، في أي درب أسير، أأسير في طريق اللذائذ والشهوات فإنها فرصة لن تعود أم أتصبّر وأحرم نفسي؟

وهل يصحّ تركُ هذه اللذائذ لأمرٍ محتمل غير محقق الوقوع؟!

ثم لا يلبث أن يصيح بي هاتف آخر: ويلك اصبر فلعلَّكَ تحاسب عما ستفعل. فأقف.

وأظن أن هذه الحال هي حال أكثر شبابنا اليوم.

بقيت في هذا الهمّ المقعد والحيرة القاتلة مدة غير قليلة ثم قررت، قررت أن أبحث حتى أصل إلى نتيجة مهما كلف هذا الأمر من وقت وتضحية. وعزمت عزماً أكيداً على

السير في هذا الدرب مهما طال حتى أصل إلى شيء: إيمان أو إلحاد.

وبدأت في البحث والتمحيص، ولا أكتم القارىء أني كنت أقرأ الكتب الضخمة فلا أرجع منها بشيء ولا أنتفع بكلمة ثم أتركها لأقرأ غيرها فما كانت تبلّ الظمأ ولا أرجع من حيرتي إلا إلى حيرة أشد. واستمررت وأنا عازم على السير لا أكلّ ولا أفتر حتى فتح الله عليّ بالإيمان ومَنَّ باليقين لما عَلِمَ من صدق عزمي على المضيّ وشدة رغبتي إلى الوصول.

وما زلت والله أذكر (يوم الإيمان) فوالله ما وجدت ساعة في حياتي أحلى من ساعة الإيمان ولا يوماً أضوأ ولا أزهرَ من يوم الإيمان.

الوجود حولي كله تغيّر؛ الطير والشجر، والنهر والحجر، والكوكب والشمس والقمر. أحسستُ تجاوباً عميقاً وصِلةً وثيقة بيني وبين هذا الوجود، لم كنت منقطعاً عن ركب الوجود؟

نفسي اليوم غيرها بالأمس، أحسست كأني ولدت ولادة جديدة، كأني جئت إلى هذا الوجود من جديد.

أضاءت جوانب النفس وأشرقت حنايا الفؤاد وامتلأت نفسي بالنور، أحسست هذا النور حتى كدت أراه. وَلَّت الظلمةُ هاربة. ألقيتُ عني الحمل الثقيل واستراح القلب وسكنت النفس وهدأ الضمير وشعرت بالأمن والاستقرار. وتنفست الصعداء ثم تنفست الصعداء.

رباه! ما أحلى الإيمان! ما أعذب اليقين! ما أحلى عيش المؤمن وما أنكد عيش الملحد الكافر!!!

رحماك يا رب... اللهم لا تسلبني نعمة الإيمان ولا تخلع عني رداء اليقين ومَتِّعني به إلى يوم ألقاك.

وكنت أرى أن عليّ أن أحافظ على هذا اللقي الثمين وأحصنه وأحميه من الضياع فكنت أقرأ عن عجائب مخلوقات الله وأطيل التفكر في آيات الله في الكون، فكنت أرى صنع الله متجلياً في كل شيء في الزهرة الجميلة والعطر الفواح وفي الماء الجاري والكوكب اللائح والبدر المنير. رأيته في كل شيء وما كنت أراه في شيء. وكدت

أهتف كما هتف الذي رأى صنع الله في الزهرة وذلك أن أحد علماء الأحياء بينما كان في مختبره هتف صائحاً: رأيت الله! فاجتمع إليه تلاميذه وسألوه عن الأمر فقال: لا تراعوا فقد أراني المجهر في هذه الزهرة من دقة الصنع وبراعة الوضع ما حيّر عقلي وأخذ بلبي وأثبت لي أن هذا لا يمكن أن يحدث نتيجة فواعل طبيعية لا تدرك ما تصنع.

رأيت يد القدرة الخفية تمتد إلى كل شيء تَحوطهُ بالعناية والرعاية.

ومرت الأيام ثم برزت مشكلة أخرى أخف حملاً من صاحبتها إلا أنها كانت تأخذ مني مبلغاً كبيراً من الجهد والتفكير أيضاً وتملأ صدري بدخان من الشك، والارتياب.

هذه المشكلة هي موضوع هذا الكتاب: هل محمد نبي أرسله الله حقاً؟ هل الإسلام وحده هو الدين المَرْضي عند الله؟ لماذا لا تكون اليهودية أو النصرانية أو غيرهما؟

هذه المشكلة أخذت مني مأخذاً غير قليل، وكنت أعزف عن الاستدلال بالقرآن ظناً مني أن ليس فيه دليل.

وقلت لا بد من السير في هذا الطريق أيضاً فإن الله كما رحمني في الأولى سيأخذ بيدي في الثانية ولن يضيعني واستعنت الله وطلبت منه الهداية والتوفيق.

وكنت أريد الدليل العقلي على نبوة محمد لا الدليل القرآني فقد كنت أرى أن القرآن دليل ادّعائي لا عقلي، ثم وجدت وأنا سائر في هذا الطريق أن الدليل العقلي الذي أنشده هو في القرآن وأن أدلة القرآن عقلية لا ادّعائية تقنع طالب الحجة وصاحب البرهان.

ثم قرأت التوراة والإنجيل أكثر من مرة موازناً بينها وبين القرآن فوجدت القرآن أصفى اعتقاداً وأنأى عن التشبه والتمثيل وعما لا يليق بالله ويرسله، وجدت أنَّ كلاًّ من التوراة والإنجيل لا يعدو أن يكون كتابَ سيرة اختلط فيه الحق والباطل وامتدت إليه يد التحريف - كما سنرى - وهذه الناحية برزت منذ القراءة الأولى ثم أعدتُ النظرَ في قراءتي حتى استقرت نفسي والحمد لله واطمأن القلب إلى سلامة ما نحن عليه.

وكنت أرى لزاماً عليّ أن أنقل هذه التجربة إلى الآخرين إذ لا شك أن فيهم مَنْ عانى مثل ما عانيت فأضع في طريقه مصباحاً أو أختصر عليه الطريق، فأنفع وأنتفع.

فكتبت (نداء الروح) - باكورة إنتاجي - في الإيمان بالله واليوم الآخر وأجّلت موضوع هذا البحث إلى الآن ولعل في تأجيله خيراً.

هذا هو السبب الأول في اختيار هذا الموضوع.

والسبب الثاني لاختيار هذا البحث - وهو سبب مهم - أن هذا الموضوع موضوع رئيس ينبني عليه تصحيح اعتقاد وتصحيح سلوك - كما قلت -.

فإذا آمنا بصحة هذه القضية قلنا بكل ما يترتب عليها من أمور جزئية ورفض كل ما يخالف هذا الاعتقاد جملة وتفصيلاً من دون تكليف أنفسنا في النظر في الجزئيات الكثيرة التي لا تكاد تنتهي.

وهذه مسألة كبيرة وبخاصة في هذا العصر الذي تعددت فيه الفلسفات وتشعبت فيه المبادىء والآراء. فإنَّ مناقشة كل جزئية وبحثَ كل فكرة أمر يَطولُ ويطول فالأولى الرجوع إلى مناقشة الأساس الذي تقوم عليه هذه الجزئيات فإما أن يصح فيصح ما ينبني عليه أو ينهار فينهار ما بُني عليه. وبذلك نختصر الطريق والمجهود ونستفيد من الوقت.

وهذا ما هدفنا إليه ها هنا أيضاً فإنه إذا صحت نبوة محمد ﷺ بالأدلة العقلية صح ما ينبني على هذا الاعتقاد جملة وتفصيلاً من إيمان بأن الإسلام خير الأديان وخير المبادىء وأمثل الطرق وأنه لا نجاة إلا به وإن كل خطوة في غير هذا الطريق ضياع وضلال.

وبذلك تتم الفائدة المتوخاة من أقصر سبيل وأصح سبيل أيضاً.

وهذا هو السبب الثاني الرئيس للكتابة في هذا الموضوع.

وهما دافعان رئيسان كما ترى.

وأقول قبل إنهاء المقدمة أن القارىء قد يجد تعبيرات لا يرتاح إليها مثل قولنا (أعلن محمد في القرآن) أو (ادعى محمد) وما شابه ذلك وهذا مجاراة للخصم وهو نحو قوله تعالى: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [سبأ]، فعبَّرَ عن نفسه بالإجرام، وقوله: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ [سبأ]، فأرجو ألا يضيق به القارىء ذرعاً.

نسأل الله تعالى أن يثبت قلوبنا على دينه وأن لا يرزأنا في ديننا وإيماننا.

فكــلُّ خَطْــبٍ لــه أمــر يهــونــه   إلا المصيبة فـي الأخـلاق والـديـنِ

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ ﴾ [آل عمران].

الجمعة ١٥ جمادى الآخرة ١٣٩١هـ

٦ آب ١٩٧١م

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تقديم

للأستاذ الفاضل الدكتور عبد الكريم زيدان

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

فإن الكتابة ونحوها من الخطابة والمحاضرة إنما تَحْسنُ إذا كان من ورائها مطلب خيّر مقصود يريد صاحبها الوصول إليه، وبدون ذلك تكون الكتابةُ وأخواتها نوعاً من العبث أو الترف العقلي المذموم وإلهاء الناس بما لا ينفع ولا يفيد... وخيرُ المطالب الخيّرة على الإطلاق تعريفُ الناس بربهم وتوثيق صلتهم به، وشحن نفوسهم بمعاني الإيمان حتى يكون الله ورسوله أحبَّ إليهم مما سواهما، وهداية الحيارى منهم ورد الشاردين إلى طريق الله المستقيم، وتجلية معاني الإسلام لهم، وإزهاق الباطل المقذوف حول عقيدة الإسلام و«نبي الإسلام».

وهذا الكتاب الذي أُقَدِّمُ له هو من هذا النمط العالي الرفيع الذي يهدف إلى خير المطالب الخيّرة التي أشرت إليها، وهو من أحسن وأجود ما قرأت في موضوعه وهو إثبات نبوة محمد ﷺ وما يتعلق بهذا الموضوع الذي هو من ركائز الإيمان وعقيدة الإسلام كما هو معلوم.

والدكتور فاضل صالح، أسعده الله، جعل عنوان الكتاب: (نبوة محمد من الشك إلى اليقين)، مما يوحي إلى القارىء ويتبادر إلى ذهنه أن المؤلفَ شَكَّ وارتاب في نبوة محمد ﷺ ثم عاد إليه اليقين... ويؤيد هذا المتبادر من العنوان ما ذكره المؤلف في مقدمته وبَيَّنه عما اعتراه من شك وارتياب... ولكن هذا المتبادر من العنوان وما يُفهمُ من مقدمة الكتاب، ليس التعبير الدقيق لما اعترى نفس الكاتب فلا أعتقد أنّ الكاتب أصابه شك أزاح إيمانه بنبوة محمد ﷺ وإنما أصابه شيء من وساوس الشيطان وإلقاءاته

وتحرشاته المعهودة بعباد الله المؤمنين.

ولا يقال هذا مني ظَنٌّ محض ورجم بالغيب واحتمال بعيد وكلام غير صحيح. لأن كل إنسان أعرفُ بنفسه من غيره.

والكاتب يُحدِّثُ عن نفسه ويخبر عما وقع له وهو صادق فيما يخبر عنه ويقول، ويُقِرُّ على نفسه، «والإقرارُ حجةٌ على المُقِرِّ» كما يقول الفقهاء. . . وأقول رداً على هذا القول المحتمل أن يقال: أن الإنسان لا يكون دائماً أعرف بأحوال نفسه من غيره فقد لا يعرف ما في نفسه أو ما في بدنه من مرض.

وإذا أحسَّ به فقد لا يعرف نوعه، وإذا عرف نوعه فقد لا يعرف خطورته ولكن يعرف ذلك غيره من أطباء الأبدان والأرواح، وإذا كان هذا مُسَلَّماً به فقد يخبر الإنسان عما في نفسه ولا يكون إخبار دقيقاً ولا مطابقاً لما هو الواقع فعلاً في نفسه، وعلى هذا الأساس قلتُ ما قلته عن الكاتب وقياساً على ما وقع لي في مرحلة من مراحل عمري الفائتة.

وبيان ذلك أن الشيطان لا شأن له بالقلوب الميتة أو المظلمة المغلفة العمياء، فقد انتهى منها، وإنما هَمُّه القلوب المؤمنة فهي التي يَبْغي ويحوم حولها ويسعى لإيجاد ثغرة فيها لاقتحامها لإطفاء نورها أو إزعاج أهلها بما ينفثه فيها من دخان أسود أو بما يلقيه فيها من زخرف القول الباطل.

ومثل الشيطان في ذلك مثل اللص اللئيم الحاقد على ذوي النعمة فهو لا يحوم حول البيوت الخَرِبة المهجورة فليس فيها ما يُغريه على دخولها وإنما يحوم حول البيوت المعمورة المملوءة بما يغريه على اقتحامها وسرقة ما فيها أو على الأقل إزعاج أهلها بجلبته وضوضائه وإلقاء الحجارة عليهم شفاءً لما في صدره من غيظ مكبوت وحقد دفين يَدلُّ على ما قلناه ما جاء في الحديث الشريف الذي رواه الإمام مسلم في «صحيحه» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «جاء ناس من أصحاب النبي ﷺ فسألوه: إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظمُ أَحدُنا أن يتكلم به. قال: وقد وجدتموه؟

قالوا: نعم. قال: ذلك صريح الإيمان»[١].

---

(١) صحيح مسلم (٢٥٧) عن أبي هريرة.

وفي الحديث الذي رواه الإمامان البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «يأتي الشيطان أحدكم فيقول: مَنْ خلق كذا؟ حتى يقول: من خلق ربك؟»[1].

ووجه الدلالة لهذين الحديثين الشريفين أن الشيطان يلقي الخواطرَ السيئة والوساوس في قلب المؤمن ليكدِّرَ صفوَ إيمانِه بالله، ومن المعلوم أن وساوسه لا تقف عند هذا النوع وإنما تشمل كل ما ينافي العقيدة الإسلامية وأصولها مثل الإيمان بنبوةِ محمد ﷺ واليوم الآخر ونحو ذلك.

وهذا الإلقاء الشيطاني يقلق المؤمن ويزعجه ويُهَيِّجهُ كما تزعجه وتهيجه الجراثيم تدخل جسمه، ويستعظم المؤمن هذه الإلقاءات الشيطانية فلا يتكلم بها وإنما يسعى إلى دفعها والتخلص منها كما يسعى مَنْ أصابه مرض إلى الخلاص منه. وهذا كله من علامات حياة القلب وشدة حساسيته ضد كل دخيل طارىء عليه ينافي إيمانه. وهذا ما حصل للمؤلف، فقد استعظم ما أحسَّ به وسمّاه شكاً وهو في الحقيقة نفثٌ شيطاني ظل خارج قلبه لم يقوَ على اقتحامه وإن ظن هو أنه اقتحمه، كالغبارِ يعلو في السماء فيغطي وجه القمر حسب نظر الناظر مع أنه بعيد بعيد عن القمر. ولهذا لم يتكلم الكاتب بما أحسَّ به وإنما راح يسعى صامتاً يجمع الأدلة والبراهين لقمع هذا النفث الشيطاني وإزهاقه فكان هذا الكتاب.

ولا يقال هنا أو يظن أن ما حصل للكاتب يحصل حتماً لكل مؤمن، فليس في كلامنا ما يدل على هذا الظن ولا نعتقد هذا، وإنما الذي قصدناه وأردنا بيانه أن الشيطان من شأنه وعادته الإغارة على قلوب المؤمنين ما وجد إلى ذلك سبيلاً وهذا لا يعني أنه لا يَسْلَمُ منه مؤمن أو أن غاراته كلها تكون من نمط واحد... ومثله في ذلك مثل اللص الحقود اللئيم من شأنه وعادته اقتحام البيوت العامرة ولكن لا يعني هذا أن كل بيت عامر لا بد أن يقتحمه هذا اللص ولا يسلم منه، وإنما يعني أن كل بيت عامر معرَّضٌ لاعتداء هذا اللص.

والنبوة مشتقة من الإنباء، والنبي على وزن فعيل، وهو إما أن يأتي بمعنى فاعل

---

(١) البخاري (٣٢٧٦)، ومسلم (٢٦٢، ٣٤٣).

فيكون المقصود بالنبي المُنْبِىء. وإما أن يأتي بمعنى مفعول فيكون المقصود بالنبي المُنَبَّأ. والحقيقة أن هذين المعنيين متلازمان في إطلاقنا هنا كلمة: النبي لأن النبي هو الذي ينبىءُ الناسَ بما أنبأه الله به، وهو منبَّأ بما أنبأهُ الله به وهذا التلازم بين المعنيين ظاهر في الرسول. لأن كل رسول هو نبي وليس كل نبي رسولاً، والرسولُ هو الذي يُكلَّفُ بتبليغ ما نبأه الله به للناس أما النبي غير الرسول فهو الذي لم يكلف بتبليغ ما نبأه الله به، وفي هذه الحالة أي بالنسبة للنبي غير الرسول يمكن أن يقال أن النبي جاء على وزن فعيل بمعنى المفعول فيكون المقصود به: المنبأ.

ولفظ الإنباء وإن كان يعني الإعلام والإخبار ولكنه في عامة موارده في القرآن الكريم يراد به الإخبار عن الأمور الغائبة التي يختص بمعرفتها من يخبر بها دون الإخبار بالأمور المُشاهَدة التي يشترك في معرفتها مع المخبر غيره من الناس. فمن هذه الاستعمالات القرآنية قوله تعالى حكاية عن قول عيسى عليه السلام ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ﴿٤٩﴾﴾ [آل عمران].

وقال تعالى عن رسوله محمد ﷺ: ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾﴾ [التحريم].

وقال تعالى عن يوم القيامة: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾﴾ [النبأ].

وقال تعالى: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾ [ص].

والإيمان بالنبوات يقوم على الإيمان بالله تعالى ويتفرع منه، فلا يُتصوَّرُ إيمانٌ بالنبوات مع جحدٍ لوجود الله تعالى. ومن هنا كان لا بد من الكلام ولو قليلاً عن الإيمان بالله وهذا ما فعله صاحب الكتاب فذكر بعض الأدلة على الإيمان بالله وأحال القارىء إلى كتابه «نداء الروح» للوقوف على المزيد من الأدلة والبراهين على وجود الله تعالى وضرورة الإيمان به.

والحقيقة أن مسألة الإيمان بوجود الله هي أكبر وأظهر البديهيات على الإطلاق وتساوي في ظهورها وبداهتها قولنا: «واحد زائد واحد يساوي اثنين» وما من شيء على الإطلاق عليه من الأدلة والبراهين المثبتة لوجوده مثل وجود الله تعالى. فكل شيء بلا استثناء من ملموس ومرئي ومسموع، وبكلمة أشمل، كل موجود في الأرض هنا أو في

السماء وأجرامها هناك دليل قاطع وبرهان ساطع على وجود الله تعالى. وكل تقدم علمي يظفر به الجنس البشري يقدم لنا مقادير هائلة من الأدلة والبراهين على وجود الله تعالى كما حصل في مجال الذرة والصعود إلى القمر. ولو أردنا إحصاء هذه الادلة والبراهين على وجود الله سواء في ما يَختصُّ بمعرفته العلماءُ وما يشترك معهم في معرفته العوام لما استطعنا لها عَدّاً.

والإيمان بوجود الله تعالى بعد هذا، مركوز في نفس الإنسان ومفطور عليه، والمنكرون له شرذمة قليلة يقوم إنكارها على محض المكابرة والعناد، وكثيراً ما يزول هذا العناد عند الشدائد فيعود الإيمان إلى نفوس المعاندين وفي هذا وقائع كثيرة جداً لأن الغالب إصابة الناس بالشدائد والضراء، ومن هذه الوقائع ما روته إحدى المجلات من حديث لطيار ملحد عن أحرجِ الساعات التي مرّ بها أثناء عملة في الحرب العالمية الثانية، قال: كان رجلاً ملحداً لا يعرف الله ولم يذكر اسمه قط، وفي إحدى غاراته على العدو أصاب طائرته خلل خطير لا خلاص له منه ومعنى ذلك الموت المحقق له. قال ذلك الطيار الملحد: فوجدتُ نفسي وبلا شعور مني ولا إرادة ولا قصد أهتفُ باسم الله طالباً منه الغوثَ والمدد، وقد جاءه المدد ونجا بأعجوبة بيّنها في حديثه وصار بعدها من المؤمنين. ولما كان الإيمان بوجود الله تعالى مفطوراً عليه الإنسان بأصل خِلْقتهِ وجِبِلَّتِه ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ ۝٣٠﴾ [الروم] لم يرسل الله تعالى رسله ليثبتوا للناس وجود الله وإنما أرسلهم ليثبتوا لهم استحقاقَ الله وحدَهُ للعبادةِ بجميع أشكالها ومعانيها.

قال تعالى حكاية عن بعض ما قاله رسل الله إلى أقوامهم ﴿۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ ۝١٠﴾ [إبراهيم] وقال تعالى مبيناً بِمَ أرسلَ جميع رسله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَۖ ۝٣٦﴾ [النحل].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ۝٢٥﴾ [الأنبياء]. والإله هو المألوه، أي: المعبودُ الذي تَألَهه القلوبُ بغاية المحبة والخضوع، فلا معبودَ بحقٍّ إلا الله تعالى، ولما كان المشركون مُقِرِّين بوجود الله وبربوبيته وتفرده بالخلق والإحياء والإماتة والنفع والضر والعطاء والمنع والرزق، فإن القرآن الكريم يُذكِّرهُم بهذا الإقرار ويقول لهم: إن الله هو الإله الفرد كما هو الرب الفرد. وإذا كان

الله تعالى هو المستحق وحده للعبادة وإن الله ما خلقَ الجنَّ والإنس إلا لعبادته قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات] فلا بد من تعريف الخلق بكيفية عبادته وطرق ومناهج هذه العبادة. فكان من رحمة الله أن أرسل لهم رسلاً من جنسهم يبينون لهم مناهج عبادة الله التي يسعدون بها، فبعثةُ الرسل من لوازم ومظاهر رحمة الله بعباده وربوبيته لهم، ولهذا كان إنكار النبوات جهلاً بحقيقة ربوبية الله وتنقيصاً بقدر الله. قال تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ [الأنعام].

وإذا كان إرسال الرسل من لوازم ربوبية الله تعالى ورحمته، فإن هذا اللازم قد حصل فعلاً، فقد أرسل الله تعالى للناس رسلاً مبشِّرين ومنذرين على فترات من الزمن، حتى صارت أخبار الرسل ومجيئهم للناس ودعوتهم إلى عبادة الله وبأن الله أرسلهم ليبلِّغوهم رسالاته صار كل ذلك من الأمور الشائعة المعروفة عند البشر المقطوع بوقوعها ولهذا قال تعالى لرسوله الكريم ﷺ: ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ [آل عمران].

فجنس الرسل وإن كان قليلاً في البشر إلا أنه معروف عندهم غير منكور كما قلنا وجميعُ رسلِ الله دعوا إلى عبادة الله وحده كما أشرنا إلى ذلك من قبل، ولهذا كان دين الأنبياء واحد وإن اختلفوا في طرائق العبادة ومناهجها، قال ﷺ: «إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد وأنا أَوْلى بابنِ مريمَ لأنه ليس بيني وبينه نبي». وقال تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة].

ولما كان الأنبياء دينهم واحد، ومُرْسِلُهم واحد وهو الله جل جلاله كان الإيمان بجميعهم واجباً لا يجوز التفريق فيما بينهم بهذا الإيمان قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ۝ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء].

وقال تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴾ [البقرة].

وإذا كان الإيمان بجميع الأنبياء واجباً. فإن الطاعة تكون للرسول القائم إلى أن يأتي

الذي بعده فتكون الطاعة له، وهذه الطاعة في الحالتين هي في الحقيقة طاعة لله. قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ ﴿٨٠﴾﴾ [النساء]. ومن يرفض طاعة الرسول المتأخر بحجة طاعتهِ للرسولِ المتقدم حجتهُ داحضة غير مقبولة في عقلٍ ولا دين، ومثلهُ مثلُ الذي يرفض طاعة أميره الذي عَيَّنَهُ السلطان العادل بحجة أنه مطيع ومتبع للأمير السابق الذي مات... وهذا محضُ الجهل لأن طاعةَ الرسول كما قلنا هي طاعة الله.

والرسول إنما يُطاعُ باعتباره رسولاً يُبلِّغُ عن الله ولا يُطاع لذاته. ولهذا كان الرسول المتقدم يبشر بالرسول الذي يأتي بعده مُذَكِّراً قومه بهذه البشارة بلزوم طاعته. قال تعالى عن بشارة عيسى عليه السلام بمحمد ﷺ: ﴿وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ ﴿٦﴾﴾ [الصف]. والرسولُ المتأخِّرُ يصدِّقُ الرسولَ المتقدم، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ ﴿٤٨﴾﴾ [المائدة]. وقد ذكر المؤلف، أسعده الله، بعضَ النصوص من التوراة التي في أيدي اليهود الآن ومن الإنجيل الذي في أيدي النصارى الآن. وهذه النصوص صريحة في دلالتها على نبوة محمد ﷺ.

وإذا كان رُسُلُ الله يبلغون رسالاته، وعلى البشر طاعتهم وفاءً بحق الله عليهم وظفراً بالسعادة في الدارين ونجاةً من العقوق والعصيان وما يترتب على ذلك من شقاوة لهم وسخط الله عليهم، أقول: إذا كان الأمر هكذا فينبغي أن يُؤَيَّدَ رسلُ الله بما يَدلُّ على صِدقهم ولا يلتبسُ أمرهم بغيرهم من المفترين على الله الكذب، وهذا ما حصل فعلاً، فإن الله تعالى من تمام نعمته ورحمته وإقامة الحجة على عباده، أيد رُسلَهُ بآياتٍ تدل على صدقهم وعلى أنهم رسل الله حقاً، وهذه الآيات هي التي يسميها العلماء بالمعجزات، أما القرآن فيسميها الآيات. وكذا يسميها رسوله ﷺ، وهذه التسمية أولى من تسميتها بالمعجزات، فمن استعمالات القرآن قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلۡجَرَادَ وَٱلۡقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [الأعراف]، ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأعراف].

وفي الحديث الشريف، قال ﷺ: «ما من نبيٍّ من الأنبياء إلا وقد أُوتيَ من الآيات ما آمنَ على مِثْلهِ البشر... إلخ».

وقد يسمي القرآن معجزات الأنبياء بالبينات كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم

بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴿١٠١﴾ ﴾ [الأعراف]، وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [الأعراف]. فالبيّنة والآية، في هذه الآيات هي المعجزة التي أيد الله بها رسله لِيُظهر صِدْقهم.

ولما كانت رسالة محمد ﷺ عامة لجميع البشر عربهم وعجمهم، أبيضهم وأسودهم، قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴿١٥٨﴾ ﴾ [الأعراف].

وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [سبأ]، وأنه خاتم الأنبياء، قال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الأحزاب]، كانت آياتُ نبوتهِ متنوعة ومعروفة للذين أُرسلَ إليهم ومناسبة لجميع الناس على اختلاف معارفهم وعقولهم واستعداداتهم. وهذا، والله أعلم سِرُّ تَنوُّع آياتِ نبوته ﷺ. فمن آيات نبوته سيرتهُ العطرة وأخلاقه الزكية وصدقه التام فما عُرِفَ عنه كذبٌ قط ولا خيانة قط ولا فاحشة قط، ولا شكَّ أن مثلَ هذه السيرة العطرة الطيبة دليلٌ كافٍ لذوي العقول السليمة والفِطرِ السليمة على نبوة محمد ﷺ فإن الذي لم يُعْرفْ عنه كذبٌ في أهون الأمور لا يتصور منه الكذبُ على الله الذي هو أفحشُ الكذب قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ ﴿٩٣﴾ ﴾ [الأنعام] ولهذا كانت سيرته ﷺ دليلاً كافياً على نبوته عند أبي بكر الصديق وخديجة ولم يطلبا خارقاً أو دليلاً آخر على صدقه ﷺ. وكذلك أسلم أعرابي جاء إلى رسول الله ﷺ وسأله: آلله أرسلكَ للناس؟ قال: نعم. فأسلم الأعرابي وقال: ليس هذا الوجه - أي وجه رسول الله - وجه كذاب، ذلك أنَّ التمسكَ بالصدق يتركُ أثره في قسماتِ وجهِ الصادق يُبصرهُ ذوو البصائر والفراسة. ولكن ليس كل الناس كأبي بكر وخديجة وذلك الأعرابي في سرعة الاستجابة والاكتفاء بسيرة النبي ﷺ والاستدلال بها على صدقه ونبوته، فلا بد من تنوع آيات نبوته، وهذا ما حصل.

وقد ذكر الدكتور فاضل حفظه الله بعض هذه الآيات المنقولة إلينا نقلاً متواتراً مثل انشقاق القمر والإسراء ووصفه لبيت المقدس ولم يكن قد رآه قبل أن أُسريَ به ﷺ وتسبيح الحصى في كفيه وحنين الجذع له وتكثير الطعام ونبع الماء من بين أصابعه الشريفة. ولكن أعظم تلك الآيات على الإطلاق القرآن العظيم فهو آيته العظمى التي لا

تزال قائمة بيننا تُخْرِسُ كلَّ مُبْطِلٍ وتتحدى كل جاحد وتثبت صفات الإيمان: قال ﷺ مشيراً إلى عظم هذه الآية: أي القرآن الكريم: «ما من نبي إلا وقد أُوتيَ من الآيات ما آمن على مِثْلِهِ البشر وإنما كان الذي أُوتيتهُ وحياً أوحاه الله إليّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة».

ومظاهر وجوه إعجاز القرآن ودلالته على نبوته ﷺ كثيرة جداً ذكر بعضها صاحب الكتاب. ومن المعروف أن القرآن الكريم تحدى كل مرتاب أو مُنْكِرٍ لنبوة محمد ﷺ بأن يأتي بمثل هذا القرآن إن كان صادقاً في إنكاره نبوة محمد ﷺ قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء]. ومَنْ سَوَّلَتْ له نفسه تَحدِّيه جاء بكلامٍ ساقطٍ مُضحك يفضح كذب هذا المنكر المكابر كما وقع لمسيلمة الكذاب الذي ادعى النبوة وجاء بساقطِ القول متحدياً القرآن، فكان مما جاء به من لَغْوٍ ساقط قولُه: «يا ضفدع بنت ضفدعين نقّي كما تنقين لا الماءَ تُكَدِّرين ولا الشاربَ تمنعين رأسكِ في الماء وذنبكِ في الطين».

والحقيقة أن القرآن الكريم لا يمكن أن يصنعه إنسان قط لأنه كلامُ رَبِّ العالمين المختص به، وأية محاولة من أي إنسان للإتيان بمثله فهي فاشلة قطعاً، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴿٣٧﴾﴾ [يونس] فلا يمكن ولا يجوز أن يصدر هذا القرآنُ إلا من الله تعالى، ولا يمكن أن يصنعه أي مخلوق لأنه خارجٌ عن قُدرته.

وإذا ثبت بالدليل القاطع أن محمداً ﷺ رسول الله حقاً إلى جميع الناس فعليهم تصديقُه والإيمان بنبوته لا سيما أصحاب الأديان من يهود ونصارى وغيرهم لأنه ما من آيةٍ دَعَتْهم إلى الإيمان بأنبيائهم إلا ولرسولِ الله محمد ﷺ مثل تلك الآية وأكبر منها. ويَفضلُ جميعَ الأنبياء بآيته الكبرى الباقية حتى الآن وهي القرآن الكريم، بينما آيات الأنبياء جميعاً كلها مضت وبقيت أخبارها. فلا يَسوغُ في عقلٍ الإيمانُ بنبوة الأنبياء السابقين وإنكار نبوة محمد ﷺ. ومثل مَنْ يفعل ذلك مثل من يؤمن بفقه فلان لأنه طالب في الصف الأول بكلية الدراسات الإسلامية وينكر فقه أبي حنيفة والشافعي ومالك وأحمد بن حنبل، أو يؤمن بشاعرية فلان لأنه نظم قصيدة متهافتة ركيكة وينكر شاعرية المتنبي أو البحتري، أو يؤمن بعلم فلان بالنحو لأنه طالب في الصف الأول في كلية اللغة وينكر معرفة سيبويه بالنحو، أو يؤمن بعلم فلان بالحديث لحفظه بعض الأحاديث

وبعض فنون الحديث واصطلاحاته وينكر على البخاري علمه ومعرفته بالحديث.

فإذا كان ذلك كله مستنكراً في العقول السليمة فإن إنكار نبوة محمد ﷺ مع الإيمان بنبوة غيره أشد استنكاراً.

ويرد هنا سؤال، إذا كان الأمر كما قلنا فلماذا لم يؤمن أصحاب الأديان الأخرى بنبوة محمد ﷺ ولماذا يقعون في هذا التناقض الذي ضربت له الأمثال؟ والجواب من وجهين:

«**الوجه الأول**»: الجهل. فمن جهل شيئاً لم يقدره ولم يعرف قيمته وهكذا الأمر بالنسبة لنبوة محمد ﷺ وآيات نبوته فَمَنْ جَهِلَها ولم يعلمها إما لعدم بلوغه خبرها وخبر دعوته وآيات صدقه أو بَلَغَهُ ذلك مُحَرَّفاً مشوَّهاً دون أن يتحرى وجه الصواب ويطلب المعرفة الصحيحة في مسألة نبوته عليه الصلاة والسلام فيبقى على جهله وعدم إيمانه به ﷺ. وإذا كان على دين وكان عنده شيء من عقل أبصرَ تناقضَ دينه فربما تمرد عليه وبقي بلا دين أي بلا اتباع نبي. وهذا السبب أي الجهل هو الغالب على عامة أصحاب الأديان. ومن هنا كان القيام بتبليغ الدعوة الإسلامية إلى أهل الأرض من الفروض على المسلمين.

«**الوجه الثاني**»: اتباع الهوى، وهذا هو الغالب على طلاب الرياسة مما حملهم على العناد وعدم الإيمان بنبوة محمد ﷺ، فإن الهوى كما قيل يُعمي ويُصِم وله تأثيرٌ بالغ في النفس، فهو يشبه الدخان الأسود الكثيف الذي يمر على لوح أبيض ناصع البياض، فكلما مرَّ عليه ترك سواداً فيه وغطى بياضاً منه حتى يسوده تماماً، وهكذا قلبُ الإنسان، يَسودُّ تماماً بسبب أهواء النفس التي تعصف فيها فلا يعود يبصر الحق، وإذا بصره فلا يتحمس له ولا يندفع نحوه ولا يرضى به ولا ينقاد إليه، وقد حدثنا القرآن الكريم عن أصحاب الكتاب وأنهم يعرفون رسول الله كما يعرفون أبناءهم ومع ذلك لم يؤمنوا به عناداً منهم واتباعاً لأهواء نفوسهم حرصاً منهم على الرياسة باسم الدين على أتباعهم وهكذا كان شأن فريق من كفرة قريش أعمى قلوبهم الهوى حتى لم يعودوا يبصرون الآيات وإذا أبصروها لم ينتفعوا بها، بل يزدادون بها ضلالاً ويؤولونها التأويلات الباطلة.

قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ [الأعراف]،

وقال تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [يس]، وقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [يوسف]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾ [الأنعام].

وهذا غاية الخذلان وانتكاس القلب. بل إن اسوداد القلب بسبب اتباع الهوى يبلغ مبلغاً عظيماً بحيث أن صاحبه لو أبصر نار الآخرة حقيقة ثم عاد إلى الدنيا لعاد إلى كفره وتكذيبه. قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام]. وهذا شيء مخيف جداً يرتعد منه المسلم الحريص على إيمانه ويجعله دائم المراقبة لنفسه وما يجري فيها من تيارات الهوى الخفية لئلا تشتدَّ وتميلَ به عن الحق حتى تزيحه عنه تماماً.

ومهما يكن من أسباب جحد الجاحدين بنبوة محمد ﷺ فإن جحودهم في واقع الأمر تصديق لما أخبر به القرآن من عدم إيمانهم، كما أن إيمان مَنْ آمن منهم تصديق لما أخبر به القرآن الكريم من إيمانهم. وفي هذا وذاك دليل آخر يضاف إلى أدلة نبوة محمد ﷺ. ولا يقدح في نبوته ﷺ تكذيبُ مَنْ كذبه فإن في الإنسان استعداداً هائلاً للانحدار والضلال، وقد يبلغ به السفه كما بلغه فعلاً أن يشدَّ الرِّحالَ لقتلِ رسول الله كما فعل المشركون الأولون، فلم يكتفوا بعدم الإيمان به والاهتداء بهديه وهم يرون آيات صدقه ونبوته، وإنما راحوا يدبرون الكيد له لاغتياله في مكة فلما نجاه الله منهم أرادوا اللحاق به إلى المدينة لقتله وقتل أتباعه. فهل هناك أكبر من هذا الانحدار الهائل في الضلالة وعمى البصيرة؟

نعوذ بالله من الخذلان، ولهذا نحن لا نعجب أبداً من تكذيب المكذبين ومن صدود كثير من الناس عن الحق. ونحن نعلم يقيناً أن المشركين الأقدمين كانوا يرون رسول الله ﷺ بوجهه المنير مؤيداً بآيات ربه ودلائل صدقه ومع هذا كذبوه بل وقاتلوه، فليحمد المسلم على نعمة الإسلام وليعضّ عليها بالنواجذ حتى يلقى عليها الله وليكثر من قول «يا مُقلّبَ القلوب ثَبِّتْ قلوبنا على دينك».

وبعد: فإني أعود إلى ما قلته أولاً من أن هذا الكتاب من أجود وأحسن ما قرأت في

موضوعه، وأحسب أن صاحبه قد وُفِّقَ في تأليفه كثيراً فليحمد على ذلك. وليس قصدي من هذا الكلام مدح الكتاب وصاحبه وإن كان المدح في محله ولمستحقه سائغاً مقبولاً.

وإنما قصدي الدلالة على ما ينفع الناس ويحتاج إليه الكثيرون منهم وإن كان في ثنايا هذه الدلالة مدح الكتاب وصاحبه، ومثلي في ذلك مثل مَنْ يَدلُّ العَطشى على عين ماء عذب ويدل الجياع على قصعةٍ طعامها شهيٌّ لذيذ مباح وإن كان في ثنايا هذه الدلالة الإشارة إلى فضل مَنْ قَدَّمَ هذا الطعام وتسبب في تدفق ذلك الماء العذب الزلال.

أثاب الله مؤلف هذا الكتاب بسعادة الدارين ونفع به الناس وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين والحمد لله رب العالمين.

الدكتور عبد الكريم زيدان

بغداد جمادى الأولى / ١٣٩٢

حزيران ١٩٧٢

بَينَ الإلحَادِ والإيمان

هناك فكرتان رئيستان في تفسير نشوء الكون والخلق والإيجاد؛ فكرةٌ مادية لا تلتمس ولا ترى أن وراء الكون المادي قوة تفسر نشوء الكون وخلقه وإيجاده، وفكرة أخرى إيمانية إلهية ترى أن لهذا الكون إلهاً مبدعاً عالماً قديراً لا حدود لعلمه وقدرته وإرادته. ونحن هنا لا نريد أن نتقصى الأدلة على وجود الخالق فإن هذا لا يمكن أولاً لأنها من الكثرة والتنوع والتعدد بحيث لا يمكن حصرها، ثم إنها ليست موضوعَ بحثنا وإن كانت هي القاعدة الأولى لبحثنا وحسبنا هنا أن نمس الموضوع مساً خفيفاً يتناسب وما نحن بصدده.

١- لو نظرنا إلى الإنسان وأجهزته - مثلاً - لرأينا أن كل عضو من أعضائه يقوم بوظيفة معينة وأنه موضوع لغاية محددة مرسومة فالعين - مثلاً - وُضعت وصُمِّمت لتقوم بوظيفة الرؤية وكل أعضائها وأنسجتها وضعت وصممت لخدمة هذه الغاية؛ والأذن صممت ووضعت لتقوم بوظيفة السمع وكل عضو من أعضائها صمم ليقوم بوظيفة خاصة تخدم هذه الغاية الكبيرة، وهكذا كل عضو في جسم الإنسان رُسمت له وظيفة محددة واضحة يقوم بها، فمن الذي حدَّدَ الغايات وصنع كل جهاز وكيَّفه ليقومَ بهذه الغاية؟

إن الناظر في جسم الإنسان أو أي كائن حي آخر يرى أن مُصَمِّمَهُ وخالقه عالمٌ بما يريد من كل عضو، فالقلب والرئتان والمعدة والأمعاء والكبد والكليتان واللسان والأسنان والغدد المختلفة وغيرها وغيرها كلها واضحة الأهداف والغايات فدل ذلك على أن مصممه عالمٌ بالغايات وصمم كل عضو وخلقه ليقوم بتنفيذ هذه الغايات والأهداف بدقة. ألا ترى أن الذي جعل لسان المزمار في سقف الحلق - مثلاً - يعلم أن وجوده في مكانه ضروري لمنع دخول الطعام إلى الرئتين؟ وأن الذي وضع الصفراء والبنكرياس على علم بأن وجودهما ضروري لتحليل المواد الدهنية؟ وإن الذي وضع الكبد والكليتين في مكانهما على علم بمهمتهما وضرورتهما للجسم؟ وإن الذي وضع في الأذن مادة مُرَّة سامة وفي الفم مادة حلوة - أعني اللعاب - على علم بما يصنع، فلماذا لم يكن الأمر

على العكس لو كان الأمر كله خبطاً واتفاقاً؟

وما أصدق قول القائل «إن الذي خلق العين على عِلْم بقوانين الضوء وإن الذي خلق الأذن على علم بنواميس الصوت» ولو لم يكن خالقُ العين عالماً بقوانين الضوء في الانكسار والالتقاء وغيرهما لما حصلت الرؤية، ولو لم يكن خالق الأذن على علم بنواميس الصوت لما حصل السمع.

إن (المصادفة) لا يمكن أن تفسر هذا الأمر البتة لأن المصادفة قد تقع في أمر واحد أو اثنين ولا يمكن أن تجتمع في آلاف أو ملايين الموافقات.

فأنت إذا رأيت حرفاً هجائياً منتظماً مخطوطاً حضر إلى ذهنك أن ثَمَّةَ كاتباً لهذا الحرف وربما وضعتَ احتمال المصادفة على بُعْدِه، فإن رأيت كلمة مكتوبة ذات معنى ابتعد احتمالُ المصادفة، فإن رأيت سطراً كانت المصادفة أبعد، فإن رأيت صفحة انتفى أمر المصادفة، فإن رأيت كتاباً استحال أمرُ المصادفة فإنَّ الإنسان أكبر من أي كتاب بل إن كل جهاز منه هو كتاب بل كل عضو منه إنما هو كتاب، فالأذن وتكوينها وأعضاؤها إنما هي كتاب، والعين كتاب ضخم وهكذا فأيُّ احتمالٍ للمصادفة ههنا؟

وقِسْ على ذلك بقية المخلوقات الهائلة من حيوانات ونباتات وقس على ذلك ما في الكون الهائل من دقة وانتظام وغايات.

إن المصادفة لا تصح لتعليل نشأة خلية واحدة كما هو مقرر علمياً فكيف بملايين الخلايا المتباينة ذات الأهداف المتباينة والغايات البعيدة؟

قال الدكتور فرانك أللن عالم الطبيعة البيولوجية: «إن البروتينات من المركبات الأساسية في جميع الخلايا الحية، وهي تتكون من خمسة عناصر هي: الكربون والإيدروجين والنتروجين والأوكسجين والكبريت. ويبلغ عدد الذرات في الجزيء البروتيني الواحد ٤٠٠٠٠ ذرة. ولما كان عدد العناصر الكيماوية في الطبيعة (٩٢) عنصراً موزعة كلها توزيعاً عشوائياً فإن احتمال اجتماع هذه العناصر الخمسة لكي تكون جزيئاً من جزيئات البروتين يمكن حسابه لمعرفة كمية المادة التي ينبغي أن تخلط خلطاً مستمراً لكي تؤلف هذا الجزيء ثم لمعرفة طول الفترة الزمنية اللازمة لكي يحدث هذا الاجتماع بين ذرات الجزيء الواحد.

وقد قام العالم الرياضي السويسري تشارلز يوجين بحساب هذه العوامل جميعاً فوجد أن الفرصة لا تتهيأ عن طريق المصادفة لتكوين جزيء بروتيني واحد إلا بنسبة (١) إلى $١٠^{١٦٠}$ أي بنسبة (١) إلى رقم عشرة مضروباً في نفسه ١٦٠ مرة، وهو رقم لا يمكن النطقُ به أو التعبير عنه بكلمات. وينبغي أن تكون كمية المادة التي تلزم لحدوث هذا التفاعل بالمصادفة بحيث ينتج جزيء واحد أكثر مما يتسع له كل هذا الكون بملايين المرات. ويتطلب تكوين هذا الجزيء على سطح الأرض وحدها عن طريق المصادفة بلايين لا تُحصى من السنوات قَدَّرها العالم السويسري بأنها عشرة مضروبة في نفسها ٢٤٣ مرة من السنين $١٠^{٢٤٣}$ سنة.

إن البروتينات تتكون من سلاسل طويلة من الأحماض الأمينية. فكيف تتألف ذرات هذه الجزيئات؟ إنها إذ تآلفت بطريقة أخرى غير التي تتآلف بها تصير غير صالحة للحياة بل تصير في بعض الأحيان سموماً. وقد حسب العالم الإنجليزي ج.ب. ليثز J.B. Leathes الطرق التي يمكن أن تتآلف بها الذرات في أحد الجزيئات البسيطة من البروتينات فوجد أن عددها يبلغ الملايين $١٠^{٤٨}$. وعلى ذلك فإنه من المحال عقلاً أن تتآلف كل هذه المصادفات لكي تبني جزيئاً بروتينياً واحداً.

ولكن البروتينات ليست إلا مواد كيماوية عديمة الحياة ولا تدب فيها الحياة إلا عندما يحل فيها ذلك السر العجيب الذي لا ندري من كُنْهِهِ شيئاً. إنه العقل اللانهائي وهو الله وحده الذي استطاع أن يدرك ببالغ حكمته أن مثل ذلك الجزيء البروتيني يصلح لأن يكون مستقراً للحياة فبناه وصَوَّرَهُ وأغدق عليه سر الحياة».

وقال الدكتور جون أدولف بوهلر أستاذ الكيمياء بكلية أندرسون ومتخصص في تركيب الأحماض الأمينية: «عندما يطلق الإنسان قوانين المصادفة لمعرفة مدى احتمال حدوث ظاهرة من الظواهر في الطبيعة مثل تكوين جزيء واحد من جزيئات البروتين من العناصر التي تدخل في تركيبه فإننا نجد أن عمر الأرض الذي يُقدَّر بما يقرب من ثلاثة بلايين من السنين أو أكثر لا يعتبر زمناً كافياً لحدوث هذه الظاهرة وتكوين هذا الجزيء عن طريق المصادفة».

فالقولُ بالمصادفة في الحقيقة إنما هو فرارٌ من التعليل العلمي والإلزام المنطقي العقلي بوجود الخالق المبدع. ولكن أَنَّى لهم هذا؟ فالموافقات الكثيرة والغايات الدقيقة

والأهداف الواضحة تنفي هذا الاحتمال البتة كما رأيت وكما هو مقرر علمياً.

٢- نظرة إلى عالم الحيوان تُرينا أنه على أنواع منها ما يسير في الأرض ومنها ما يطير في السماء ومنها ما يسبح في الماء وقد أعدّ كل صنف إعداداً خاصاً تبعاً لنوع معيشته. فقد زُوِّدَ الطيرُ بأجنحة وهُيِّئَتْ أجهزته وبناؤه الجسمي للطيران في الهواء، وزود السمك بخياشيم يستطيع معه أن يتنفس الهواء المذاب في الماء.

ثم نرى أن الحيوانات مكيفة بحسب بيئتها، فالحيوانات التي تعيش في المناطق الحارة تختلف عن أختها التي تعيش في المناطق الباردة من حيث بناء الجسم وتغطيتها بِفراء ثخينة أو شعر طويل، والتي تعيش في المناطق الصحراوية تختلف عن التي تعيش في المناطق الكثيرة الماء وقد أُعِدَّ كل صنف إعداداً خاصاً تبعاً لتنوع معيشته واختلاف بيئته، فمن الذي أدرك هذه الحاجات وزود كل صنف بما يحتاج إليه؟ من الذي غطى الحيوانات القطبية بالفراء الثخينة والأشعار الطويلة والبناء الجسمي المتين ونزع ذلك عن أختها في المناطق الحارة؟ من الذي زود الحيوانات الصحراوية بقابلية جسمية على خزن الماء وتحمل العطش وأعدَّ جسمه وفمه للعيش على النباتات الصحراوية القاسية ونزعَ ذلك عن الحيوانات التي تعيش في المناطق الكثيرة الماء؟ ألست ترى أن الذي جعل معدة الجمل - مثلاً - ذات مخادع لخزن الماء يعلم أنه حيوان يعيش في منطقة قليلة الماء؟ أولست ترى أن الذي جعل باطن فمه مغلقاً بمادة سميكة ليتلقى الأشواك والنباتات الصحراوية القاسية يعلم بأنه حيوان صحراوي يعيش على هذا النوع من النباتات وزوده بما يصلحه لذلك؟

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى نرى أن كل صنف من الحيوان أُودعت فيه غرائزُ تَهديه إلى ما يصلحه ويُبقي نوعه بطرائق في غاية الدقة والعجب وهو يقوم بذلك وإن لم يكن رأى أحداً من بني جنسه يقوم بها. فلو قُدِّرَ لك أن تأخذ بيضة نحل وتفقسها بطريقة علمية بعيدة عن كل نحلة فلا شك أنها بعد فترة وجيزة ستبني خلية من الشمع على شكل مسدس منتظم وإن لم تكن رأت أمها أو أحداً من جنسها، فمن الذي علمها صنعة المسدس المنتظم لخزن العسل وهي لم تر أمها أو أحداً من جنسها يفعل ذاك؟

وهناك أمثلة كثيرة لمثل هذه الإلهامات.

ومن طريف ما مرَّ بي أن أحد أصدقائي وضع زهاء ثلاثين بيضة دجاج معها بيضة

واحدة لطير مائي في ماكنة تفريخ وبعد مرور المدة فقسَ جميعُ البيض ونزلت الفراخ من الماكنة وبعد نزولها توّاً ذهبت فراخ الدجاج إلى الحديقة تبحث في التراب وانفرد عنها فرخ الطير المائي فذهب إلى الساقية يسبح ولم تَغرَّهُ الجموعُ الكثيرة من الفراخ ليذهب معها، فمن الذي أعلمه أنه طير مائي وأرشده إلى ذلك وهو لم يشاهد أمه أو أحداً من جنسه؟

إنه الله الذي أعطى كل شيء خَلْقَهُ ثم هدى.

٣- ثم لو نظرنا إلى هذه الأرض التي نَدرجُ عليها ووضعها في الكون الفسيح لرأينا أنها اجتمعت عليها ألوف العوامل بل ملايين العوامل لتجعلها صالحة للحياة، فحجمها الحالي وبُعْدها الحالي عن الشمس وميلان محورها بهذا القدر وقشرتها الأرضية السهلة الاستعمال وسمكها وتوزيع الماء واليابسة ووضع الجبال وتركيب الماء من عناصر معينة بنسب معينة وخلط الهواء من عناصر معينة بنسب معينة لو اختلَّت لفسدت الحياة، وغلافها الغازي وتكوينه وحجمه كلُّ ذلك وغيره عوامل لو اختل واحد لاختل نظام الحياة أو استحال، فمن الذي أدرك هذه العوامل والقوانين وقدّرها وألف بينها لتظهر الحياة؟ أليس الذي فعل ذلك عالماً قديراً حكيماً مدبراً؟

قال الدكتور فرانك ألن: «ويحيط بالأرض غلاف غازي يشتمل على الغازات اللازمة للحياة ويمتد حولها إلى ارتفاع كبير (يزيد على ٥٠٠ ميل).

ويبلغ هذا الغلاف الغازي من الكثافة درجة تحول دون وصول ملايين الشهب القاتلة يومياً إلينا مُنقضَّةً بسرعة ثلاثين ميلاً في الثانية، والغلاف الجوي الذي يحيط بالأرض يحفظ درجة حرارتها في الحدود المناسبة للحياة ويحمل بخار الماء من المحيطات إلى مسافات بعيدة داخل القارات حيث يمكن أن يتكاثف مطراً يُحيي الأرضَ بعد موتها والمطر مصدر الماء العذب ولولاه لأصبحت الأرض صحراء جرداء خالية من كل أثر للحياة.

ومن هنا نرى أن الجو والمحيطات الموجودة على سطح الأرض تمثل عجلة التوازن في الطبيعة... وكثيراً ما يسخر البعض من صغر حجم الأرض بالنسبة لما حولها من فراغ لا نهائي. ولو أن الأرض كانت صغيرة كالقمر أو حتى لو أن قطرها كان ربع قطرها الحالي لعجزت عن احتفاظها بالغلافين الجوي والمائي اللذين يحيطان بها،

ولصارت درجة الحرارة فيها بالغة حَدَّ الموت، أما لو كان قطر الأرض ضعف قطرها الحالي لتضاعفت مساحة سطحها أربعة أضعاف وأصبحت جاذبيتها للأجسام ضعف ما هي عليه وانخفض تبعاً لذلك ارتفاع غلافها الهوائي وزاد الضغط الجوي من كيلو جرام إلى كيلو جرامين على السنتمتر المربع ويؤثرُ كل ذلك أبلغَ الأثر في الحياة على سطح الأرض فتتسع مساحة المناطق الباردة اتساعاً كبيراً وتنقص مساحة الأرض الصالحة للسكنى نقصاً ذريعاً وبذلك تعيش الجماعات الإنسانية منفصلة أو في أماكن متنائية فتزداد العزلة بينها ويتعذر السفر والاتصال بل قد يصير ضرباً من ضروب الخيال.

ولو كانت الأرض في حجم الشمس مع احتفاظها بكثافتها لتضاعفت جاذبيتها للأجسام التي عليها ١٥٠ ضعفاً ولنقص ارتفاع الغلاف الجوي إلى أربعة أميال ولأصبح تبخر الماء مستحيلاً ولارتفع الضغط الجوي إلى ما يزيد على ١٥٠ كيلو جراماً على السنتمتر المربع ولوصل وزن الحيوان الذي يزن حالياً رطلاً واحداً إلى ١٥٠ رطلاً ولتضاءل حجم الإنسان حتى صار في حجم ابن عرس أو السنجاب ولتعذرت الحياة الفكرية لمثل هذه المخلوقات.

ولو أُزيحت الأرض إلى ضعف بُعْدِها الحالي عن الشمس لنقصت كمية الحرارة التي تتلقاها من الشمس إلى ربع كميتها الحالية وقطعت الأرض دورتها حول الشمس في وقت أطول وتضاعف تبعاً لذلك طول فصل الشتاء. وتجمدت الكائنات الحية على سطح الأرض. ولو نقصت المسافة بين الأرض والشمس إلى نصف ما هي عليه الآن لبلغت الحرارة التي تتلقاها الأرض أربعة أمثال ولتضاعفت سرعتها المدارية حول الشمس ولآلت الفصول إلى نصف طولها الحالي ولما كان هناك فصول بالمرة ولصارت الحياة على سطح الأرض غير ممكنة.

وعلى ذلك فإن الأرض بحجمها وبعدها الحاليين عن الشمس وسرعتها في مدارها تهيىء للإنسان أسباب الحياة والاستمتاع بها في صورتها المادية والفكرية والروحية على النحو الذي نشاهده اليوم».

وقال الدكتور ماريت ستانلي كونجدن عضو الجمعية الأمريكية الطبيعية: «ونستطيع بطريقة الاستدلال والقياس بقدرة الإنسان وذكائه في عالم يفيض بالأمور العقلية أن نصل إلى وجوب وجودِ قوةٍ مسيطرة مدبرة تُدبِّرُ هذا الكون وتدبر أموره وتعيننا على فهم ما

يغمض علينا من أمر منحنيات التوزيع ودورة الماء في الطبيعة ودورة ثاني أوكسيد الكربون فيها وعمليات التكاثر العجيبة وعمليات التمثيل الضوئي ذات الأهمية البالغة في اختزان الطاقة الشمسية وما لها من أهمية بالغة في حياة الكائنات الحية وما لا يُحصى من عجائب هذا الكون إذ كيف يتسنى لنا أن نفسر هذه العمليات المعقدة المنظمة تفسيراً يقوم على أساس المصادفة والتخبط العشوائي وكيف نستطيع أن نفسر هذا الانتظام في ظواهر الكون، والعلاقات السببية، والتكامل، والغرضية، والتوافق والتوازن، التي تنتظمُ سائرَ الظواهر وتمتد آثارها من عصر إلى عصر؟ كيف يعمل هذا الكون دون أن يكون له خالق مدبر هو الذي خلقه وأبدعه ودبر سائر أموره؟».

٤- لقد دلت الأبحاث العلمية بصورة قاطعة على أن الكون ليس أزلياً وأن لنشأته بداية وأن عمره يقدر بنحو خمسة بلايين سنة وقد أثبتت الأبحاث العلمية في مختلف المجالات هذا الأمر. قال الدكتور أدوارد لوثر كيل: «وقد يعتقد بعضهم أن هذا الكون هو خالقُ نفسهِ على حين يرى البعض الآخر أن الاعتقاد في أزلية هذا الكون ليس أصعب من الاعتقاد في وجود إله أزلي.

ولكن القانون الثاني من قوانين الديناميكا الحرارية يثبت خطأ هذا الرأي الأخير. فالعلوم تُثبتُ بكل وضوح أن هذا الكونَ لا يمكن أن يكون أزلياً فهنالك انتقال حراري مستمر من الأجسام الحارة إلى الأجسام الباردة ولا يمكن أن يحدث العكس بقوة ذاتية بحيث تعود الحرارة فترتد من الأجسام الباردة إلى الأجسام الحارة. ومعنى ذلك أن الكون يتجه إلى درجة تتساوى فيها حرارة جميع الأجسام وينضب فيها معين الطاقة. ويومئذ لن تكون هناك عمليات كيموية أو طبيعية ولن يكون هنالك أثر للحياة نفسها في هذا الكون. ولما كانت الحياة لا تزال قائمة ولا تزال العمليات الكيموية والطبيعية تسير في طريقها فإننا نستطيع أن نستنتج أن هذا الكون لا يمكن أن يكون أزلياً وإلا لاستهلكت طاقته منذ زمن بعيد وتوقف كل نشاط في الوجود. وهكذا توصلت العلوم - دون قصد - إلى أن لهذا الكون بداية. وهي بذلك تثبت وجود الله لأنَّ ما له بداية لا يمكن أن يكون قد بدأ بنفسه ولا بد له من مُبْدِئٍ أو من محرّك أول أو من خالقٍ هو الإله.

ولا يقتصر ما قدمته العلوم على إثبات أن لهذا الكون بداية فقد أثبتت فوق ذلك أنه

بدأ دفعة واحدة منذ نحو خمسة بلايين سنة».

وقال الدكتور فرانك أللن: «والرأي الذي يذهب إلى أن هذا الكون أزلي ليس لنشأته بداية إنما يشترك مع الرأي الذي ينادي بوجود خالق لهذا الكون وذلك في عنصر واحد هو الأزلية. وإذن فنحن إما أن ننسبَ صفةَ الأزلية إلى عالم ميت وإما أن ننسبها إلى إله حي. وليس هنالك صعوبة فكرية في الأخذ بأحد هذين الاحتمالين أكثر مما في الآخر ولكن قوانين الديناميكا الحرارية تدل على أن مكونات هذا الكون تفقد حرارتها تدريجياً وأنها سائرة حتماً إلى يوم تصير فيه جميع الأجسام تحت درجة من الحرارة بالغة الانخفاض هي الصفر المطلق، ويومئذ تنعدم الطاقة وتستحيل الحياة. ولا مناص من حدوث هذه الحالة من انعدام الطاقة عندما تصل درجة حرارة الأجسام إلى الصفر المطلق بمضي الوقت. أما الشمس المُسْتعرةُ والنجوم المتوهِّجة والأرض الغنية بأنواع الحياة فكلها دليل واضح على أن أصل الكون أو أساسه يرتبط بزمان بدأ من لحظة معينة فهو إذن حَدثٌ من الأحداث. ومعنى ذلك أنه لا بد لأصل الكون من خالق أزلي ليس له بداية عليم محيط بكل شيء قوي ليس لقدرته حدود ولا بد أن يكون هذا الكون من صنع يديه».

«وقد أدرك سير إسحاق نيوتن أن نظام هذا الكون يتجه نحو الانحلال وأنه يقترب من مرحلة تتساوى فيها درجة حرارة سائر مكوناته ووصل من ذلك إلى أنه لا بد أن يكون لهذا الكون بداية»[1].

وهذا دليل في غاية المتانة والقوة. فالحرارة - كما هو معلوم - تنتقل من الأجسام الحارة إلى الباردة وليس العكس. ونحن نرى أن في الكون أجساماً حارة كالشمسِ والنجومِ المتوهجة وأجساماً باردة كالأرض والقمر والفضاء المحيط بالأجرام فالحرارة تتسرب وتنتقل من الأجرام الحارة إلى الباردة، وبمرور الزمن ستتساوى درجة الحرارة في هذا الكون. ولما كانت درجات الحرارة لا تزال مختلفة فهناك أجرام حارة وأجرام باردة كان معنى ذلك أنه لم يمر عليها العمر الكافي لكي تتساوى، ومعنى ذلك أن للكون بداية فلو لم يكن له بداية لتساوت درجات الحرارة منذ أمد بعيد لأن العمر الطويل الذي مَرَّتْ به عند ذاك كفيلٌ بتساوي الحرارة لأنه أطول من أي عمر يكفي

(١) الله يتجلى في عصر العلم، ص٩٢، وانظر: ص٨، ٢٩.

لتساوي الحرارة. وتوضيح ذلك أن الأرض مثلاً انفصلت عن الشمس وهي قطعة ملتهبة فاحتاجت إلى كذا وكذا من السنين حتى فقدت حرارتها، والشمس أكبر من الأرض فتحتاج إلى كذا بليون من السنين حتى تفقد حرارتها، والأجرام الأخرى التي هي أكبر من الشمس تحتاج إلى كذا بليون من السنين حتى تفقد حرارتها ولنفترض أن الكون يحتاج إلى ألف بليون من السنين لتتساوى حرارته، إذن فالعمر الكافي لتساوي الحرارة لم يمر بعد على هذه الأجرام. ومعنى ذلك قطعاً أن للكون بداية إذ لو مر عليه هذا العمر لتساوت حرارته. ولو لم يكن له بداية لتساوت حرارته لأن ما مر عليه من السنين يكون عند ذاك أكثر بكثير من هذا العمر. وهذا في غاية الوضوح.

ولما كان للكون بداية لزم أن يكون له مُوجِدٌ. فإن الكون كان صفراً أي لم يكن هناك شيء فلا يمكن أن يُوجِدَ نفسه مع أنه غير موجود. وإذن فلا بد من قوة موجدة لهذا الكون تختلف عنه وهو الله سبحانه.

وتدل الأبحاث الكيماوية على مثل ذلك. قال الدكتور دونالد روتبرت كار، أستاذ الكيمياء الجيولوجية واختصاصي في تقدير الأعمار الجيولوجية باستخدام الإشعاعات الطبيعية: «أما عن تحديد عمر التكوينات الجيولوجية مثل مواد الشهب وغيرها فقد أمكن باستخدام العلاقات الإشعاعية أن نحصل على صورة شبه كمية عن تاريخ الأرض. ويستخدم في الوقت الحاضر عدد من الطرق المختلفة لتقدير عمر الأرض بدرجات متفاوتة من الدقة ولكن نتائج هذه الطرق متقاربة إلى حد كبير وهي تشير إلى أن الكون قد نشأ منذ نحو خمسة بلايين سنة. وعلى ذلك فإن هذا الكون لا يمكن أن يكون أزلياً. ولو كان كذلك لما بقيت فيه أي عناصر إشعاعية. ويتفق هذا الرأي مع القانون الثاني من قوانين الديناميكا الحرارية».

وقال الدكتور جون كليفلاند كوثران رئيس قسم العلوم الطبيعية بجامعة دولث: «وتدلنا الكيمياء على أن بعض المواد في سبيل الزوال أو الفناء ولكن بعضها يسير نحو الفناء بسرعة كبيرة والآخر بسرعة ضئيلة وعلى ذلك فإن المادة ليست أبدية ومعنى ذلك أيضاً أنها ليست أزلية إذ إن لها بداية. وتدل الشواهد من الكيمياء وغيرها من العلوم على أن بداية المادة لم تكن بطيئة أو تدريجية بل وجدت بصورة فجائية وتستطيع العلوم أن تحدد لنا الوقت الذي نشأت فيه هذه المواد. وعلى ذلك فإن هذا العالم المادي لا بد

أن يكون مخلوقاً وهو منذ أن خُلِقَ يخضعُ لقوانين وسنن كونية محددة ليس لعنصر المصادفة بينها مكان.

فإذا كان هذا العالم المادي عاجزاً عن أن يخلق نفسه أو يحدد القوانين التي يخضع لها، فلا بد أن يكون الخلق قد تم بقدرة كائن غير مادي. وتدل الشواهد جميعاً على أن هذا الخالق لا بد أن يكون متصفاً بالعقل والحكمة»[1]. وهذا متفق مع القانون الثاني من قوانين الديناميكا الحرارية الذي ذكرناه آنفاً فهناك عناصر مشعة كالراديوم واليورانيوم وغيرهما فهذه العناصر بمرور الزمن تفقد من كميتها أي تتحول إلى إشعاعات، وهناك آلات لقياس مقدار الإشعاع في العناصر يعرفها أي طالب في دور التخصص في الفيزياء أو الكيمياء. فالراديوم مثلاً في حالة إشعاع مستمر وبذلك يفقد من كميته بصورة مستمرة واليورانيوم كذلك، ومعنى ذلك أنه سيأتي زمن تنتهي فيه العناصر الإشعاعية وتنفد. ولما كانت العناصر المشعة لا تزال موجودة، لزم أن لا يكون قد مر عليها العمرُ الكافي لنفادها، ولو مر عليها العمر الكافي لنفدت، ومعنى ذلك أن للكون بداية إذ لو لم يكن له بداية لنفدت هذه العناصر ولما بقيت فيه أي عناصر إشعاعية، فلو قدرنا مثلاً أن هذه العناصر تحتاج إلى ألف بليون سنة لنفاد إشعاعها، كان معنى ذلك أنه لم يمر عليها هذا العمر ليكون ذاك. أي أنه لم يمض عليها منذ وجودها إلى الآن هذا العمر. ومعنى ذلك أن لهذه العناصر بداية، فلو لم يكن لها بداية لكان ما مر عليها من العمر كفيلاً بالقضاء على هذه العناصر ونفادها إذ لا شك أنه سيكون قد مر عليها أكثر من بلايين البلايين. ولما كان لهذا الكون بداية اقتضى أن يكون له موجد لأن الكون كان عدماً محضاً وليس يمكن أن يكون أوجد نفسه.

وهو يتفق مع القانون الثاني من قوانين الحرارة.

٥- ومما يقطع بوجود الله ظاهرة الرؤى الصادقة. فكثير من الناس يرون رؤيا في المنام تتحقق بعد ذلك بتمامها، وربما كانت الرؤيا صادقة كفَلَقِ الصبح تقع بلا تأويل، وقد تحتاج إلى تأويل وهذا كثير وأنا شخصياً حصلت لي مئات من هذه الرؤى التي تحققت بدقة، وأعرف كثيراً ممن وقعت لهم مثل هذه الرؤى. فكيف تحدث مثل هذه الرؤى؟ ومن الذي أخبر الإنسان بهذا الغيب المجهول؟ الإنسان لا يعلم الغيب ولكن عن

---

(١) الله يتجلى في عصر العلم، ٢٧، ٨٧.

طريق الرؤى قد يحصل له شيء من ذلك، فما تفسير هذا الأمر؟

إن تفسيره واضح وهو أن هناك ذاتاً تعلم الغيب وسجلته وهي تُطلع مَنْ تشاء من عبادها على بعض هذا الغيب عن طريق هذه الرؤى أو عن طريق آخر. ولا تفسير لها غير هذا التفسير. ولدلالتها المهمة هذه، حاول قسم من الماديين إنكار وقوع مثل هذه الرؤى وقال قسم آخر هي من قبيل المصادفات.

والحق أن قسماً كثيراً لا يمكن تفسيره بالمصادفة. ثم إن كثرتها لا تدع مجالاً لتفسيرها بالمصادفة.

ومن طريق ما مر بي في ذلك أن شخصاً سلَّمني رسالة ذات يوم في حوالي الساعة الحادية عشرة ليلاً، فجئت بها إلى البيت فقرأتها وإذا كاتبها شخص آخر يستغيث بي لحل مشاكله التي أقعدته وأَهَمَّتهُ بأسلوب باكٍ. وقد أخفى اسمه تحت أحرف مبهمة هي ن.ن.ي. أو (ق.ن.ك) ولم أستطع أن أتبينها وقد ضربت الذهن في كل مجال للتعرف على هذا الشخص فلم أستطع الاهتداء إليه وقررت أن أستدعي الذي سلمني الرسالة لإخباري به. وفي النوم جاءني شخص مجهول وسألني قائلاً: ما لي أراك حائراً؟ فقلت له: جاءتني رسالة حرتُ في أمرها ولم أعرف صاحبها ولا رموزها أهي (ن.ن.ك) أو (ق) أو (ي) فقال: بل هي (ن.ن.ي) فقلت: من صاحبها؟ فقال: فلان ابن فلان. فقلت: هذا لا يكون وهو قد مر على ذهني فيمن مرّ، فإن اسمه يبدأ بالنون ولكن اسم أبيه يبدأ بالعين. فقال: هو الحرف الأخير من اسم أبيه. فقلت: وهذه الياء ما أمرها؟ فقال: هي حرف من أحرف النسب أي (الفلاني) وذكر النسب. فقلت له: هو لا يُعرف بهذه النسبة وإنما بالنسبة الأخرى وذكرتها له. فقال: استعمل الآن هذا النسب. قلت: ولم ذاك؟ قال: لئلا تعرفه.

واستيقظت من النوم وأنا مطمئن أن صاحبها هو الذي أخبرني به هذا الشخص الغريب. وفي الصباح أريت الرسالة لأحد زملائي الماديين المثقفين وقلت له: إقرأ هذه الرسالة، فقرأها. وقلت له: هذا أمر الرسالة. فقال: تحقق من ذلك وأخبرني فإنه إن كان ذاك فإن الله موجود لا محالة.

وفي مساء اليوم التالي رأيت صاحب الرسالة وقلت له: وصلت رسالتك. فقال: أية رسالة هذه؟ وحاول أن ينكر أن يكون صاحب رسالة، حتى قلت له: لا تذهب يميناً

أو شمالاً؟ فأنا أقول لك: إن رسالتك وصلت وقرأتها. فرأيته يخفي وجهه خجلاً ويقول: هل وصلت؟ فقلت: نعم. ثم قلت له: ما أمر هذه الرموز فأنا لم أتبين أهي (ن.ن.ي) أو (ق.ن.ك) فقال هي: ن.ن.ي. فقلت له: إن هذه الرموز لا تنطبق عليك. فإن اسمك يبدأ بالنون فما أمر النون الثانية، فإن اسم أبيك يبدأ بالعين؟ قال: هي الحرف الأخير من اسم والدي. فقلت: وما هذه الياء؟ فقال: هي النسب الفلاني. فقلت: ولِمَ فعلتَ كل ذاك؟ قال: لئلا تعرفني.

ومن طريف ما مر بي أني رأيت كأني أدخل إلى مكان لم يسبق أن أدخل إليه في حياتي السابقة إلا مرة واحدة قبل هذه الحادثة بسنوات. وبعد دخولي توّاً رأيت كأن معركة حدثت بين فئتين وجاءت الشرطة وتركتُ المكان ولم أقض شغلي. وفي الصباح نفسه اضطررت إلى أن أذهب إلى المكان نفسه وبعد دخولي فيه حصل ما حصل تماماً.

ومن طريف ذلك أني رأيت كأن في يدي كماناً صغيراً تمثلته ثم استيقظت. وقلت: ما تفسير هذه الرؤيا؟ حتى إذا جئت الظهر إلى البيت رأيت الكمان الذي رأيته في المنام بعلاماته الفارقة، فقلت: ما هذا؟ فقالوا: أبدله اليوم أخوك الصغير بحاجة مع شخص آخر. علماً بأنه لم يكن في بيتنا في يوم من الأيام آلة موسيقية أو مرت على خاطري.

فما تفسير هذا أيها الماديون؟

ومن ذلك ما رأيته أن بطاقة دعوة وُجِّهتْ لي موقَّعة من شخص لا أعرفه وقد حصل في اليوم التالي ذلك وبالتوقيع نفسه وسألت عن صاحبه فقيل: هو شخص لا تعرفه.

ومن طريف ذلك أن والدي كان في الحج فرأيت في المنام أنه قد جاء وجلسنا ثم دعا ببرتقالات أربع أو خمس جلبها معه من مكة وأعطاني واحدة فقسمتها بيدي وسقطت قطرة منها على ثوبي. فأخبرت أهلي وأصدقائي طالباً تأويلها فقالوا: هي خير. وبعد فترة جاء والدي وبينما نحن جلوس نادى على برتقالات جلبها معه أعطاني واحدة ثم قسمتها فرأيت تلك القطرة وقعت على ثوبي وذكرت الرؤيا. ثم قلت لأهل بيتي: انظروا ألا تذكرون الرؤيا التي ذكرت لكم؟ فعجبوا غاية العجب.

ومن طريف ذلك أنه كان أخي في مصر فرأيت أنا ووالدتي وزوجي وزوجه رؤى أربعة حوله تحققت كلها. وغير ذلك وغيره مما لا يكاد يحصر. ولا أبالغ مطلقاً إن

قلنا: حصلت لي مئات من أمثال هذه الرؤى بل ربما تَعدَّت المئات إلى ما يربو على الألف والله أعلم.

فأنت ترى أن هذا من الدقة بحيث لا يمكن حملُه على المصادفة ولا يمكن تفسيره إلا بما ذكرنا وهو أن في الوجود مَنْ يعلم الغيب وسجله وهو يُطْلِعُ مَنْ شاء من عباده على شيء من هذا الغيب إما بشكل واضح ليس فيه تأويل أو بما يحتاج معه إلى التأويل.

مَن خَلقَ الله؟

هناك سؤال قديم يدور في الذهن ويتردد على كثير من الألسنة وربما عاناه الكثير منا وهو: مَنْ خلق الله؟

وهذا الأمر بُحثَ كثيراً وفرغ منه منذ القديم والإجابة عنه ليست عسيرة. فنحن إذا افترضنا أن لله رباً خلقه فسيحتاج خالقهُ إلى خالقٍ آخر وذلك الخالق يحتاج إلى موجد آخر وهكذا إلى ما لا نهاية وهو لا يجوز إذ لا بد أن تنتهي السلسلة إلى واحد ليس له موجد وإلا كانت لا نهائية وذلك محال من أوجه كثيرة:

١- إذ معنى ذلك أن سلسلة الموجدين الأولين انتهت حتى وصلت إلى الموجد الحالي وإلا فكيف وصلت النوبة إلى هذا المُوجِد؟ وهو تناقض إذ كيف يمكن أن تكون السلسلة اللانهائية قد انتهت؟

٢- لو لم تنته السلسلة لكان قبل كل موجودٍ موجودات لا أولَ لها، ولو لم تنقض تلك الحوادث بجملتها لا تنتهي النوبة إلى الموجد الحاضر. وانقضاء ما لا نهاية له محال.

٣- لو أخذنا أي موجود إنساناً كان أو حيواناً أو شجرة أو أي موجود آخر لرأينا أنه يحتاج في إيجاده إلى سبب أوجده فالإنسان يحتاج إلى أب وإلى أم والشجرة تحتاج إلى بذرة وهكذا، والسبب الذي أوجده يحتاج إلى موجد آخر والذي أوجده يحتاج إلى موجد آخر وهكذا تتوالى الأسباب فإما أن تنتهي إلى واحد ليس له سبب أوجده وهو الله وإما أن تبقى السلسلة مستمرة لا تنتهي وهو باطل لأن معنى ذلك أن الموجود الحالي غير موجود لأن وجوده يكون بعد انقضاء وانتهاء السلسلة القديمة.

٤- نقول: لو كان لزيد أم ولدته يكون زيد موجوداً فوجوده يتوقف على وجود أمه ووجود أمه يتوقف على وجود أمها وهكذا تستمر سلسلة التعليقات، بمعنى أنه موجود إن كان ما قبله موجوداً، وما قبله موجود إن كان ما قبله موجوداً. ولا توجد هذه

الأشياء المتسلسلة إلا بعد انتهاء سلسلة التعليقات. وحيث لا تنتهي السلسلة إلى أوّل كانت السلسلة عبارة عن تعليقات مجردة يتأخر الحكم بوجود معلقاتها إلى وصول الذهن إلى نهاية السلسلة التي لا نهاية لها.

٥- نفرض أن هناك سلسلة متناهية، ولتكن من عشرة مثلاً فوجود العاشر يستند إلى التسعة ووجود التاسعة يستند إلى الثامنة وهكذا إلى أن تصل سلسلة الاستناد إلى العلة الأولى وتنتهي فيها، ثم نرى أن وجودها لا يستند إلى علة أي أنها غير موجودة لأنها محتاجة إلى الاستناد ولعدم كونها واجبة الوجود(١). وهكذا نستمر في الرجوع من الماضي إلى الحال حتى ننتهي إلى العاشرة. فإذا لم توجد الأولى لم توجد الثانية، وإذا لم توجد الثانية لم تكن الثالثة وهكذا نجد أن العاشرة غير موجودة لعدم استنادها إلى علة. بينما نحن فرضنا وجودها فهذا خُلف.

وزِدْ من السلسلة ما شئت فستجد أنها إن لم تنته السلسلة إلى علة موجدة واحدة لا تحتاج إلى مُوجِد فستكون السلسلة غير موجودة. وها نحن نرى سلسلة الوجود حقيقة حاضرة فلا بد إذن أن تنتهي إلى علة لا تحتاج إلى موجد وإلا لم توجد الحلقة الحاضرة والموجودات الحالية. وبما أنها موجودة، فالعلة المطلوبة إذن موجودة حتماً.

٦- إن الموجود الذي يحتاج إلى مُوجِد مثله كمثل الصفر لأنه يعتمد في وجوده على ما قبله فإن لم يوجد السبب الذي أوجدَه لم يوجد. وكذلك الصفر إن لم يكن قبله رقم من جهة اليسار لم يكن له قيمة. فالموجود الذي يحتاج إلى مُوجِد هو كالصفر لا تكون له قيمة ما لم يكن قبله رقم يفيض عليه بالوجود. فإن كان السبب الذي أوجده يحتاج إلى مُوجِد فهو كالصفر أيضاً وهكذا إلى ما لا نهاية من الأصفار ليس لها قيمة ما لم تنته إلى رقم يفيض عليها بالوجود ولا يغني أنها تكون سلسلةً غير متناهية من الأصفار إذ ليس لها قيمة أي غير موجودة.

وهكذا شأن الحوادث فكل حادث(٢) يعتمد في وجوده على علةٍ توجده، وإسناد الحادث إلى حادث آخر كإسناد الصفر إلى الصفر. وما لم تنته الحادثات إلى علة لها

---

(١) الواجب الوجود هو الذي لا يحتاج إلى موجد وهو الله وحده.
(٢) الحادث هو كل موجود يحتاج إلى سبب أوجده كالإنسان والحيوان.

قيمة ذاتية لا تحتاج إلى مُوجِد ولا يحتاج وجودها إلى سبب، فليست هناك قيمة أو وجود حقيقي للحادثات شأن الأصفار.

فلا بد إذن أن تكون هناك علة لا تحتاج إلى موجد لها قيمة ذاتية (كالرقم) تفيض بالوجود على الكائنات كما يفيض الرقم بالحياة على الأصفار[1].

من هذا يتضح ضرورة أن لهذا الكون إلهاً خلقه وأنشأه وأن هذا الإله عالم قادر مريد حكيم وأن هذا الإله وجوده واجب لذاته وليس له خالق.

وأما الماديون فينكرون وجود الخالق ولكن لن يستطيعوا أن يقيموا دليلاً واحداً على عدم وجوده وكل أفكارهم قائمة على التشكيك والاستبعادات والفرار من أمرٍ يستبعدونه إلى أمر آخر أحرى بالاستبعاد، فهم ينسبون الخلق إلى علة غير عاقلة فراراً من القول بعلة عاقلة مع أنهم يعترفون بالانتظام في الخلق والدقة في الصنع والبراعة في الوضع والغايات التي تحققها الأعضاء والأجهزة والأنسجة، فأي الرأيين أحرى بالاستبعاد؟

وهم ينسبون الأزلية إلى مادة ميتة فراراً من القول بالأزلية لعلة حية خالقة لهذه المادة مكونة لها موجدة لقوانينها. فأي الرأيين أحق بالقبول؟ وما أصدق القول الذي قاله جورج هربرت بلونت أستاذ الفيزياء التطبيقية «لا يستطيعون أن يقيموا دليلاً واحداً على عدم وجود الله». وقول أندرو كونواي إيغي العالم الفسيولوجي ورئيس قسم العلوم الكلينيكية بكلية الطب بجامعة شيكاغو: «إن أحداً لا يستطيع أن يثبت خطأ الفكرة التي تقول: إن الله موجود، كما أن أحداً لا يستطيع أن يثبت صحة الفكرة التي تقول: إن الله غير موجود. وقد ينكر منكر وجود الله ولكنه لا يستطيع أن يؤيد إنكاره بدليل»[2].

---

(١) انظر لهذا البحث كتابنا (نداء الروح) تحت عنوان (إبطال التسلسل) وإذا أردت التوسع فراجع كتاب (موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعبادة المرسلين، ج٢)، وما صنفه الإمام الغزالي في (إحياء علوم الدين، ج١) وفي (رسالة الاقتصاد في الاعتقاد).

(٢) الله يتجلى في عصر العلم، ٨٣، ١٤٧.

النبوة

يذكر لنا التاريخ على مدار الزمن أنه ظهر في الأقوام القديمة أشخاص يدّعون أن الله خالقُ الكون أرسلهم إلى الناس يدعونهم إلى عبادته ويعلمونهم ويرشدونهم إلى الحق وإلى الخير والإحسان إلى الخلق وإعطاء كل ذي حق حقه والابتعاد عن الظلم وبالجملة التمسك بالمعروف والأمر به والبُعد عن المنكر والنهي عنه، وأن الله أَعدَّ للمؤمنين الذين يتبعونهم سعادة دائمة وأعد للكافرين شقاء أبدياً في حياة ثانية ينتصف فيها المظلومون من الظالمين ويأخذ كل ذي حق حقه، ويسمى هؤلاء الذين يتكلمون عن الله (الأنبياء).

وهؤلاء الأنبياء لم يكونوا إلا ممن عُرفوا بالصدق في القول والعمل وحُسْنِ السيرة والعفة في كل شيء ولم يُؤْثَرْ عنهم أنهم كذبوا على أحد أو كان فيهم ما يشين. وبالجملة كانوا هم الصفوة من بني الإنسان والمثل الأعلى له.

ويذكر لنا التاريخ أن هؤلاء كانوا مزودين بقوى غيبية يعجز عنها بقية البشر يستدلون بها على صدق نبوتهم من إخبارٍ بالغيوب أو أفعال خارقة كقلب العصا حية وتكثير الماء والطعام وفَرْقِ البحر ونحو ذلك من الآيات إضافة إلى مضمون الدعوة السامي الذي يأمر بكل خير وينهى عن كل شيء والذي يرتضيه كل عقل سليم.

فهل - يا ترى - كان هؤلاء (الأنبياء) كاذبين في دعواهم وأنهم تواطأوا على الكذب؟ هل كان هذا الصنف الذي لم يُعرفْ عنه إلا الصدقُ في القول والاستقامة في العمل مفترياً على الله؟ فمن يصدق إذن إذا كذب هؤلاء؟ إنهم لم يكذبوا البتة على أحد فهل يمنعون الكذب على الناس ويستجيزونه على الله؟

نحن نرى أناساً من بيننا ممن عُرفوا بالصدق وشبوا عليه وآثروه يصدقهم الناس فيما يقولون ويعسر علينا تكذيبهم لما لمسنا منهم في حياتهم الطويلة من إيثارهم للصدق وإنْ أَضرَّ بهم وابتعادهم عن الكذب وإنْ جَرَّ منفعة لهم أو أدى بهم إلى الهَلَكة، لأنّا نعلم أن الذي يعتاد الصدق وينشأ عليه ويتخذه منهاجاً له يصعب عليه أن يكذب وذلك شأن الأنبياء فإنه من الصعوبة تكذيبهم لما عرف عنهم من الصدق والتزام ذلك البتة بل إنهم

أعلى الخلق صدقاً وخلقاً.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى لا نظن أن الله خالق الخلق يترك عباده بلا هداية ولا إرشاد يتخبطون في حياتهم الدنيا، فالنبوة فيما نرى ضرورة للبشر من أوجه متعددة:

١- من ناحية العلاقة بين الإنْسان وخالقه، مَنْ يُنظِّمها؟ وكيف يعرف الناس ما يرضي ربهم ويغضبه؟ إنهم إذا أُوكِلُوا إلى رأيهم ضلوا وتفرقوا. ألا ترى أن منهم من يعبد الحجر ومنهم من يعبد الشمس والقمر ومنهم من يعبد النجم ومنهم من يعبد البقر ومنهم من يعبد القردة إلى غير ذلك من الآلهة المضحكة التي ليس لها حصر، ولا يزال ذلك إلى يومنا هذا، ثم ألا ترى إلى اختلاف الشعائر والعبادات فمن الطوائف من يَعدُّ الزنى عبادة، ومنهم من يعده فاحشة كبيرة، ومنهم من يُحَرِّمُ لحم الخنزير ومنهم من يستحله، ومنهم من يشرب الخمر ومنهم من يمنعها وهكذا. أفلا ترى إزاء ذلك أن البشر في حاجة إلى الله يعرّفهم بنفسه ويرشدهم إلى الطريق الصحيح الذي ضلوا عنه ويهديهم إلى سبيل رضاه وينهاهم عما يؤدي إلى الإضرار بهم وإلى غضبه وعقابه؟

إن من لوازم ربوبية الله لخلقه أن يبين لهم ذلك كله وأن يهيىء لهم سبل تفهم هذا البيان وخير هذه السبل إنزال هذا البيان على أناس من البشر يخاطبونهم بلسانهم ويبلغونهم ما أنزله الله عليهم.

وهؤلاء هم الأنبياء والقول بخلاف ذلك جهلٌ بربوبية الله وتنقيص لقدره تعالى يتنزه عنه. قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۝٩١﴾ [الأنعام].

٢- العقل الإنساني ناقص وهذا أمر مسلَّم به، ألا ترى أنه قد تأتيه مسائل يصعب عليه معرفة وجه الحق فيها ويدخل في الظن والتخمين وذلك دليل نقصه إذ لو كان كاملاً لعرف وجه الحق في كل مسألة ولما احتاج إلى الظن والتخمين؛ ودليل نقصه أيضاً أنه يزداد علماً ومعرفة بمرور الوقت بالتجارب والمطالعات وكلما ازداد تجربة واطلاعاً ازداد علماً ومعرفة وهذا دليل نقصه إذ لو كان كاملاً ما احتاج إلى ذلك وما ازداد علماً ومعرفة لأنه كامل.

ثم إن وسائل الإنسان للوصول إلى الحق ناقصة. فالحواس ناقصة معرضة للخطأ فالعين لها مدى للرؤية لا تتعداه، وهي لا تبصر الحركات البطيئة كحركة عقرب الساعة

أو حركة الكوكب كما لا تبصر الحركات السريعة فهناك عجلات تدور بسرعة يصعب معها تمييز حركتها. ثم إن العين لا تبصر كثيراً مما حولنا. فهي لا ترى الكهرباء وإنما ترى آثارها عندما تشعل مصباحاً أو تدير مروحة، وهي لا ترى الهواء ولا كثيراً من الغازات ولا كثيراً من الإشعاعات فهي لا تبصر الأشعة دون الحمراء مثلاً، وهي لا تبصر الماء الرائق في القدح ولا تبصر الزجاج الصافي في النافذة.

وهي تخطىء أيضاً فقد ترى البنايات المتنائية المتباعدة بجنب بعضها وهناك أمثلة يضربها المتخصصون لتبيين أخطاء النظر.

والأذن كذلك. فهي ناقصة إذ هي لا تسمع الأصوات الخفيفة كحركة النملة ولا تسمع الأصوات البعيدة كما لا تسمع الأصوات الهائلة كالانفجارات المدوية. فإنها تسمع الانفجار الأول الذي يصم الأذن ثم لا تسمع ما بعده من أصوات الانفجارات الهائلة، وقد يحجب الصوت القريب الصوت البعيد وهكذا وذلك لأن الأوتار السمعية محدودة الدرجة فهي لا تسمع ما يتعدى هذه الدرجة علواً وانخفاضاً.

وهكذا بقية الحواس. فالعقل الإنساني ناقص في نفسه، ناقص في الآلات التي تزود بالمعلومات.

فالإنسان على هذا في حاجة إلى عقل كامل لا يعتريه الخطأ ينظم له أموره ويبين له علاقاته بربه وبغيره من المخلوقات وإلا ضلّ وتاه واختلف مع غيره من ذوي العقول في الوصول إلى الحكم الصحيح.

٣- العقل البشري غير قادر للوصول إلى الحكم الصحيح في كثير من المسائل الرئيسة. ولذا اختلف مفهوم الحق عند الناس، وأظهر دليل على اختلاف العقل الإنساني في الوصول إلى الحق أو إلى الرأي الصحيح ما نراه في كل وقت من اختلاف أرباب العقول في اتجاهاتهم فمنهم من يرى أن الاتجاه المادي في الحياة هو الصواب ومنهم من يرى عكس ذلك، ومنهم من يرى أن طريق الرأسمالية هو الصحيح وآخر يذهب إلى الشيوعية وآخر إلى الاشتراكية وآخر إلى غيرها، وقسم يدعو إلى القومية وآخر إلى الإنسانية، وقسم يدعو إلى الحرية وآخر يدعو إلى الدكتاتورية، وقسم يدعو إلى التحفظ وآخرْ يدعو إلى الانطلاق وهكذا، ولا شك أن الحق لا يمكن أن يكون مع كل هؤلاء، وهم كلهم بلا شك أرباب عقول.

فهذا الاختلاف الحاصل الذي نراه في زماننا وفي كل زمان يدلنا دلالة واضحة على أن العقل الإنساني غير قادر وحده للوصول إلى الحق الكامل وإلى الرأي الصحيح في المسائل كلها.

فالنبوة ضرورة لتدارك الخلق ولتعريفهم بالطريق الصحيح الذي أخطأوه وضلوا عنه وإلا فقد قضى الله على خلقه بالشقاء.

ألست ترى أنه في هذا العصر الذي تقدم فيه العلم تقدماً هائلاً لم يستطع البشر أن يتبين الطريق الصحيح للسير في هذه الحياة؟ ولم يُتفق على واحد بعينه؟

ثم - يا ترى - أي عقل يؤخذ ليتفق عليه البشر؟ أهو عقل مادي أم عقل روحاني؟ أهو عقل فلسفي أم واقعي؟ أهو عقل تجاري مصلحي أم عقل متسامٍ إيثاري؟ أهو عقل شيوعي أم عقل رأسمالي أم بينهما؟

ثم ستخرج بمرور الزمن عقليات متباينة وأفكار متضاربة يزداد معها الاختلاف والتباين فمتى يصل الناس إلى الحق أو إلى الطريق الصحيح؟!

٤- التشريعات البشرية يسيطر عليها الهوى والمصلحة الضيقة في الغالب إضافة إلى النقص الفطري في واضعيها، وإذا هي نجت من الهوى في نطاق بلد معين لم تنج منه بالنسبة لخارج هذا البلد، ولا أدلَّ على ذلك من تشريعات الدول التي تمس مصالح الدول الأخرى وفيها كل الظلم لها كما نشاهده في علاقات الدول الكبرى مع الصغرى وما تشرعه من تشريعات تبيح إنفاق الأموال الطائلة لتقويض الدول الصغيرة وامتصاص خيراتها وقتل أبنائها، بل إن الهوى يسيطر على واضعي القوانين ويسوغ لهم ظلم فريق من أبناء البلد الواحد لاعتبارات باطلة سخيفة لا يقرها عقلٌ سليم كما نشاهده في تشريعات أمريكا بالنسبة للسود من مواطنيها.

٥- إن التشريعات مهما كانت صالحة في نفسها لا يمكنها أن تؤدي إلى المطلوب منها إلا إذا ظفرت بقدر كبير من الاحترام لها والخضوع الذاتي والنفسي لواضعيها على نحوٍ يحملُ الأفراد على طاعتها طاعة اختيارية في السر والعلن، وبدون ذلك لا يمكن لأي تشريع مهما كان صالحاً في نفسه أن يجد طريقه في التطبيق لأن سبل التفلت منه كثيرة ولا تستطيع القوةُ ولا الإرهاب حملَ الناس على طاعته الطاعة المطلوبة، وحتى إذا

نجحت في ذلك حسب الظاهر، فإن ذلك لا يكون إلا إلى حين وبالتالي يسقط التشريع أو يبقى قائماً ولكنه ميت. والشواهد على ذلك كثيرة منها ما حصل في الولايات المتحدة الأمريكية في عصرنا الحالي. فقد حاولت أن تمنع مواطنيها من شرب الخمر عن طريق التشريع، فأصدرت قانوناً بتحريم الخمر صنعاً وبيعاً ومتاجرة وشرباً واستيراداً، وهددت بالعقوبات القاسية لمن يرتكب شيئاً من ذلك. وقد مهدت لتشريعه بكل وسائل الإعلام من صحف ومجلات وغيرها واستعانت بالمختصين من أطباء واجتماعيين وأساتذة لبيان مضار الخمر كلٌ في نطاقِ اختصاصه. وأنفقت في سبيل ذلك ملايين الدولارات ثم شرعت القانون، فماذا كانت النتيجة؟ كانت نتيجة ذلك أن المواطنين لم يَكفُوا عن شرب الخمر والمتاجرة به لأن الهوى كان أكبر من هذا القانون وكانت نفوسهم خالية من الاحترام والهيبة لواضعيه وخالية من الخضوع الذاتي لهم بحيث يعينهم على قهر أهواء نفوسهم وبالتالي إلى طاعة هذا القانون.

وبخلاف ذلك كان تحريم الخمر في الإسلام مانعاً لأولئك المسلمين الأولين الذين عاصروا الجاهلية وتعودوا على شرب الخمر من شربها لأن نفوسهم كانت عامرة بالخضوع لله رب العالمين وممتلئة هيبة واحتراماً له، مما يقتضي الوقوف عند حدوده وتحريمه وتحليله.

٦- ثم إن الذين يشرعون للناس يجيئون إلى السلطة عن طرق معروفة قد يكون عن طريق القوة، أو عن طريق الانتخابات التي تُشترى فيها الأصوات، ولنفترض أنهم جاؤوا عن طريق صحيح لم يُشْترَ فيه ضميرٌ ولكن أليس في المجتمع نظائرهم أو من هم أكفى منهم أو أعلم منهم بالتشريع. فقد يكون في المجتمع من هو أعلى منهم كعباً في العلم والتشريع، وأنأى عن المصلحة الضيقة وأبعد عن الهوى ولكن لم يستطيعوا الوصول إلى سدة التشريع. فهؤلاء لهم وجهات نظر وملاحظات على القانون المشترع وبهذا لا يكون في نفوسهم احترام له أو تقدير وبهذا يتعالون على التشريع ويُهَوِّنون من شأنه ولا يُلزمون أنفسهم بتطبيقه لأن أولئك ليسوا أَوْلى من هؤلاء بالتشريع. ولذلك نرى أنه إذا جاءت حكومة في أعقاب حكومة ثانية أو فئة في أعقاب فئة ثانية تهدم كثيراً من القوانين والأنظمة بحجة أنها مصلحية أو غير عادلة أو بادعاءات أخرى قد تكون صحيحة أو باطلة.

ثم إن الذين يشرعون لا يكون في أنفسهم ذلك الاحترام العالي للنظام لأنهم يعرفون كيف شرعوه ويعلمون أنهم قادرون على إبداله متى شاؤوا.

أما إذا كان الشارع هو الله، فالجميع أمامه سواء ولا يحدث من جانب أحد تعالٍ عليه أو ترفع عنه او ادعاء أن عليه ملاحظات جديرة بالقبول!!!

ولذا فالنبوة ضرورة لحسم مثل هذه الأمور.

٧- ثم نظرة من ناحية أخرى، إننا نرى أن الكون ذو نظام دقيق وضعت له كل العوامل التي تهيىء للحياة على الأرض وبالتالي لظهور الإنسان السيد على الأرض، والكونُ مخلوق مُسخَّرٌ للإنسان. قال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴿١٣﴾ ﴾ [الجاثية]. فليس من المعقول أن يجعل الله هذا النظام الدقيق المحكم لظهور الإنسان ويترك الإنسان نفسه بلا نظام ولا قانون.

إنه من تمام الانسجام أن يضع الله للبشر تشريعاً ينظم علاقاتهم مع الله والناس، تشريعاً يسيرون عليه كما وضع النظامَ للكواكبِ والشمس والقمر وكما رسم السنن لهذا الوجود.

لذا نرى أن النبوة ضرورة لا معدى عنها، ولم يقدر الله حق قَدْرِه مَنْ يدّعي أن الله لم يرسِل نبياً، إذ معنى ذلك أن الله سبحانه رضي لخلقه أن يتخبطوا ويتفرقوا ورضي لخلقه أن يسير بهم الضلالُ في كل مركب وأن يَكِلَهُم إلى أنفسهم مع أنهم غير مزودين للوصول إلى الكمال أو ما يَقربُ من ذلك. تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ﴿٩١﴾ ﴾ [الأنعام].

مُحمَّد وَالوَحي

تذكر كتب السِّيَرِ والدلائل كثيراً من الإرهاصات والأخبار منها ما سبق ولادةَ الرسول ومنها ما تلاها تشير إلى قرب مبعثه ﷺ. وأنا أذكر طرفاً من هذه الأخبار وأرى أن تمام البحث يقتضي أن أنقل بعض ما يشير إليه كُتَّابُ السير والله أعلم بصحة ذلك. فقد ذكرت هذه الكتب أن الأحبار من يهود والرهبان من النصارى والكهان من العرب كانوا «قد تحدثوا بأمر رسول الله ﷺ قبل مبعثه لما تقارب من زمانه أما الأحبار من يهود والرهبان من النصارى فعَمَّا وجدوا في كتبهم من صفته وصفة زمانه وما كان من عهد أنبيائهم إليه فيه. وأما الكهان من العرب فأتتهم به الشياطين من الجن فيما تسترق من السمع»(١).

وذكر عن حسان بن ثابت أنه قال: «والله إني لغلامٌ يَفَعة ابن سبع سنين أو ثمان أَعقلُ كلَّ ما سمعتُ إذ سمعتُ يهودياً يصرخ بأعلى صوته على أطمة بيثرب: يا معشرَ يهود. حتى إذا اجتمعوا إليه قالوا له: ويلك يا مالك؟! قال: طلع الليلةَ نجمُ أحمد الذي ولد به»(٢).

وتذكر لنا هذه الكتب أن ولادته ونشأته على غير المعهود من الناس. فقد كان نسمة مباركة طيبة يَحلُّ الخيرُ معه حيث حل فقد حدَّثت عنه حليمة السعدية مرضعته قائلة: «فلما أخذته رجعت به إلى رَحْلي، فلما وضعته في حجري أقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن. فشرب حتى روي وشرب معه أخوه حتى روي ثم ناما وما كنا ننام معه قبل ذلك. وقام زوجي إلى شارفنا تلك فإذا إنها لحافلٌ فحلبَ منها ما شرب وشربتُ معه حتى انتهينا رِيَّاً وشِبعاً فبتنا بخير ليلة.

قالت: يقول صاحبي حين أصبحنا: تعلمي والله يا حليمة لقد أخذتِ نسمةً مباركة!

---

(١) سيرة ابن هشام، ١/ ١٣٢.

(٢) سيرة ابن هشام، ١/ ١٠٣-١٠٤.

فقلت: والله إني لأرجو ذلك.

ثم خرجنا وركبت أنا أتاني وحملته عليها معي فوالله لَقطعتْ بالركب ما يقدر عليها شيء من حُمُرهم حتى إن صواحبي لَيَقُلْنَ لي: يا ابنةَ ذؤيب ويحك اربعي علينا. أليست هذه أتانك التي كنت خرجتِ عليها؟ فأقول لهن: بلى والله إنها لَهِيَ هي. فيقلن: والله إن لها لشأناً.

ثم قدمنا منازلنا من بلاد بني سعد وما أعلم أرضاً من أرض الله أجدب منها فكانت غنمي تروح عليَّ حين قدمنا به معنا شباعاً لبناً فنحلب ونشرب، وما يحلبُ إنسان قطرة لبن ولا يجدها في ضرع. حتى كان الحاضرون في قومنا يقولون لرعيانهم: ويلكم اسرحوا حيث يسرع راعي بنت أبي ذؤيب فتروح أغنامهم جياعاً ما تَبضُّ بقطرة لبن وتروح غنمي شباعاً لبناً.

فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتاه وفصلته. وكان يَشبُّ شباباً لا يشبه الغلمان فلم يبلغ سنتيه حتى كان جفراً (غليظاً شديدا) فقدمنا به على أمه ونحن أحرص شيء على مكثه فينا لما نرى من بركته. فكلمنا أمه وقلت لها: «لو تركت بنيَ عندي حتى يغلظ فإني أخافُ عليه وباء مكة. فلم نزل بها حتى ردته معنا»[1].

وتذكر لنا كتب السير حادثة شق صدره وهو صبي بعد إرجاعه إلى حليمة، قالت حليمة: «فرجعنا به فوالله إنه بعد مقدمنا به بأشهر مع أخيه لفي بَهْم لنا خلف بيوتنا إذ أتانا أخوه يَشتدُّ فقال لي ولأبيه: ذاك أخي القرشي قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاه فشقّا بطنه فهما يسوطانه»[2].

وهي - كما يبدو - نشأة خاصة تلفت النظر، وتذكر لنا كتب السير أن بعض علماء أهل الكتاب عندما رأوه عرفوا أنه النبي الموعود وذلك بعلامات يعلمونها، فقد ذكروا أن أبا طالب خرج في ركب تاجراً إلى الشام فلما تهيأ للرحيل صبّ به (تعلّق به) رسولُ الله وهو صبي دون الاحتلام فرقّ له أبو طالب وقال: والله لأخرجنّ به معي ولا يفارقني ولا أفارقه.

---

(١) سيرة ابن هشام ١/١٠٥-١٠٦، وانظر: طبقات ابن سعد، م١، ج١/٩٧.

(٢) سيرة ابن هشام ١/١٠٦-١٠٧.

«فخرج به معه فلما نزل الركبُ بصرى وبها راهب يقال له (بَحيرى) في صومعة له وكان إليه عِلْمُ أهل النصرانية ولم يزل في الصومعة منذ قطّ راهبٌ إليه يصير علمهم عن كتاب فيها فيما يزعمون يتوارثونه كابراً عن كابر فلما نزلوا ذلك العام ببحيرى وكانوا كثيراً ما يمرون به قبل ذلك فلا يكلمهم ولا يَعْرِضْ لهم حتى كان ذلك العام فلما نزلوا به قريباً من صومعته صنع لهم طعاماً كثيراً، وذلك فيما يزعمون عن شيء رآه وهو في صومعته. يزعمون أنه رأى رسول الله ﷺ وهو في صومعته وفي الركب حين أقبلوا وغمامة تُظِلُّه من بين القوم ثم أقبلوا فنزلوا في ظل شجرة قريباً منه فنظر إلى الغمامة حين أظلّت الشجرة وتهصرت (مالت) أغصان الشجرة على رسول الله ﷺ حين استظل تحتها. فلما رأى ذلك بحيرى نزل من صومعته ثم أرسل إليهم فقال: إني قد صنعتُ لكم طعاماً يا معشر قريش فأنا أحب أن تحضروا كلكم صغيركم وكبيركم وعبدكم وحُرَّكم.

فقال له رجل منهم: والله يا بحيرى إن لك لشأناً اليوم فما كنتَ تصنعُ هذا بنا وقد كنا نمر بك كثيراً فما شأنك اليوم؟

قال له بحيرى: صدقت قد كان ما تقول ولكنكم ضيف وقد أحببتُ أن أُكرمكم وأصنع لكم طعاماً فتأكلوا منه كلكم.

فاجتمعوا إليه وتخلف رسول الله ﷺ من بين القوم لحداثة سنه في رحال القوم تحت الشجرة فلما نظر بحيرى في القوم لم ير الصفة التي يعرف ويجد عنده. فقال: يا معشر قريش لا يتخلَّفن أحدٌ منكم عن طعامي. قالوا له: يا بحيرى ما تخلّف عنك أحد ينبغي أن يأتيك إلا غلام وهو أحدثُ القوم سناً فتخلف في رحالهم. فقال: لا تفعلوا ادعوه فليحضر هذا الطعام معكم. فقال رجل من قريش مع القوم: واللات والعزى إن كان لَلؤمٌ بنا أن يتخلف ابنُ عبد الله بن عبد المطلب عن طعام من بيننا ثم قام فاحتضنه وأجلسه مع القوم. فلما رآه بحيرى جعل يَلحظهُ لحظاً شديداً وينظر إلى أشياء من جسده قد كان يجده عنده من صفته حتى إذا فرغ القوم من طعامهم وتفرقوا قام إليه بحيرى فقال له: يا غلام، أسألك بحق اللات والعزى إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه - وإنما قال له بحيرى ذلك لأنه سمع قومه يحلفون بهما - فزعموا أن رسول الله ﷺ قال له: لا تسألني باللات والعزى فوالله ما أبغضتُ شيئاً قط بغضهما.

فقال له بحيرى: فبالله إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه. فقال له: سَلْني ما بدا لك.

فجعل يسأله عن أشياء من حاله في نومه وهيئته وأموره فجعل رسول الله ﷺ يخبره فيوافق ذلك ما عند بحيرى من صفته، ثم نظر إلى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضعه من صفته التي عنده.

فلما فرغ أقبل على عمه أبي طالب فقال له: ما هذا الغلام منك؟ قال: ابني. قال له بحيرى: ما هو بابنك وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حياً. قال: فإنه ابنُ أخي. قال: فما فعل أبوه؟ مات وأمه حبلى به. قال: صدقت، فارجع بابن أخيك إلى بلده واحذر عليه اليهود فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت لَيبغُنَّهُ شراً فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم.

فأسرع به إلى بلاده»[١].

وهذه هي السفرة الأولى إلى الشام، وذكروا أنه في خرجته الثانية إلى الشام - وهي الخرجة الأخيرة ولم يخرج إلا هاتين الخرجتين - وكان ابنَ بضع وعشرين سنة وكان قد خرج في مال خديجة مع غلامها ميسرة نزل في ظل شجرة «قريباً من صومعة راهب من الرهبان فاطلع الراهب إلى ميسرة فقال: مَنْ هذا الرجل الذي نزل تحت هذه الشجرة؟ قال له ميسرة: هذا رجل من قريش من أهل الحرم. فقال له الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي»[٢].

وذكروا أن ميسرة إذا كانت الهاجرة واشتد الحر يرى مَلَكين يُظَلِّلانه من الشمس[٣]. إلى غير ذلك من الأخبار التي تشير إلى أنه ﷺ كان إنساناً من نوع خاص. ولست الآن بصدد تمحيص هذه الأخبار ولكني أذكرها فقط لنرى ما يذكره كتاب السير والدلائل في نشأته ﷺ.

وعلى أي حال فالذي يظهر أن نشأته كان فيها شيء مما يلفت النظر وهذه الأخبار

---

(١) سيرة ابن هشام ١/١١٦-١١٨، طبقات ابن سعد، م١، ج١/٩٩-١٠٠، دلائل النبوة لأبي نعيم ١/٥٢.

(٢) ابن هشام ١/١٢١.

(٣) ابن هشام ١/١٢١.

بمجموعها تدل على ذلك.

سيرته:

أجمع الناس المعادون له والمدافعون عنه، الكافرون به والمؤمنون له على أن محمداً كان طرازاً فريداً في رفعة الأخلاق وصدق الحديث والأمانة والعفة وإعانة المحتاج ولين الجانب وسعة الصدر وعلو الهمة ورجاحة العقل إلى غير ذلك من الصفات العالية الرفيعة، وقد صَحَّ ذلك بالطرق الثابتة المتواترة فلم يَرْمِه أحدٌ من أعدائه الكافرين به المحاربين له بكذبة ولم يتهمه على شيء قبل الرسالة ولا بعدها فقد كان محمد يدعى الصادق الأمين قبل أن يتلقى الوحي. ولم نعلم أن أحداً من رجال قريش سُمِّي بهذا الاسم مع أن فيهم من يصدق ولا شك، وفيهم الأمين ولا شك. فتسمية محمد بهذا الاسم دليل على أنه بلغ مرتبة في الصدق والأمانة مَيَّزته عن جميع رجال قريش فأُفرِدَ بهذا التشريف. فقد ورد في صحيح البخاري وصحيح مسلم أن أبا سفيان وهو من ألد أعدائه آنذاك عندما سأله هرقل عن محمد ﷺ: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا. كما حدث أبو سفيان نفسه بذاك.

وفي صحيحي البخاري ومسلم أنه لما نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء] صعد النبي ﷺ على الصفا فجعل ينادي: يا بني فِهْر! يا بني عَدي لبطون قريش حتى اجتمعوا. فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو. فجاء أبو لهب وقريش فقال: أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تُغيرَ عليكم أكنتم مُصَدِّقيَّ؟ قالوا: نعم ما جربنا عليك إلا صدقاً.

قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد. فقال أبو لهب: تباً لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا؟ فنزلت ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾﴾ [المسد].

وتذكر كتب السير أن أهل مكة وهم أعداؤه كانوا إذا خشوا على شيء أودعوه عنده. قال ابن إسحاق: «ولم يعلم فيما بلغني بخروج رسول الله ﷺ أحد حين خرج - يعني الهجرة - إلا علي بن أبي طالب وأبو بكر الصديق وآل أبي بكر. أما علي فإن رسول الله ﷺ فيما بلغني أخبره بخروجه، وأمره أن يتخلف بعده بمكة حتى يؤدي عن رسول الله ﷺ الودائع التي كانت عنده للناس. وكان رسول الله ﷺ ليس بمكة أحد عنده شيء

يخشى عليه إلا وضعه عنده لِمَا يعلمُ من صدقه وأمانته»[١].

وفي كتاب «الطبقات الكبير» لابن سعد أنه ﷺ كان «رجلاً أفضل قومه مروءة وأحسنهم خلقاً. . . وأصدقهم حديثاً وأبعدهم من الفحش والأذى. وما رُئيَ مُلاحياً ولا ممارياً حتى سماه قومه الأمين لما جمع الله له من الأمور الصالحة فيه فلقد كان الغالب عليه بمكة (الأمين)»[٢].

وقد اعترف بذلك عدوه الألدُّ أبو جهل، فقد سأله الأخنس: «يا أبا الحكم أخبرني عن محمد أصادقٌ هو أم كاذب فإنه ليس هاهنا من قريش غيري وغيرك يسمع كلامنا؟

فقال أبو جهل: ويحك والله إن محمداً لصادق وما كذب محمد قط ولكن إذا ذهبت بنو قصي باللواء والسقاية والحجابة والنبوة فماذا يكون لسائر قريش»[٣]؟ وأُثِرَ نحو هذا عن المسور بن مخرمة وهو ابن أخت أبي جهل[٤].

وقد شهد الله له بهذا الخلق العالي الرفيع فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم] ولا شك أنه لو لم يكن على جانب عظيم من الخلق معروف بذلك لم يقله لأنه لو كان على خلاف ذلك لكذَّبهُ قومهُ في هذا الوصف.

وقد شهد الله له بأنه على مرتبة عالية من الصدق معروف به بحيث لا يسع أحداً تكذيبه وإن قرمه يكابرون في عدم إيمانهم له لا أنهم يتهمونه بالكذب، فقد كان ﷺ يَحْزنهُ أن يكذبه قومه وهو صادق في نفسه لم يُعْلَمْ عنه إلا الصدقُ، وتكذيب الصادق أمر يحزنه ويؤلمه فأنزل الله تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ۝٣٣﴾ [الأنعام]. فانظر إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ أي أنهم لا ينسبونك إلى الكذب ولكنهم جاحدون مكابرون. قال الحافظ ابن كثير: «أي: لا يتهمونك بالكذب في نفس الأمر ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أي: ولكنهم يعاندون الحق ويدفعونه بصدورهم كما قال سفيان الثوري عن أبي إسحاق عن ناجية بن

---

(١) ابن هشام ٢/ ٣٣٥.

(٢) طبقات ابن سعد، مج١، ج١/ ٧٦-٧٧.

(٣) تفسير ابن كثير ٢/ ١٣٠، الطبري ٧/ ١٨٢، القرطبي ٦/ ٤١٦، الكشاف ١/ ٥٠٢.

(٤) هداية الحيارى ٢٩٢-٢٩٣.

كعب عن علي قال: قال أبو جهل للنبي ﷺ: إنّا لا نكذبك ولكن نكذب ما جئت به فأنزل الله ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ ورواه الحاكم عن طريق إسرائيل عن أبي إسحاق ثم قال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه»(١)!

وشهادة القرآن هذه شهادة تاريخية ثابتة على مدى صدق الرسول، والذي يهمنا منها الآن جانبها التاريخي فإن القرآن أصدقُ وثيقة تاريخية لعهد الرسول ﷺ والمجتمع الذي كان فيه. ولو لم يكن كذلك لكذبوه في هذا القول وردوه.

أميته:

من الثابت تاريخياً بالنقل المتواتر وإجماع أهل العلم أن محمداً ﷺ كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، لم يكتب شيئاً بيده ولا قرأ صحيفة إلى أن توفاه الله. وإن هذا شأن أكثر قومه فهم أمةٌ أمية قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴿٢﴾﴾ [الجمعة] أي أمياً مثلهم. وقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف].

جاء في «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي: «قوله تعالى: ﴿الأمي﴾ هو منسوب إلى الأمة الأمية التي هي على أصل ولادتها لم تتعلم الكتابة ولا قراءتها. قال ابن العربي. وقال ابن عباس رضي الله عنه: كان نبيكم ﷺ أمياً لا يكتب ولا يقرأ ولا يحسب، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ﴿٤٨﴾﴾ [العنكبوت] وروي في الصحيح عن ابن عمر عن النبي ﷺ: «إنّا أمةٌ أمية لا نكتبُ ولا نحسب»(٢).

وقد حاول قسم من المشككين أن ينفوا عنه صفة الأمية هذه لأن سرده لأخبار الأقدمين وما في التوراة والإنجيل من دون تعليم أحدٍ له أو قراءة يدل على نبوته ﷺ بما لا مجال فيه لمكابر فحاولوا أن ينفوا عنه صفة الأمية ولكن أنَّى لهم هذا فإنه لا يسعفهم شيء من الخبر اليقين إذ المتواتر تاريخياً بإجماع أهل العلم أنه كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب. قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [العنكبوت].

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/١٢٩.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٧/٢٩٨-٢٩٩.

وهذه شهادة تاريخية ثابتة ليس فيها مجال للشك بأنه ﷺ لم يكن يقرأ ولا يكتب إذ لو لم يكن كذلك لكذَّبه قومه والمؤمنون به. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «بيَّنَ سبحانه مِنْ حالهِ ما يعلمه العامةُ والخاصة وهو معلوم لجميع قومه الذين شاهدوه متواتر عند من غاب عنه وبَلَغَتْهُ أخبارهُ من جميع الناس أنه كان أمياً لا يقرأ كتاباً ولا يخط كتاباً من الكتب لا المنزلة ولا غيرها ولا يقرأ شيئاً مكتوباً لا كتاباً منزلاً ولا غيره ولا يكتبُ بيمينه كتاباً ولا ينسخ شيئاً من كتبِ الناس لا المنزَّلة ولا غيره»[1].

وقال الحافظ ابن كثير في تفسير هذه الآية: «أي قد لبثتَ في قومك يا محمد من قبل أن تأتي بهذا القرآن عمراً لا تقرأ كتاباً ولا تُحسنُ الكتابةَ بل كلُّ أحدٍ من قومك وغيرهم يعرفُ أنك رجلٌ أمي لا تقرأ ولا تكتب وهذا صفته في الكتب المتقدمة كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف] الآية. وهكذا كان رسول الله ﷺ دائماً إلى يوم الدين لا يحسن الكتابة ولا يخط سطراً ولا حرفاً بيده بل كان له كُتَّابٌ يكتبون بين يديه الوحي والرسائل إلى الأقاليم...

وما أورده بعضهم من الحديث أنه لم يمت ﷺ حتى تعلَّمَ الكتابةَ فضعيفٌ لا أصلَ له»[2].

وجاء في «الكشاف» للزمخشري: «وأنتَ أميٌّ ما عرفك أحد قط بتلاوةِ كتابٍ ولا خط (إذاً) لو كان شيء من ذلك أي من التلاوة والخط لارتاب المبطلون من أهل الكتاب وقالوا: الذي نجده في كتبنا أمي لا يكتبُ ولا يقرأ وليس به. أو لارتاب مشركو مكة وقالوا لعله تعلَّمه أو كتبه بيده»[3].

وقال الأستاذ الشيخ محمد رشيد رضا: «إن محمداً ﷺ قد نشأ أمياً لم يتعلم القراءة ولا الكتابة وأن قومه الذي نشأ فيهم كانوا أميين وثنيين جاهلين بعقائد الملل وتواريخ

---

(١) الجواب الصحيح ٤/ ٣١.

(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٤١٧.

(٣) تفسير الكشاف ٢/ ٤٩٨. وانظر أيضاً: تفسير الطبري، ج٢١، ص٤١، وتفسير القرطبي ١٣/ ٣٥١، والتفسير الكبير للفخر الرازي، ج١٥، ص٢٣، ج٢٥/ ٧٧، وتفسير فتح القدير للشوكاني ٤/ ٢٠٠، وانظر: الفصل في الملل لابن حزم ٢/ ٨٩، والجواب الصحيح لابن تيمية ١/ ١٩٧.

الأمم وعلوم التشريع والفلسفة والأدب حتى أن مكة عاصمة بلادهم وقاعدة دينهم ومثوى كبرائهم ورؤسائهم.. لم يكن يوجد فيها مدرسة ولا كتاب مدوّن قط. فما جاء به من الدين التام الكامل والشرع العام العادل لا يمكن أن يكون مكتسباً ولا أن يكون مستنبطاً بعقله وفكره»[(١)].

الوحي:

قضى محمد ﷺ أربعين عاماً من حياته بين قومه يعيش حياة هادئة مشتهراً بين قومه بالصدق والأمانة وسمو الخلق كما ذكرنا. ولم يفارق قومه ولم يسافر قط إلا سفرتين إلى الشام ولم يسافر غيرهما لا إلى الشام ولا إلى غيرها باتفاق أهل العلم وكما تواتر من أخباره، السفرة الأولى مع عمه أبي طالب وهو صبي دون الاحتلام ومرة أخرى مع ميسرة في تجارة بأموال خديجة التي أصبحت زوجاً له وكان ابن بضع وعشرين سنة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فإن محمداً ﷺ باتفاق أهل المعرفة بحاله كان أمياً من قومٍ أميين مقيماً بمكة ولم يكن عندهم مَنْ يحفظ التوراة ولا الإنجيل ولا الزبور، ومحمد ﷺ لم يخرج من بين ظَهرانيهم ولم يسافر قط إلا سفرتين: إلى الشام خرج مرة مع عمه أبي طالب قبل الاحتلام ولم يكن يفارقه، ومرة أخرى مع ميسرة في تجارته وكان ابن بضع وعشرين سنة مع رفقةٍ كانوا يعرفون جميع أحواله ولم يجتمع قط بعالم أخذ عنه شيئاً لا من علماء اليهود ولا النصارى ولا من غيرهم، لا بحيرى ولا غيره ولكن كان بحيرى الراهب لما رآه عرفه لما كان عنده من ذِكْرِهِ ونَعْتِهِ فأخبر أهله بذلك وأمرهم بحفظه من اليهود ولم يتعلم لا من بحيرى ولا من غيره كلمة واحدة»[(٢)].

وقال الإمام ابن حزم: «نشأ - كما قلنا - في بلاد الجهل لا يقرأ ولا يكتب ولا خرج عن تلك البلاد قط إلا خرجتين إحداهما إلى الشام وهو صبي مع عمه إلى أول أرض الشام ورجع، والأخرى أيضاً إلى أول الشام ولم يُطِلْ بها البقاء ولا فارق قومه قط»[(٣)].

---

(١) الوحي المحمدي ٥١.
(٢) الجواب الصحيح ١/ ١٩٧.
(٣) الفصل في الملل ٢/ ٨٩.

وكان ﷺ غافلاً لا يعلمُ شيئاً عن الكتاب والإيمان والوحي ولا في قومه من يعلم ذاك. فقد قال الله فيه: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٣﴾ [يوسف] أي: كنت يا محمد من قبل أنْ يُنزَّلَ عليك القرآنُ غافلاً عن أمورِ النبوة والرسالة لا تعرف شيئاً عنها. وقال تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ ۝٥٢﴾ [الشورى]. ولم يكن يرجو أن يكون نبياً أو يتلو قرآناً ولا يعرف ذاك، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۝٨٦﴾ [القصص]، وقال: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٦﴾ [يونس].

وهذه شهادات تاريخية ثابتة ولو كان يعلم ذلك أو جرى على لسانِهِ لكذَّبه قومُه. وهكذا شأن قومه أيضاً لم ينزل عليهم وحي قبله ولا خرج منهم نبي ولا أُنذرَ آباؤهم قال تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ ۝٤٦﴾ [القصص]. وقال: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦﴾ [يس] حتى إذا بلغ الأربعين وقد كان حُبِّبَ إليه الخلوة فكان يتحنَّثُ الليالي ذوات العدد وحده نزل عليه جبريل في غار حراء في جبل قرب مكة مبتدئاً الرسالةَ بقوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾ [العلق] وقد ذكر بدء الوحي أكثر من صحابي واحد كما جاء في صحيحي البخاري ومسلم. فقد جاء في «الصحيحين» بطرق متعددة عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: «أول ما بُدِىءَ به رسولُ الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فَلَقِ الصبح ثم حُبِّب إليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه وهو التعبُّد الليالي ذوات العدد قبل أن ينزعَ إلى أهله ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاء الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك فقال: إقرأ.

قال: ما أنا بقارىء.

قال: فأخذني فغطَّني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: إقرأ.

قلت: ما أنا بقارىء. فأخذني فغطّني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: إقرأ.

فقلت: ما أنا بقارىء.

فأخذ فغطني الثالثة ثم أرسلني فقال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ

﴿ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾﴾ [العلق].

فرجع بها رسولُ الله ﷺ يرجفُ فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها فقال: زَمِّلوني زملوني فزمّلوه حتى ذهبَ عنه الرَّوْعُ فقال لخديجة وأخبرها الخبر: لقد خشيت على نفسي.

فقالت خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبداً إنك لَتَصِلُ الرَّحِمَ وتحملُ الكَلَّ وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق.

فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقةَ بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة وكان امرءاً تَنصَّر في الجاهلية وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب وكان شيخاً كبيراً قد عَمِيَ.

فقالت له خديجة: يا ابنَ عم اسمعْ من ابنِ أخيك.

فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نَزَّلَ الله على موسى يا ليتني فيها جذعاً، ليتني أكون حياً إذ يُخرجُكَ قومُكَ.

فقال رسول الله ﷺ: أَوَمُخْرِجيَّ هُمْ؟!

قال: نعم لم يأتِ رجلٌ قط بمثل ما جئت به إلا عُودي وإنْ يدركني يومكَ أنصرك نصراً مؤزَّراً.

ثم لم ينشب ورقة أنْ توفيَ وفترَ الوحي.

قال ابن شهاب: وأخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن أن جابر بن عبد الله الأنصاري قال وهو يحدّث عن فترة الوحي فقال في حديثه: بينا أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصري فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض فرعبت منه فرجعت فقلت: زملوني. فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾﴾ [] إلى قوله: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾﴾ [المدثر] فحميَ الوحيُ وتتابع...».

تابعه عبد الله بن يوسف وأبو صالح وتابعه هلال بن رداء عن الزهري وجاء في «الصحيحين» عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أن الحارث بن هشام رضي الله عنه

سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟

فقال رسول الله ﷺ: أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشدُّه عليَّ فيفصم عني وقد وعيتُ عنه ما قال، وأحياناً يتمثَّلُ لي الملَكُ رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول.

قالت عائشة رضي الله عنها: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً».

وقد يتمثل الملك رجلاً يراه جمع الصحابة كما جاء في الصحيحين بطرق متعددة عن يحيى بن يعمر وحميد بن عبد الرحمن عن عبد الله بن عمر عن أبيه، وبأسانيد أخرى عن أبي هريرة رضي الله عنه: عن أبي هريرة قال: كان النبي ﷺ بارزاً يوماً للناس فأتاه جبريل فقال: ما الإيمان؟... وساق الحديث».

ثم أدبر فقال: ردوه فلم يروا شيئاً. فقال: «هذا جبريل جاء يعلِّمُ الناسَ دينهم».

ونحوه ما جاء عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثوب شديد سواد الشعر لا يُرى عليه أثرُ السفر ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه وقال: يا محمد أخبرني عن الإسلام.

فقال رسول الله ﷺ: «الإسلام أنْ تشهدَ أن لا إله إلا الله... إلخ. قال: صدقت.

قال: فعجبنا له يسأله ويُصَدِّقه... الحديث».

فهنا - كما ترى - ظهر جبريل لجمعٍ من الصحابة متمثلاً بصورة رجلٍ يسأل محمداً ويصدّقه يعلّمُ الناس أمور دينهم.

ولو كان هذا الرجل أحد المسلمين لعرفوه ولتكررت رؤيته لهم. ولو كان بشراً ما قال محمد: هو جبريل، إذ ما يدريه أن يأتي غداً أو بعد غد فيفتضح بالكذب؟!

وليست هذه هي المرة الوحيدة التي ظهر فيها جبريل للناس. فقد أخبرت الآثار الصحيحة بظهوره مرات أخرى، من ذلك ما جاء في صحيحي البخاري ومسلم أن جبريل أتى النبي ﷺ وعنده أم سلمة فجعل يحدّث ثم قام. فقال النبي ﷺ لأم سلمة: مَنْ هذا؟ أو كما قال.

قال: قالت: هذا دحية.

قالت أم سلمة: إيم الله ما حسبتُه إلا إياه حتى سمعتُ خطبةَ نبي الله ﷺ يخبر جبريل أو كما قال.

فقلت لأبي عثمان: ممن سمعتَ هذا؟ قال: من أسامة بن زيد.

فأم سلمة حسبته دحيةَ الكلبي ولا شك أنه ليس دحية إذ لو كان إياه لبان كذبه ﷺ وافتضح.

إلى غير ذلك من الأحاديث الصحيحة المقطوع بصحتها.

وبعد نزول الوحي تغيرت حياته ﷺ فصار مدارها الدعوة إلى الله وتوحيده دعوة خالصة من كل شائبة، فل يكن يكلّ ولا يفتر عن ذلك، فكان يُبصِّرُهم بعظيم قدرة الله في كل شيء. وما جاء به من الحجج في ذلك كفيلٌ بإقناع أي عقل في زمانه فكان يلفت نظرهم إلى الإنسان ويقول: انظروا إلى هذا المخلوق العجيب كيف نشأ؟ أصله من ماء يقذفه الرجلُ في الرحم ثم يكون علقةً ثم يصير مضغة ثم ينفخ الله فيه من روحه فيصير إنساناً ذا عقل وإرادة، ركَّبَ الله له العظام وجعل له السمع والبصر والفؤاد.

فأي قوة جعلت من قطرة الماء المَهين إنساناً من لحم ودم ذا عقل وتفكير وسمع وبصر يسير ويبطش ويأكل ويشرب؟

ثم انظروا إلى هذه القطرة من الماء كيف جعلَ الله منها ذكراً وأنثى وجعل منها نسباً وصهراً وقرابات وجعل منها أزواجاً يسكنُ بعضهم إلى بعض وجعل بينهم مودة ورحمة؟ أي قدرة هذه أيها الناس؟

ثم هذه القطرة من الماء أصلها من طين جعلها الله ماءً في صُلبِ الرجل ليتكاثر الناس فتتداركها العناية حتى تكون إنساناً يصورها الله في الرحم كيف يشاء فيخرج الناس مختلفين في الصور والألوان والألسنة. إن في ذلك لآياتٍ للعالمين. ألا ترون أيها الناس أن هذا الخالق العظيم قادر على كل شيء؟ وأن هذا الخالق العظيم جدير بإفراده بالعبادة؟!

﴿ ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ۝٩ ﴾ [السجدة].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ ۝٥ ﴾ [الحج].

﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ ۝٦ ﴾ [آل عمران].

﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ ۝١٨٩ ﴾ [الأعراف].

﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٞ تَنتَشِرُونَ ۝٢٠ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ۝٢١ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ ۝٢٢ ﴾ [الروم].

﴿ لِّلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ۝٤٩ أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗاۖ وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٞ قَدِيرٞ ۝٥٠ ﴾ [الشورى].

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ مِنَ ٱلۡمَآءِ بَشَرٗا فَجَعَلَهُۥ نَسَبٗا وَصِهۡرٗاۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرٗا ۝٥٤ ﴾ [الفرقان].

ثم يُحيلُ نظرهم إلى ما حولهم من مخلوقات الله فيقول لهم: انظروا إلى هذه الحيوانات التي سخرها لكم ربكم. خلقها لتستفيدوا منها وقد خلقها بارئكم لتتدفأوا بجلودها وتنسجوا منها ملابسكم وتأكلوا من لحمها وتحمل أثقالكم إلى بلاد بعيدة، فمن سخَّرها لكم أيها الناس؟

ثم ألا تنظرون إلى عظيم قدرة الله كيف أخرج الله من بين الدم والفرث لبناً خالصاً لذيذاً سائغاً للشاربين؟ إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون.

أي قدرة هذه، وأي رحمة بكم هذه أيها البشر!

﴿ وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۖ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ۝٦ وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ۝٧ وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ۝٨ ﴾ [النحل].

﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ

إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ ﴾ النحل].

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [النحل].

ويحيل نظرهم إلى بقية الأحياء فيقول لهم: انظروا إلى قدرة الله كيف خلقها من ماء وجعل منها مَنْ يمشي على بطنه ومن يمشي على رجليه ومن يمشي على أربع ومن يطير بجناحيه مسخراً في جو السماء ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ ﴾ [النور].

فأي قدرة هذه أيها البشر؟!

وربنا أنزل من السماء ماء يُنبتُ به زرعاً مختلفاً ألوانه تأكل منه أنعامهم وأنفسهم ويخرج به الزيتون والنخيل والأعناب والفاكهة الكثيرة المتنوعة، فأي قدرة هذه يا أرباب العقول؟!

﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [النحل].

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [الأنعام].

﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [الرعد].

ويحيل نظرهم إلى الكون وإلى اختلاف الليل والنهار وكيف يأتي الله بهما؟ وقد جعل الله لنا الليل سكناً والنهار للضرب في الأرض وقد كان ربنا قادراً على أن يجعل النهار سرمداً أبدياً لا يزول والليل كذلك ولكن أي حياة هذه ستكون؟

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ﴾ [آل عمران].

﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [يونس].

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ ﴾ [الفرقان].

﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۚ أَفَلَا تَسۡمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٍ تَسۡكُنُونَ فِيهِۖ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [القصص].

ثم انظروا إلى قدرة ربنا سبحانه كيف مَدَّ الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين وسخر البحر لنأكل منه لحماً طرياً ونستخرج منه الحلي وتمخر فيه الفلك فأي نعمة هذه أيها الناس؟

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمًا طَرِيًّا وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةً تَلۡبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلۡقَىٰ فِى ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَأَنۡهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾ [النحل].

وهو الذي خلق الله الماء الملح والماء العذب الفرات بقدرته فلم يَطْغَ ماءٌ على ماء لحكمة معلومة دبرها خالقها ﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ هَٰذَا عَذۡبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخًا وَحِجۡرًا مَّحۡجُورًا ﴿٥٣﴾ ﴾ [الفرقان].

وربنا أنزل من السماء ماء فأسكنه في الأرض فجعله ينابيع يستفيد منه الناس ﴿ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٍ فَأَسۡكَنَّٰهُ فِى ٱلۡأَرۡضِۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابِۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأۡنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعۡنَٰبٍ لَّكُمۡ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [المؤمنون].

﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعًا مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرًّا ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ حُطَٰمًاۚ ﴿٢١﴾ ﴾ [الزمر].

ثم يحيل نظرهم إلى السماء كيف رفعها ربنا بغير عمد وزَيَّنها بالكواكب السابحة في أفلاكها وجعل النجوم فيها لنهتدي بها في ظلمات البر والبحر وجعل فيها الشمس ضياء والقمر نوراً بحساب دقيق وما كانت لتقف في الفلك لولا الحساب الدقيق للمسافات والأبعاد ﴿ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٍ ﴿٥﴾ ﴾ [الرحمن].

﴿ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنًا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانًاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الأنعام].

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [يونس].

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [الرعد].

إلى غير ذلك من الآيات العظيمة الرائعة تُبصِّرهم بعظمةِ الله وجلاله وقدرته وبالغ نعمائه على البشر ويطلب منهم النظر والتفكر في هذه المخلوقات العجيبة ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ﴿١٠١﴾ ﴾ [يونس]، ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ [آل عمران].

أما هؤلاء الذين يُعبدون من دون الله فلا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا حول لهم ولا قوة ولا علمَ لهم ولا إرادة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الحج].

ثم يدعوهم إلى الإيمان باليوم الآخر، اليوم الذي يجمع الله فيه الخَلْقَ فيحاسبهم على أعمالهم. وقد أقام الحجة تلو الحجة عليهم ويُريهم أن الإعادةَ أهونُ من الابتداء في حكم العقل ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الروم].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ ﴾ [الحج].

ويلفت نظرهم إلى أنفسهم فيقول: إنكم في كل يوم تنشرون وتبعثون ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ ﴾ [الفرقان].

﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الزمر].

﴿يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الروم].

فأي إيمان هذا أيها الناس وأي درجة من النظر العميق الدقيق الواسع؟ إنك ترى معي أن إيمان مثل هذا الشخص لا يكون إيماناً تقليدياً وإنما هو قائم على التدقيق والنظر يقوده إليه الوحي، إنه إيمان عميق يقوم على الحجة الساطعة والبرهان القاطع. وما جاء به من الحجج - كما ذكرت - كفيل بإقناع أي عقل في زمانه في الأقل. فهل يا ترى أن هذا الرجل يمكن أن يكون كاذباً على الله مفترياً عليه؟ وأين يفر من عذابه وعقابه ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ ﴿٩٣﴾﴾ [الأنعام].

بهذا العمق والحرارة أخذ يدعو قومه إلى الله وكان الوحي يُوجِّهُهُ ويسدده ويمتثل لكل ما يجيء به امتثالاً دقيقاً. فقد كان أول أمره وَجِلاً من هذه الظاهرة خائفاً على نفسه حتى إذا نزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾﴾ [المدثر] قال: برح الخفاء وأخذ يدعو قومه سراً دعوة هادئة حتى إذا نزل قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء] صعد على الصفا ممتثلاً لأمر الوحي وجعل ينادي بطون قريش ويقول لهم: إني نذيرٌ لكم بين يدي عذابٍ شديد. كما ثبت في «الصحيحين».

حتى إذا نزلت: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [الحجر] جاهر بالدعوة كما أمره الله وصدع بها في كل مكان وكل نادٍ وتحمَّلَ من الأذى ما لا يقادر قدره وأرسل الرسائلَ إلى ملوك وعظماء زمانه يدعوهم إلى الإسلام فمنهم مَنْ آمن به ومنهم من كذبه ومنهم من احترم دعوته وأكرم كتابه ورسله. والجدير بالذكر من أمر هذه الرسائل رسالته إلى هرقل ملك الروم. إذ نرى أن هرقل يتقصَّى خبره ويختبر أمره بأسلوبٍ عقلي ويخلص إلى أن هذا الرجل لا يمكن أن يكون كذاباً وإنما هو نبي فقد جاء في صحيحي البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود أن أبا سفيان بن حرب أخبره واللفظ للبخاري، أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش وكانوا تجاراً بالشام في المدة التي كان رسول الله ﷺ مَادَّ فيها أبا سفيان وكفارَ قريش فأتوه وهم بإيلياء فدعاهم في مجلسه وحوله عظماءُ الروم ثم دعاهم ودعا بترجمانه فقال: أيكم أقربُ نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقال أبو سفيان فقلت: أنا أقربهم نسباً. فقال: أدنوه مني وقرِّبوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره ثم قال لترجمانه: قل لهم إني سائل هذا عن هذا الرجل فإن كذبني فكذِّبوه فوالله لولا الحياء من أن يأثروا عليَّ كذباً لكذبت عنه.

ثم كان أول ما سألني عنه أن قال: كيف نَسَبُه فيكم؟ قلت: هو فينا ذو نسب.

قال: فهل قال هذا القولَ منكم أحدٌ قط قبله؟ قلت: لا.

قال: فهل كان من آبائه من ملك؟ قلت: لا.

قال: فأشرافُ الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ فقلت: بل ضعفاؤهم.

قال: أيزيدون أم ينقصون؟ قلت: بل يزيدون.

قال: فهل يرتدُّ أحدٌ منهم سخطةً لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلت: لا.

قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا.

قال: فهل يغدر؟ قلت: لا ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعلٌ فيها. قال: ولم تُمكّنّي كلمة أُدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة.

قال: فهل قاتلتموه؟ قلت: نعم.

قال: فكيف كان قتالكم إياه؟ قلت: الحربُ بيننا وبينه سجال ينال منا وننال منه.

قال: ماذا يأمركم؟ قلت: يقول اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً واتركوا ما يقول آباؤكم ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة.

فقال للترجمان: قُلْ له: سألتك عن نسبه فذكرتَ أنه فيكم ذو نسب فكذلك الرسل تُبعثُ في نسب قومها. وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول فذكرتَ، أنْ لا فقلت لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلتُ رجل يأتسي بقولٍ قيل قبله. وسألتك هل كان من آبائه من ملك؟ فذكرت أن لا. قلت: فلو كان من آبائه من ملك قلتُ رجلٌ يطلبُ ملكَ أبيه. وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فذكرت أن لا فقد أعرف أنه لم يكن لِيذرَ الكذبَ على الناس ويكذب على الله.

وسألتك أشرافُ الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم فذكرت أنْ ضعفاؤهم اتبعوه وهم أتباعُ الرسل. وسألتك أيزيدون أم ينقصون فذكرتَ أنهم يزيدون وكذلك أمرُ الإيمان حتى يتم.

وسألتك أَيرتدُّ أحدٌ سخطةً لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فذكرت أنْ لا. وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشَتُه القلوبَ.

وسألتك هل يغدر؟ فذكرتَ أنْ لا وكذلك الرسل لا تغدر.

وسألتك بِمَ يأمركم؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وينهاكم عن عبادة الأوثان ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضعَ قدميَّ هاتين. وقد كنتُ أعلمُ أنه خارج لم أكن أظن أنه منكم فلو أني أعلم أني أخاصُ إليه لتجشَّمتُ لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه. ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ الذي بعث به دحية إلى عظيم بصرى فدفعه إلى هرقل فقرأه فإذا فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم.

سلام على مَن اتَّبع الهدى.

أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أَسْلِمْ تَسلم يُؤتكَ اللهُ أجرك مرتين فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين ويا أهلَ الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبدَ إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تَوَلَّوْا فقولوا اشهدوا بأنَّا مسلمون.

قال أبو سفيان: فلما قال ما قال وفرغ من قراءة الكتاب كثر عنده الصخب وارتفعت الأصوات وأخرجنا. فقلت لأصحابي حين أخرجنا: لقد أمِرَ أمرُ ابنِ أبي كبشة إنه يخافهُ ملكُ بني الأصفر. فما زلتُ موقناً أنه سيظهر حتى أدخل الله عليَّ الإسلام.

ثم ذكر البخاري أن هرقل أذن لعظماء الروم في دسكرة له بحمص ثم أمر بأبوابها فغلِّقت ثم اطّلع فقال: يا معشر الروم هل لكم في الفلاح والرشد وأن يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبي؟ فحاصوا حيصةَ حُمُرِ الوحش إلى الأبواب فوجدوها قد غلقت. فلما رأى هرقل نفرتهم وأيسَ من الإيمان قال: رُدُّوهم عليَّ، وقال: «إني قلتُ مقالتي آنفاً أختبرُ بها شِدَّتكم على دينكم فقد رأيت.

فسجدوا له ورضوا عنه».

وبذا يَخلُصُ الرجلُ إلى أنه نبي صادق وتمنعه الرغبة في السلطان والحكم من اتّباعه ﷺ.

ويظل الرسول ﷺ يجاهد الشرك والباطل حتى أظهره الله ونصره وأعلى كلمته.

ومن مظاهر تغير حياته ﷺ بعد نزول الوحي أنه أصبح يربط كل شيء بالله فلا خير إلا فيما يُرضي الله والشر فيما يسخطه والأعمال كلها بحسب النيات فمن ابتغى وجه الله فله أجره ومن لم يبتغ وجه الله فلا خير له في عمله ولا أجرَ له ولا ثواب ولو كان بقدر الدنيا.

وأخذ يوجه أصحابه إلى أن يبتغوا في كل عمل يعملونه أو قول يقولونه ما يثقل ميزانهم في الآخرة من غير إخلالٍ بحياتهم في الدنيا التي هي مزرعة الآخرة.

وكان يعلمهم أن مفتاح الدخول في دين الله هو قول (لا إله إلا الله) ولا ينفع شيء من دون هذه الكلمة وإن الله لا يرضى عن أحد كائناً من كان حتى ينفي عنه الشرك بهذه الكلمة.

وتُريكَ هذه المحاورة القصيرة بينه ﷺ وبين عمه أبي طالب الذي نصره وأعانه وتَحمَّلَ معه من الهموم ما تحمل مقدارَ إيمانِه بها. فقد كان عمه على فراش الموت وكان ﷺ حريصاً على إنقاذ عمه من النار فكان يلحُّ عليه ليقولها. روى البخاري ومسلم بأكثر من طريق أن أبا طالب لما حضرته الوفاة دخل عليه النبي ﷺ وعنده أبو جهل فقال: أي عم قلْ لا إله إلا الله كلمة أحاجّ لك بها عند الله. فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب ترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزالا يُكَلِّمانِهِ حتى قال آخر شيء كلمهم به: على ملةِ عبد المطلب.

فقال النبي ﷺ: لأستغفرنَّ لك ما لم أُنْهَ عنه فنزلت: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ [التوبة]، ونزلت: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴿٥٦﴾﴾ [القصص].

فهو إيمان حارٌّ صادق بأن هذه الكلمة مفتاح النجاة من النار والدخول في الجنة. وكان يقول: مَنْ قال لا إله إلا الله مؤمناً بها دخل الجنة.

ونراه يجتهد ويعلم أصحابه الاجتهاد لرضاء الله بالطاعات وفعل الخير والأمر به والابتعاد عن المنكر والنهي عنه وذكر الله ذكراً كثيراً والاستغفار والتوبة والتسبيح والتحميد مما لم يكن معهوداً عنده قبل الرسالة ولا عند قومه ولا عند أصحاب الكتاب قبله. فنراه يعلمهم كيف يذكرون الله ويحمدونه إذا ناموا وإذا قاموا وإذا أكلوا وشربوا

وإذا لبسوا وإذا تطهروا وإذا خرجوا من البيت أو دخلوا فيه وإذا دخلوا المسجد أو خرجوا منه وإذا سافروا أو رجعوا فأصبحت حياتهم كلها ذِكْراً وشكراً وحمداً وتسبيحاً واستغفاراً وتوبة.

وكان يعلمهم أن الله بيده كل شيء فَمَن استعان فليستعنْ بالله ومن سأل فليسأل الله وإذا أراد الله شيئاً فلا رادَّ له ولا مُعقِّبَ لحكمه، فمن كربه أمرٌ فليضرعْ إلى الله، ومن أَهَمَّهُ شيءٌ فليلتجىء إليه، وإذا عسر عليه أمر فليدْعُه سبحانه فهو الكفيلُ بالإجابة ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۝٦٠﴾ [غافر]، ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۝١٨٦﴾ [البقرة].

وعَلَّمهم إذا انقطع الغيث كيف يَسْتَقُونَ ربَّهم وقد استسقى رَبَّهُ أمامهم مرات فاستجاب.

وعلَّمهم أنه بالطاعات والتوبة والاستغفار تدوم النعمُ ويُستجلب الخيرُ ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ۝١٢﴾ [نوح]، ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۝٣﴾ [هود].

وقد كان ﷺ - كما جاء في صحيح البخاري عن عائشة - يقومُ من الليل حتى تَتفطَّرَ قَدَماهُ، فقالت عائشة: لِمَ تصنع هذا يا رسولَ الله وقد غفرَ اللهُ لكَ ما تقدَّمَ من ذنبك وما تأخر؟ قال: أفلا أحب أن أكون عبداً شكوراً؟!

فما سِرُّ هذا التغيير العجيب؟

إنه الوحي.

ثم نرى أنَّ هذا الرجلَ الأُمِّي الذي عاش في بيئة جاهلة أمية ليس فيها مدرسة ولا كتابٌ مدوَّن جاء بنظام كامل شامل للفرد والبيت والمجتمع ونظام الحكم وتنظيم علاقات الناس فيما بينهم وبين ربهم، وبينهم وبين إخوتهم من المؤمنين، وبينهم وبين بقية الناس تنظيماً أعجزَ الخلقَ عن مجاراتِهِ وأخرج به طرازاً فريداً من الناس وجيلاً عالياً تستشرفُ له الإنسانية. وأثبت علمياً أنَّ هذا النظام لا يمكن أن يُجارى كما اعترف بذلك أساطينُ العلماء وجهابذةُ أرباب الفكر في الغرب والشرق.

أليس هذا وحده كافياً في الدلالة على أن هذا الرجل الأمي الأمين الصادق رسول الله حقاً؟!

أظن أن هذا وحده يدل على نبوته عند قسمٍ غير قليل من الناس ولكن آخرين من الناس يريدون دليلاً من طراز آخر وسنقدم لهم الدليل بعون الله.

القرآن كتابُ اللهِ

هل القرآن كتاب الله حقاً، أنزله على محمد بواسطة المَلَك؟ أفلا يمكن أن يكون هذا الكتاب من صنع محمد؟ ما الدليلُ على أنه من عند الله؟

هذه أسئلة كثيراً ما مَرَّتْ على خاطري وبقيت أُعاني منها فترة طويلة.

إن محمداً ادّعى أن القرآن كتاب الله: أنزله تعالى عليه بلفظه وبمعناه، نزل به جبريل من عند الرب وتلاه محمدٌ كما سمعه من جبريل، وليس اللفظ للرسول والمعنى لله وإنما هو منزل بلفظه ومعناه. قال تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴿٩٧﴾﴾ [البقرة]، و﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء]. وهو كلام الله ولو لم يكن لفظه له ما سَمَّاهُ الله تعالى كلامه قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ﴿٦﴾﴾ [التوبة].

ونحن في هذا البحث نريد أن نتحقق من صحة هذا الادِّعاء. وقد ذكر محمد أن الله جعل في القرآن الدليلَ على نبوته والبرهان على رسالته فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾﴾ [النساء] فسماه برهاناً ونوراً مبيناً.

ومعنى هذا القول أن الله جعل في القرآن من الأدلة العقلية على نبوة محمد ما يُقيمُ به الحجةَ على خَلْقِهِ وأنهم لو التمسوا البرهان على ذلك لوجدوه فيه.

وعلى هذا سنلتمسُ الدليلَ على نبوة محمد في القرآن فلعلَّ فيه ما يؤيد هذه الدعوى.

وأود أن أُنبه على مسألةٍ يَجدرُ التنبيهُ عليها في بحثنا هذا وهي أننا حين نستشهد بالقرآن ليس القصد هو الاستدلال الديني بل الاستدلال التاريخي فإن القرآنَ بلا شك أصدقُ وثيقةٍ تاريخية عن ذلك العهد.

الأدِلة القرآنيّة

إعجاز القرآن:

تحدى القرآنُ العربَ ثم جميع الخلق بأنْ يأتوا بمثلهِ ثم أخبر أنهم لن يأتوا بمثله ولو كان بعضُهم لبعض ظهيراً، ومن الثابت أنهم انقطعوا عن ذلك فقامت الحجة.

وتفصيل ذلك أن القرآن تحداهم أولاً بأنْ يأتوا بعشرِ سورٍ مثله إن كانوا يرون أنه مُفْترى فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ [هود].

فلما انقطعوا وقامت الحجة عليهم تحداهم أن يأتوا بسورةٍ من مثله وأخبر أنهم لن يفعلوا فانقطعوا جميعاً وقامت الحجة عليهم قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [البقرة].

وأكَّد التحدي بقوله: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء].

فقد دعا القرآن العرب إلى أن يأتوا بسورة من مثله ويشمل هذا التحدي قصارَ السور كما يشملُ طوالها فهو تحدَّاهم بسورةِ الكوثر والإخلاص والمعوَّذتين والنصر ولإيلاف قريش أو أية سورة يختارونها، فقال لهم اختاروا سورةً من القرآن وَأْتُوا بمثلها.

ومن المعلوم أن العربَ لم يحاولوا أن يفعلوا ذلك فقد كانوا يعلمون عجزهم عنه فطلبوا إطفاء نور الله عن غير هذا السبيل. ورأوا أن سبيلَ الحرب والدماء وتجميع الأحزاب أيسر عليهم من مقابلة تحدي القرآن. وهذا أمر غريب فإنّا نعلم أن المنافرات الأدبية كانت موجودة عندهم وأنهم يقيمون المحكّمين للتحديات الأدبية فما الذي صَرَفهم جميعاً عن هذا التحدي القاسي لولا أنهم يعلمون أنهم لا يستطيعون؟

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وكان الكفارُ من أحرصِ الناس على إبطال قوله مجتهدين بكل طريق يمكن. تارة يذهبون إلى أهل الكتاب فيسألونهم عن أمور من الغيب حتى يسألوه عنها كما سألوه عن قصة يوسف وأصحاب الكهف وذي القرنين.

وتارة يجتمعون في مجمعٍ بعد مجمع على ما يقولونه فيه.. فتارة يقولون: مجنون، وتارة يقولون: ساحر، وتارة يقولون: كاهن، وتارة يقولون: شاعر... فإذا كان قد تحداهم بالمعارضة مرة بعد مرة وهي تبطل دعوته فمعلوم أنهم لو كانوا قادرين عليها لفعلوها»(١).

وجاء في كتاب «تثبيت دلائل النبوة» للهمذاني في قوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء]: «وفي هذا إخبارٌ عن غيوب كثيرة لأنه قال لكل واحد من الجن والإنس إنك لا تأتي بمثل هذا القرآن ولا أحد يأتي بمثله في كل حال منفردين ولا مجتمعين فما أتوا به مع حاجتهم إلى ذلك وشدة حرصهم عليه أفمن هذا تعجب؟ أم من إقدامه على الإخبار بذلك وهو لا يعرف العرب كلها ولا يحصي قبائلها ورجالها ونساءها، والفصاحةُ والبلاغة مثبوتة في رجالها ونسائها وعبيدها وإمائها وعقلائها ومجانينها... فلولا أنه قد تَيقَّنَ أنهم لا يأتون بذلك لما أقدم على الإخبار بذلك»(٢).

ومن الثابت أن القرآن الكريم كان يأخذهم بروعة بيانه وأنهم لا يملكون أنفسهم عن سماعه ولذلك حاولوا أن يحولوا بين القرآن وأسماع الناس، حاولوا أن لا يصل إلى الأذن لأنهم يعلمون أن مجرد وصوله إلى السمع يُحْدِثُ في النفس دويّاً هائلاً وهزَّةً عنيفة. وحكى الله عنهم هذا الأسلوب فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [فصلت].

وهكذا كانت الحرب الأولى أن يَحُولُوا بين القرآن وأسماع الناس ولكن أنّى لهم هذا؟ فقد كان القرآن الكريم يستهوي الأسماع ويأخذ باللب على الرغم من التحذيرات بل ربما كانت التحذيرات داعياً قوياً إلى سماعه.

---

(١) الجواب الصحيح ٤/ ٧٣-٧٤.

(٢) تثبيت دلائل النبوة ١/ ٨٥-٨٦.

وكان صناديدُ قريش وأعتاهم محاربة للرسول وأشدهم كيداً له ونيلاً منه لا يملكون أنفسهم عن سماعه فقد كان كلٌّ من أبي جهل وأبي سفيان والأخنس بن شريق يأخذُ نفسه خِلْسةً لسماعه في الليل والرسول في بيته لا يعلم بمكانهم ولا يعلم أحد منهم بمكان صاحبه حتى إذا طلع الفجر تفرقوا حتى إذا جمعتهم الطريق تلاوموا وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا فلو رآكم بعضُ سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً. ثم انصرفوا، حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا وجمعتهم الطريق فقال بعضهم لبعض مثل ما قال أول مرة ثم انصرفوا، حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل مجلسه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعتهم الطريق فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهدَ لا نعود فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا[١].

وقد أخبر الله نبيه بهذا الأمر فقال: ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ﴾ [الإسراء].

وقد شهد بحلاوة التعبير القرآني وعذوبته الوليد بن المغيرة وهو من صناديد قريش وعتاتهم حين اجتمع إليه نفر من قريش لِيُجْمِعُوا على رأي واحد يصدرون عنه يقولونه للناس في الموسم فقال بعضهم: شاعر، وقال بعضهم: كاهن، وقال بعضهم: ساحر، وقال بعضهم: مجنون، فكان يرد هذه الأقوال ويفندها ثم قال: والله إن لقوله لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإنه ليعلو وما يعلى عليه، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عُرفَ أنه باطل وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا: ساحر جاء بقولٍ هو سحر يفرق بين المرء وأخيه وبين المرء وزوجته وبين المرء وعشيرته فتفرقوا عنه بذلك فأنزل الله تعالى في الوليد بن المغيرة: ﴿ ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [المدثر][٢].

وجاء عن ابن عباس أنه قال: دخل الوليد بن المغيرة على أبي بكر بن أبي قحافة

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٤٤، سيرة ابن هشام ١/ ٢٠٧-٢٠٨.

(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ٤٤٢-٤٤٣، سيرة ابن هشام ١/ ١٧٤-١٧٥.

فسأله عن القرآن فلما أخبره خرج على قريش فقال: «يا عجباً لما يقولُ ابنُ أبي كبشة - يعني رسول الله ﷺ - فوالله ما هو بشِعر ولا بسِحر ولا بهذي الجنون وإن قوله لمن كلام الله»[1].

والتعبير القرآني أعذبُ كلامٍ وأجمله، وإليك أمثلة توضح طرفاً من جماله:

١- قوله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾ [الكهف].

وهذه الآيات من قصة موسى والرجل الصالح وكان من خبرهما أنهما ركبا في سفينة فخرقها الخضر فاعترضه موسى، ولقيا غلاماً فقتله فاعترضه موسى، ودخلا قريةً طلبا من أهلها طعاماً فلم يُضَيِّفهما أحدٌ فيها فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقضّ فأقامه وبناه فاعترضه موسى. وقبل أن يفترقا بَيَّنَ الخضرُ لموسى الحكمة من هذه الأفعال بما مر من الآيات القرآنية.

فأنتَ ترى أنه حين حكى على السفينة قال: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ﴿٧٩﴾﴾ فأسند العيب إلى نفسه وأنه حين حكى على الغلام قال: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا ﴿٨١﴾﴾ فأسند الإرادة إلى الضمير المشترك. وحين حكى على الجدار قال: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ ﴿٨٢﴾﴾ فأسند الإرادة إلى الله.

ثم قال في عقب ذلك كله: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ﴿٨٢﴾﴾ علماً بأنه هو الذي باشر الأعمال بنفسه فالسفينة هو الذي خرقها ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ ﴿٧١﴾﴾ [الكهف]، والغلام هو الذي قتله ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ ﴿٧٤﴾﴾ [الكهف]، والجدار هو الذي أقامه ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ ﴿٧٧﴾﴾ [الكهف].

فما سر هذا الاختلاف في التعبير؟

السر في ذلك بديع وهو أنه حين قال: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ﴿٧٩﴾﴾ [الكهف] أراد أن يُنزِّه الله

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٤٤٢-٤٤٣.

تعالى عن العيب فأسنده إلى نفسه(١)، وهذا في القرآن كثير فإن التعبيرَ القرآني ينزه الله تعالى عن العيوب وإرادة الشر ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ [الجن] ففي الشر قال: ﴿أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾، وفي الخير والرشد قال: ﴿أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ﴾. ونحوه قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ ﴿١٤﴾﴾ [آل عمران] وقال في مكان آخر: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمْ ﴿٧﴾﴾ [الحجرات] ففي حب الشهوات قال ﴿زُيِّنَ﴾ وفي تحبيب الإيمان وتزيينه قال: ﴿ولكن الله حبب...﴾.

ونحوه قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ [الشعراء] فنرى أنه في مقام تعداد النعم أسندها كلها إلى الله فقال: خلقني، يهدينِ، يطعمني، يسقينِ، ولكنه أسند المرض إلى نفسه فقال (مرضت) ولم يقل (يُمرضني) ثم أسند الشفاء إلى الله فقال ﴿فهو يشفينِ﴾.

ومنه ما جاء في القرآن في أهل الكتاب فإنه حين يقول ﴿ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ ﴿١٢١﴾﴾ [البقرة] بإسناده إليه يكون ذلك في مقام المدح لهم فإذا أراد ذمهم قال: ﴿أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ﴿١٠١﴾﴾ [البقرة] ببناء الفعل للمجهول وذلك نحو قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ﴿١٢١﴾﴾ [البقرة]، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ﴿١٤٦﴾﴾ [البقرة]، وقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأنعام]، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ﴿١١٤﴾﴾ [الأنعام]، وقوله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴿٣٢﴾﴾ [فاطر].

ولكنه قال: ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ ﴿١٠١﴾﴾ [البقرة]، وقال: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾﴾ [الشورى]، وقال: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ﴿٥﴾﴾ [الجمعة]، وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [آل عمران].

وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾﴾

---

(١) انظر: بدائع الفوائد ٢/١٨-١٩، التفسير القيم ١٢-١٣، ٥٥٥-٥٥٦.

[النساء].

وقال: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ ﴾ [النساء].

وقال: ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ﴿١٩﴾ ﴾ [آل عمران] وهذا باب واسع في القرآن.

ونعود إلى قصة الخضر وموسى فنرى أنه في قصة قتل الغلام يأتي بالضمير المشترك قال: ﴿ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ ﴾ [الكهف] وذلك لأن الأمر فيه اشتراك الخير والشر وهما قتل الغلام وهو شر في ظاهر الأمر، وإبدال خير منه وهو حسن فاشترك الضمير كما اشترك الفعل، ثم انظر إلى قوله: ﴿أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ﴾ فأسند الإبدال إلى الله وحده لأنه خير محض.

وأما إقامة الجدار فهو عملٌ خيرٌ فأسنده إلى الله وحده فقال: ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ ﴿٨٢﴾ ﴾ وعقَّب عليها جميعها بقوله: ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ﴿٨٢﴾ ﴾ [الكهف].

ونحو هذا التعبير قوله تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴿٧﴾ ﴾ [الفاتحة] ففي النعمة أظهر الباري نفسه لأن النعم إنما تكون من الله ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴿٥٣﴾ ﴾ [النحل] ولأن فيه تكريماً للمنعم عليهم وفي الغضب قال: ﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴿٧﴾ ﴾ [الفاتحة] ولم يظهر صاحب الغضب فكأن هؤلاء مغضوب عليهم في هذا الوجود من كل جانب لا من جانب واحد(١) والله أعلم.

٢- قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ ﴾ [الكهف].

وهذه الآية قالها ربنا في السد الذي صنعه ذو القرنين من قطع الحديد والنحاس المذاب، قال تعالى على لسان ذي القرنين: ﴿ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ ﴾ [الكهف].

فقال: ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا أَن يَظْهَرُوهُ﴾ أي: يصعدوا عليه، ثم قال: ﴿ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا لَهُۥ نَقْبًا﴾.

---

(١) انظر: التفسير القيم ١٢ وما بعدها.

وذلك أنه لما كان صعودُ السد الذي هو من قطع الحديد والنحاس المذاب أيسر من نقبه وأخف عملاً خَفَّفَ الفعلَ للعمل الخفيف فحذف التاء فقال: ﴿ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ﴾ وطوّل الفعل فجاء بأكثر بناء له للعمل الثقيل الطويل فقال ﴿وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا﴾ فحذف التاء في الصعود وجاء بها في النقب، وهو تعبير طريف بديع.

ومثله قوله تعالى في هذه السورة في قصة موسى والخضر أنه حين التقى به قال له الخضر: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾﴾ [الكهف] ولكنه قال له في الأخير ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾ [الكهف] فإن موسى لما كان متعجلاً في الاعتراض على كلِّ فِعْلٍ يقوم به الخضر ولم يصبر عجّل له الخضر الفعل فحذف التاء وأراد صرفه فقال (تسطع) بخلاف أول اللقاء فإنه لا يليق ذاك.

٣- قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ ﴿٣١﴾﴾ [الإسراء].

وقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ ﴿١٥١﴾﴾ [الأنعام].

فجعل الرزق في الآية الأولى للأولاد أولاً ثم للآباء، وفي الآية الثانية جعله للآباء أولاً ثم للأولاد، وفي ذلك سر بديع، ففي الآية الأولى أنهم يقتلون أولادهم خشيةَ الفقر لا أنهم مفتقرون في الحال فقال: لا تقتلوهم فإنا نرزقهم وإياكم، أي إن الله جعل لهم رزقهم فهم لا يشاركونكم في رزقكم فلا تخشوا الفقر. وأما في الآية الثانية فهم يقتلون أولادهم من الفقر الواقع بهم لا أنهم يخشونه فهم في حاجة إلى الرزق الآني السريع ليعولوا أولادهم فعجل لهم ذاك فقال: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ﴾[1].

ونحوه ما جاء في سورة الأعراف: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ ﴿٤٤﴾﴾ [الأعراف].

ولم يقل (ما وعدكم) بمقابل ﴿مَا وَعَدَنَا﴾ وذلك لأن الكفار كانوا ينكرون اليومَ الآخر جملة وتفصيلاً ولا ينكرون ما وعدهم به فقط فكأنه قال: هل وجدتم وعدَ ربكم حقاً؟ بخلاف المؤمنين فإنهم كانوا ينتظرون ما وعدهم ربهم من الخير والكرامة فقال: ﴿وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا ﴿٤٤﴾﴾ [الأعراف][2].

---

(١) انظر: بديع القرآن ٢٦١، تحرير الحبير ٥٦١.

(٢) انظر: الكشاف ١/٥٤٩.

٤- قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ أَمۡ أَنتُمۡ صَٰمِتُونَ ۝١٩٣﴾ [الأعراف].

ولم يقل أدعوتموهم أم صَمَتُّم فجاء بقوله ﴿صَٰمِتُونَ﴾ على صيغة اسم الفاعل وذلك لأن الاسم يدل على الثبوت والفعلُ يدل على الحدوث والتجدد، نقول: هو يحفظ وهو حافظ، فمعنى (يحفظ) أنه يفعل ذاك ومعنى (حافظ) أنه مُتَّصفٌ بهذا الأمر وثابت له. ومثله هو يطّلع وهو مُطَّلع وهو يخطب وهو خطيب.

فالفعل يدل على الحدوث والتجدّد والاسم يدل على الثبوت.

فإننا نرى أنه في الآية جعل الصمتَ بصيغته الاسمية والكلام بصيغته الفعلية وذلك لأن الأصل في الإنسان أن يكون صامتاً ولا يتكلم إلا لحاجة تَعرضُ له. فالإنسان صامت إذا مشى وإذا جلس وإذا نام فإن عَرَضَ له شيء تكلم. فالصمتُ هو الحالة الثابتة للإنسان فكأنه قال: أدعوتموهم أم بقيتم على صمتكم(١).

وشبيه به قوله تعالى في المنافقين: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ۝١٤﴾ [البقرة].

فلما رأى المنافقون أهل الإيمان قالوا ﴿ءَامَنَّا﴾ بصيغته الفعلية الدالة على التجدد والحدوث وإذا لقوا أصحابهم أظهروا ما في أنفسهم من الكفر وظهرت نفوسهم على سجيتها فقالوا: ﴿إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ﴾ فجاء به جملة اسمية مؤكدة بأن فخالف بين التعبيرين لاختلاف الحالين(٢).

٥- قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا ٱدۡخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ فَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ رَغَدٗا وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُولُواْ حِطَّةٞ نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡۚ وَسَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٥٨ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَنزَلۡنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ۝٥٩ ۞وَإِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ فَقُلۡنَا ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنفَجَرَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۖ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ مِن رِّزۡقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ۝٦٠﴾.

وقوله في سورة الأعراف: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ قَوۡمُهُۥٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ

---

(١) انظر: الكشاف ١/ ٥٩٢.

(٢) انظر: الكشاف ١/ ١٤٢.

ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۚ وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡغَمَٰمَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمُ
ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿١٦٠﴾
وَإِذۡ قِيلَ لَهُمُ ٱسۡكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ وَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ وَقُولُواْ حِطَّةٞ وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا نَّغۡفِرۡ
لَكُمۡ خَطِيٓـَٰٔتِكُمۡۚ سَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ
فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾.

فانظر إلى الفرق بين التعبيرين مع أن الموضوع واحد:

البقرة	الأعراف
﴿وإذ قلنا﴾	﴿وإذ قيل لهم﴾
﴿ادخلوا﴾	﴿اسكنوا﴾
﴿فكلوا﴾	﴿وكلوا﴾
﴿رغداً﴾	—
﴿وادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة﴾	﴿وقولوا حطة. وادخلوا الباب سجداً﴾
﴿نغفر لكم خطاياكم﴾	﴿نغفر لكم خطيئاتكم﴾
﴿وسنزيد﴾	﴿سنزيد﴾
﴿فبدل الذين ظلموا قولاً﴾	﴿فبدل الذين ظلموا منهم قولاً﴾
﴿فأنزلنا﴾	﴿فأرسلنا﴾
﴿على الذين ظلموا﴾	﴿عليهم﴾
﴿يفسقون﴾	﴿يظلمون﴾
﴿وإذ استسقى موسى لقومه﴾	﴿إذ استسقاه قومه﴾
﴿فقلنا اضرب﴾	﴿وأوحينا إلى موسى... أن اضرب﴾
﴿فانفجرت﴾	﴿فانبجست﴾

فما سر هذا التغيير؟

إن سر التغيير يتضح من الاطِّلاع على سياق الآيات في السورتين، فسياق هذه الآيات في سورة البقرة هو تَعدادُ النعم التي أنعمها الله على بني إسرائيل ويبدأ الكلام معهم بقوله: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٧﴾ [البقرة].

ثم يأخذ بسردِ النعم عليهم ويُذكّرهم بها.

أما في سورة الأعراف فالمقامُ مقامُ تقريعٍ لبني إسرائيل وتأنيب فإن بني إسرائيل قوم لا يتعظون فإنهم بعد ما أنجاهم من البحر وأغرق آل فرعون طلبوا من موسى أن يجعل لهم أصناماً يعبدونها، وعندما ذهب موسى لميقات ربه عبدوا العجل، وإنهم كانوا ينتهكون محارم الله فقد طلب الله منهم أن يُعظِّموا حرمة السبت فانتهكوها وأخذوا يصطادون الحيتان فيه إلى غير ذلك.

فالفرق واضح بين السياقين فناسبَ بين كلِّ تعبيرٍ والمقامِ الذي ورد فيه، وانظر إلى توضيح ذلك.

قال تعالى في سورة البقرة ﴿وإذ قلنا﴾ فأسند الربُّ القولَ إلى نفسه وهو تشريف وتكريم كما مر بنا سابقاً، وفي سورة الأعراف ﴿وإذ قيل لهم﴾ فبنى القول للمجهول ولم يظهر الرب نفسه لأنهم هنا لا يستحقون هذا التشريفَ وهو نحو قوله تعالى: ﴿آتيناهم الكتاب﴾ و﴿أوتوا الكتاب﴾.

وقال في سورة البقرة: ﴿ادخلوا هذه القرية فكلوا﴾ أي إن الأكل يكون عقب الدخول لأن الفاء تفيد التعقيب أي بمجرد دخولكم تأكلون توّاً. وأما في سورة الأعراف فقال: ﴿اسكنوا هذه القرية وكلوا﴾ فالأكل لا يكون إلا بعد السكن والاستقرار وليس بعد الدخول.

ثم لاحظ الفرق أيضاً فقد قال في سورة البقرة ﴿فكلوا﴾ أي إن الأكل يكون بعد الدخول تواً ولم يأتِ بالفاء في الأعراف وإنما جاء بالواو ليفيد أنه ليس هناك من تعقيب وأن الأكل سيحصل مع السكن ليس موقوتاً بزمن. وفرق كبير بين الأمرين فهما كما تقول لشخص: أنت بمجرد دخولك يَجيئُكَ الأكلُ تواً. أو تقول له: اذهب واسكن وإن الأكل يأتيك (غير محدد بزمن).

وقال في سورة البقرة، على القولِ فقال: ﴿وادخلوا الباب سُجَّداً وقولوا حطة﴾

لسببين والله أعلم:

الأول: لأن السجود أشرف من القول لأنه أقرب ما يكونُ العبدُ من ربه وهو ساجدٌ فناسب مقام التكريم.

الثاني: لأن السياق يقتضي ذلك فقد جاءت هذه القصة في عقب الأمر بالصلاة، قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ . . . وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴿٤٧﴾﴾ [البقرة].

فناسب ههنا تقديم السجود لاتصاله بالصلاة والركوع، وكلا الأمرين مرفوع في سورة الأعراف فأخَّر السجود.

وقال في سورة البقرة: ﴿نغفر لكم خطاياكم﴾ بجمعِ الكثرة لأن الخطايا جمع كثرة وهو مناسب لمقام تعداد النعم والتكريم أي مهما كانت خطاياكم كثيرة فإنا نغفرها لكم، وقال في سورة الأعراف ﴿خطيئاتكم﴾ بجمعِ القلة لأن الجمع السالم يفيد القلة أي يغفر لهم خطيئات قليلة وهو مناسب لمقام التقريع والتأنيب.

وقال في سورة البقرة ﴿وسنزيد﴾ فجاء بالواو الدالة على الاهتمام والتنويع ولم يجيء بها في سورة الأعراف والسبب واضح.

أي ليسوا جميعاً على هذه الشاكلة من السوء فناسب هذا التبعيض التبعيض في الآية السابقة.

وقال في سورة البقرة ﴿فأنزلنا﴾ وقال في سورة الأعراف ﴿فأرسلنا﴾ ذلك لأن الإرسال أشدّ في العقوبة من الإنزال، قال تعالى في أصحاب الفيل ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾ [الفيل]. وكل منهما يناسب موطنه.

وقال في سورة البقرة ﴿على الذين ظلموا﴾ وقال في سورة الأعراف ﴿عليهم﴾ وهو أَعَمُّ من الأول، أي أن العقوبة أعم وأشمل وهو المناسب لمقام التقريع.

وقال في سورة البقرة ﴿بما كانوا يفسقون﴾ وقال في سورة الأعراف ﴿بما كانوا

يظلمون﴾ لأن الظلم أشد من الفسق وهو المناسب لـ«إرسال» العذاب فذكر في كل سياق ما يناسبه.

وقال في سورة البقرة ﴿وإذ استسقى موسى قومه﴾ فموسى ههنا هو الذي استسقى رَبَّهُ لقومِهِ، وقال في سورة الأعراف ﴿إذ استسقاه قومه﴾ أي إن قوم موسى استسقوا موسى والحالة الأولى أكمل وأبلغ في النعمة.

وقال في سورة البقرة ﴿فقلنا اضرب﴾ وقال في سورة الأعراف ﴿وأوحينا إلى موسى.. أن اضرب﴾ فإن القول المباشر من الله أكمل وأشرف من الإيحاء.

وقال في سورة البقرة ﴿فانفجرت﴾ وقال في سورة الأعراف ﴿فانبجست﴾ وثمة فرق بين الانفجار والانبجاس فإن الانفجار للماء الكثير، والانبجاس للماء القليل، وكلٌّ تعبيرٌ يناسبُ موطنه. فإن المقام في سورة البقرة مقام تعداد النعم كما ذكرنا. هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية أن موسى هو الذي استسقى ربه فناسب إجابته بانفجار الماء. ومن ناحية ثالثة أن الله قال لموسى اضرب بعصاك الحجر ولم يُوحِ إليه وحياً فناسب ذلك انفجار الماء الكثير الغزير، بخلاف ما ورد في سورة الأعراف فجاء بالانبجاس[1]، والله أعلم.

وقيل: إن الماء أول ما انفجر كان كثيراً ثم قَلَّ بعصيانهم فعبَّرَ في مقام المدح بالانفجار وفي حالة الذم بالانبجاس.

وهذا تعبير - كما ترى - في غاية الدقة والجمال.

وليس جمال التعبير القرآني منحصراً في هذا المجال بل هذا باب ضيق من أبواب الجمال. ولسنا الآن بصدد تبيين محاسن التعبير القرآني فإنه باب يطول ويتسع ولعل الله يُيَسِّر لنا إخراج شيء من ذلك في قابل الأيام. ولكن هذه أمثلة ذكرناها لتبيينِ طرفٍ من جمال التعبير القرآني يقوم على إبدال لفظة مكان لفظة أو تعبير مكان تعبير. أما التصوير الفني والتقديم والتأخير والاختيار العلمي والأدبي للفظةٍ على أختها والذِّكْرِ والحذفِ وغير ذلك من أبواب البلاغة والأدب فهو أمر يطول ويطول.

---

(١) انظر: معترك الأقران في إعجاز القرآن ١/ ٨٧-٨٨.

الإعجاز العلمي:

القرآن ليس كتاباً في علم من العلوم وإنْ كانت فيه مسائل علمية في غاية الدقة. وليس من الصحيح محاولة تفسير القرآن بالأمور العلمية غير الثابتة فإن العلم يتطور ويتجدد، والنظريات العلمية عُرضة للتغيير والنقص، فماذا يكون نصيب التفسير القرآني عند ذاك؟

ولكن إذا ثبت شيءٌ من الحقائق العلمية التي لا تقبلُ النقضَ وكان في القرآن ما يؤيدها أو يقررها فلا بأس أن نقول إن هذا يوافق ما في القرآن الكريم، وهو إعجاز علمي. ولنذكر على سبيل المثال بضعة أمثلة من أمثلة الإعجاز العلمي بصورة مختصرة:

١- **ما ذكره الله في تكوين الجنين في الرحم وذكر أطواره** من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى غير ذلك من الأطوار مما لا يمكن الاطلاعُ عليه ولا معرفته آنذاك، ولم يُعرفْ أمره إلا بعد ظهور علم التشريح والتصوير الشعاعي.

وثبت أن ما اكتُشف في ذلك وانتُهي إليه موافقٌ لما في القرآن الكريم فدلَّ ذلك على أن القرآن لا يمكن أن يكون من صنع رجل أمي عاش في بيئة بدوية قبل أكثر من ألف وأربعمائة سنة وإنما هو قطعاً من عند الله خالق البشر.

٢- **الضغط الجوي**: قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ ﴿١٢٥﴾﴾ [الأنعام] وهذه الظاهرة التي ذكرها القرآن وهي ظاهرة ضيق التنفس في الطبقات العليا في الجو لم تُكتشفْ إلا بعد اختراع الطائرات والبالونات، وهي ظاهرة تحصل نتيجة لاختلال الضغط الخارجي وزيادة الضغط الداخلي.

ولا يمكن الوصول إلى معرفة هذا الشيء لولا الطيران، فذكرُ القرآنِ لهذه الظاهرة قبلَ اختراع الطيران بقرونٍ كثيرة يدلنا بصورة قاطعة على أن القرآن لا يمكن أن يكون كلامَ بشر وإنما هو كلامُ الله خالق الكون ومبدع السماء والأرض.

٣- **تمدد الكون وتوسعه**: قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الذاريات].

يثبت القرآن تَوسُّعَ الكون وتَمدُّده بصورةٍ مستمرة وليس الكون ذا سَعةٍ ثابتة - كما يذكر القرآن - وهذا أمر عجيب إذ لم يكن يخطر على بال بشر أن الكون يتّسع بصورة مستمرة حتى أثبت العلم الحديث هذا الأمر. فإن الكواكب السديمية تبتعد بصورة مستمرة عن بعضها ويحدث تبعاً لهذا توسع في المجال الفضائي بصورة مستمرة، وهذا إنجاز علمي عظيم، جاء في (الظاهرة القرآنية): «وهكذا يبدو الفضاء في نظر القرآن وكأنه لا ينتهي وكأنه يزداد على الدوام. هذه الفكرة التي أصبحت الآن علمية هي التي هالت انشتاين نفسه عندما اكتشف عالم الطبيعة هابل Huble أن الكواكب السديمية تبتعد عن سديمنا واستنبط عالم الرياضة البلجيكي القسيس لومتر Lemaitre من ذلك نظرية امتداد الكون.

وهل يستطيع أحد أن يقول بأن معالم كهذه قد انبثقت من عقل أمي؟»[(١)].

٤- **انفصال الأرض عن السماء**: قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنبياء].

فالقرآن يخبر أن السماوات والأرض كانتا رتقاً أي كانت كتلة واحدة ففتقها ربها وخالقها. وهذا يتفق مع أحدث الآراء العلمية الحديثة ولا تزال الأبحاث العلمية تؤيد هذا المذهب بصورة مستمرة. وهو إنجاز علمي آخر.

٥- **كروية الأرض**: قال تعالى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ ﴿٥﴾﴾ [الزمر] وتكويرهما يقتضي تكوير ما تحتهما. ولا يظن ظانّ أننا ذهبنا إلى هذا الرأي في تفسير الآية بعد إثبات كروية الأرض في العصر الحديث، فقد استدل بذلك علماء المسلمين قبل زهاء ألف عام.

قال الإمام ابن حزم المتوفى سنة ٤٥٦هـ في كتابه «الفصل في الملل» في بحث كروية الأرض: «بل البراهين من القرآن والسنة قد جاءت بتكويرها، قال الله عز وجل: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ﴾ وهذا أوضح بيان في تكوير بعضها على بعض مأخوذ من كور العمامة وهو إدارتها. وهذا نص على تكوير الأرض»[(٢)]. وهو

---

(١) الظاهرة القرآنية ٢٩٢-٢٩٣.

(٢) الفصل في الملل ٢/٩٥.

تفسير علمي طريف حقاً.

٦- **حركة الأرض**: قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النمل].

فهذا فيما نرى نَصٌّ على حركة الأرض، وقد يقول قائل: إن المقصود بهذا التسيير هو تسييرها يوم القيامة. ولكن قوله: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ يأبى هذا التفسير فيما نرى. فإنّ قوله ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ يقصد بها خلقها وحالتها الطبيعية وليس المقصود صنعها يوم القيامة. فإنه في يوم القيامة يتغير نظام الكون فتتساقط الكواكب وتكوّر الشمس وتُزلزل الأرض وتتفجر البحار فلا يناسب هذا القول والله أعلم.

القصص القرآني:

القصص القرآني على قسمين:

قسم لا يعرفه أهل الكتاب ولم يُذكر في كتبهم كقصة هود وصالح وشعيب وما حصل لهم مع أقوامهم قومِ عادٍ وثمود وغيرهم.

وهم في الغالب يقفون منه موقف المنكر له. وقد أنكر وجود هذه الأقوام قسم ممن تَسَمَّى بالعلم وانتسب إليه من المستشرقين وغيرهم، ومن أقطاب هؤلاء المستشرقين «من أنكر عاداً وثمود وأنكر الكوارث التي أصابتهم بغير حجة إلا أنه يحسب أن المنكِرَ لا يُطالبُ بحجةٍ ولا يُعابُ على النفي الجزاف. فما لبثوا طويلاً حين تبين لهم أن عاداً Oadita وثمود Thamudida مذكورتان في تاريخ بطليموس وأن اسم عاد مقرون باسم إرم في كتب اليونان فهم يكتبونها «ادراميت Adramitae ويؤيدون تسمية القرآن لها بعاد إرم ذات العماد. وعثر المنقب موزيل التشيكي Musil[١] صاحب كتاب الحجاز الشمالي على آثار هيكل عند مدين منقوش عليه كلام بالنبطية واليونانية وفيه إشارة إلى قبائل ثمود»[٢].

والقسم الآخر من القصص القرآني ما هو مذكور في كتبهم كقصة خلق آدم من تراب

---

(١) Nor thern Hejaz by Musil.

(٢) مطلع النور لعباس محمود العقاد ٧٤.

ووضعه في جنة عدن وإخراجه منها، وقصة نوح والطوفان وقصة إبراهيم ولوط وإهلاك قومه، وقصة يعقوب ويوسف وموسى وأيام بني إسرائيل بالتفصيل كاستعباد فرعون لهم وتقتيل ذكورهم وولادة موسى وقتله المصري وهروبه إلى مدين وزواجه بنت شعيب ثم اصطفاء موسى لإرساله إلى فرعون وتأييده بالمعجزات وما حصل له مع السحرة وخروج موسى ببني إسرائيل وإيباس طريقٍ لهم وسط البحر ومناجاة الرب لموسى وفتنة بني إسرائيل في عبادتهم العجل وتيههم أربعين سنة، وضرب الحجر وانفجار الماء منه وسؤالهم القثَّاء والبصل ونحوها.

وغير ذلك من الأيام في زمن داود وسليمان وغيرهما من الأنبياء والأحداث بتفصيلٍ دقيق مما لم يكن يعلمه الرسول ﷺ ولا قومه قبل أن ينزل في القرآن وقد ذكر القرآن هذا الأمر فقال في عقب قصة نوح ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [هود].

وقال في عقب قصة يوسف التي ذكرها بالتفصيل ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [يوسف]، وقال: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [القصص].

وقال بعد أن ذكر نَذْر امرأة عمران وولادة مريم ونشأتها ودعوة زكريا وتبشيره بيحيى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [آل عمران].

فهذه القصص كما أخبر القرآن لم يكن يعلمها محمد ولا قومه، فمن أخبره إذن بها إن لم يكن يعلمها هو ولا قومه كما يذكر القرآن، والقرآن أصدق وثيقة تاريخية للمجتمع العربي آنذاك؟ مَنْ أعلمه بهذه القصص والأخبار وهو لم يتعلمها من أحد؟

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ﴿٤٩﴾﴾ [هود] «فذكر سبحانه أن هذا الذي أوحاه إليه من أنباء الغيب ما كان يعلمه هو ولا قومه من قبل هذا.

فإذا لم يكن قومه يعلمون ذلك لا من أهل الكتاب ولا من غيرهم وهو لم يعاشر إلا قومه، وقومه يعلمون ذلك منه ويعلمون أنهم لم يكونوا يعلمون ذلك ويعلمون أيضاً أنه هو لم يكن تعلم ذلك وأنه لم يكن يعاشر غيرهم وهم لا يعلمون ذلك صار هذا حجة على قومه وعلى من بلغه خبر قومه»(١).

وقال: «وأخبرهم عن قصة الخليل وما جرى له مع قومه وإلقائه في النار... وغير ذلك من قصص الأنبياء والصالحين والكفار مفصَّلة مبينة بأحسن بيان وأتم معرفة مع علم قومه الذين يعرفون أحواله من صغره إلى أن ادّعى النبوة أنه لم يتعلم هذا من بشر بل لم يجتمع هو بأحد من البشر يعرف ذلك ولا كان عندهم بمكة مَنْ يعرف ذلك لا يهودي ولا نصراني ولا غيرهم. كان هذا من عظيم الآيات والبراهين لقومه بأن هذا إنما أعلمه به وأنبأه به الله...

ثم سائر أهل الأرض يعلمون أنه لم يتعلم ذلك من بشر من طرق:

أحدها: أن قومه المعادين له الذين هم من أحرص الناس على القدح في نبوته مع كمال علمهم لو علموا أنه تعلم ذلك من بشر لطعنوا عليه بذلك وأظهروه. فإنهم - مع علمهم بحاله - يمتنع أن لا يعلموا ذلك لو كان، ومع حرصهم على القدح فيه يمتنع أن لا يقدحوا فيه ويمتنع أن لا يظهر ذلك.

الثاني: أنه قد تواتر عن قومه أنهم كانوا يقولون: إنه لم يكن يجتمع به من يعلمه ذلك.

الثالث: أنه لو كانت هذه القصص المتنوعة قد تعلمها من أهل الكتاب مع عداوته لهم لكانوا يخبرون بذلك ويظهرونه. ولو أظهروا لَنُقِلَ ذلك وعُرِفَ فإن هذا من الحوادث التي تتوفر الهمم والدواعي على نقلها»(٢).

وقال الفخر الرازي: «إن هذه القصص دالة على نبوة محمد عليه الصلاة والسلام أنه عليه السلام كان أمياً وما طالع كتاباً ولا تلمذ أستاذاً فإذا ذكر هذه القصص على الوجه من غير تحريف ولا خطأ دلَّ ذلك على أنه إنما كان عرفها بالوحي من الله وذلك يدل

---

(١) الجواب الصحيح ٤/ ٣٤.

(٢) الجواب الصحيح ٤/ ٢٤-٢٥، وانظر ٣/ ٢٦١.

على صحة نبوته»[1].

وقد ذكر القرآن الكريم أن بعض قومه ادعى أن بَشَراً يعلمه فقال: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النحل].

وقد رد القرآن هذا القول رداً كافياً فقال: إن لسان هذا الشخص الذي يذكرونه أعجمي وهذا لسان عربي معجز، ولم يعقبوا على هذا الرد فاتضح أن هذا الرد كان كافياً. ومن أيسر ما يُردُّ به هذا القولُ أن الرسول كان يُسأل في مجالس متعددة وأماكن كثيرة وكان يسأل في الطرقات في مكة والمدينة ثم ينزل عليه الوحي في الحال فأين كان هذا الذي يعلمه؟

وقد ذكر القرآن أن هذا الذي يسرده من القصص والأخبار لم يكن يعلمه هو ولا قومه فلماذا لم يقولوا نحن سمعناه من فلان أو فلان؟

فاتضح أن هذا القول إنما هو من قبيل المكابرات كقولهم: هو ساحرٌ أو كاهن أو مجنون ونحو ذلك وهم يعلمون أن هذا غير صحيح.

وقد كان أحبار اليهود في المدينة يسألونه سؤالات مختلفة مما لم يكنْ يعلمها أحد غيرهم فكان يجيبهم عن سؤالاتهم جميعاً، وأسلم عن طريق هذه السؤالات كبيرُ أحبارهم عبد الله بن سلام وآخرون، وقد أشار القرآن إلى ذلك فقال: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٩٧﴾﴾ [الشعراء]، وقال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [الأحقاف]، وقال: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [القصص].

ويذكر القرآن أن جماعة من القسيسين والرهبان سمعوا القرآن فبكوا وآمنوا قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا

(١) تفسير الرازي ١٤/١٤٦.

ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ [المائدة].

ويذكر القرآن أن قسماً من أهل الكتاب مَنْ أبقاه العناد والمكابرة مُصِرّاً على كفره مع علمه بأن محمداً نبي يُوحى إليه فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [البقرة].

ومن غريب المكابرات أنهم سألوه: مَنْ وَلِيُّكَ من الملائكة؟ فأجابهم: إن وليي جبريل، فقالوا له: لو كان وليك سواه من الملائكة لتابعناك وصدقناك ولكن جبريل عَدُوُّنا فأنزلَ الله تعالى: ﴿قُلۡ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّجِبۡرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [البقرة].

قال الطبري: «أجمع أهل العلم بالتأويل جميعاً على أن هذه الآية نزلت جواباً لليهود من بني إسرائيل إذ زعموا أن جبريل عدو لهم وأن ميكائيل وليٌّ لهم»[1].

وسبب ذلك أن جماعة من اليهود جاؤوا يسألون رسول الله ﷺ عن أمور لا يعلمهن إلا نبي. فأخذ منهم عهدَ الله وميثاقه أنه إذا أجابهم لَيُتابِعُنَّهُ على الإسلام فأجابوا إلى ذلك. فقال لهم: سلوني عما شئتم.

وسألوه عما أرادوا فأجابهم عنها كلها، وكانوا يصدّقونه فيما يقول، وكان ﷺ يقول: اللهم اشهد.

ثم قالوا له: أنت الآن تحدثنا عن وليك من الملائكة؟ فعندها نتابعك أو نفارقك.

قال: فإن وليي جبريل ولم يبعث الله نبياً قط إلا وهو وليه.

قالوا: فعندها نفارقك. لو كان وَلِيُّكَ سواه من الملائكة تابعناك وصدقناك.

قال: فما يمنعكم أن تصدقوه؟ قالوا: إنه عدونا فأنزل الله عز وجل: ﴿قُلۡ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّجِبۡرِيلَ ﴿٩٧﴾﴾ [البقرة][2].

فاتضح بذاك أن هذا القصص من أظهرِ الأدلةِ على صدق نبوته ﷺ.

---

(١) تفسير الطبري ١/ ٤٣١.

(٢) تفسير الطبري ١/ ٤٣١ وما بعدها، تفسير ابن كثير ١/ ١٢٩ وما بعدها.

ومن الجدير بالذكر أن القرآن الكريم لم يكن يسرد القصة كما جاءت في أسفار أهل الكتاب تماماً وإنما هو قد يزيد عليها أموراً يجهلها أهلُ الكتاب أو يصحح معلومات مخطئة عندهم. فمما لم يكن يعلمه أهل الكتاب ولا ذُكر في كتبهم مثلاً مسألة ابن نوح وغرقه، وإضرام النار لإحراق إبراهيم، وإيمان امرأة فرعون، وإنجاء فرعون ببدنه من الغرق، فالتوراةُ لم تذكر أن فرعون نُجِّي ببدنه من الغرق «ولكن رواية القرآن تُكملُ هذا العرضَ بتفصيل غير متوقع وهو أيضاً غير عادي أعني «النجاة البدنية» لفرعون الذي أفلت بأعجوبة من الغرق. لكن علماء الدراسات المصرية بخاصة يهاجمون الرواية الكتابية مُدَّعين أن تاريخ ملوك مصر لم يسجل اختفاء فرعون المعاصر لموسى في البحر الأحمر. ولنتأمل الآن ما ذكرته الرواية القرآنية... ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ﴿٩٢﴾﴾ [يونس]»[١].

وجسدُ فرعون هذا لا يزالُ في متحف الآثار القديمة بمصر ليكونَ لِمَنْ خَلْفَهُ آية فأيَ إعجاز هذا، يا أرباب العقول؟

ومما لم يكن يعلمه أهلُ الكتاب نَتْقُ الجبل فوق بني إسرائيل كأنه ظلة، وكلام المسيح في المهد، وإنزال المائدة من السماء، والاقتراع لكفالة مريم وتربيتها[٢] وغير ذلك.

ومن تصحيحات القرآن لمعلومات أهل الكتاب ما ذكره «أن الذي صنع العجل الذهبي الوثني ودعا بني إسرائيل لعبادته هو السامري «الشمروني» وهو من سبط يساكر بن يعقوب، والتوراة تقول في الفصل الثاني والثلاثين من سفر الخروج: إن هرون هو الذي صنع ذاك ودعاهم لعبادته. مع أن هرون نبيٌ كلمه الرب مع موسى كما تقول التوراة في (اللاويين) الإصحاح الحادي عشر والإصحاح الرابع عشر. و(العدد) الإصحاح الثاني والرابع»[٣]. فكيف يأمرهم هرون بعبادة العجل وهو نبي؟

---

(١) الظاهرة القرآنية، ٢٥٨.

(٢) الجواب الصحيح ٤/٥٤، قصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار ٤٠-٤١، ٢٣٥، الرحلة المدرسية للشيخ البلاغي، ٢٣، الوحي المحمدي، ٩٣.

(٣) انظر: الرحلة المدرسية، ٣١.

والقرآن يقول: إن هرون منعهم ونصحهم ولكنهم أصروا على فعلتهم. قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ ﴾ [طه].

وهو اللائق بمقام النبوة.

ومن ذلك قولهم أن موسى وهرون والسبعين شخصاً من شيوخ بني إسرائيل رأوا الله سبحانه وتحت رجليه شبه صنعة من العقيق الأزرق[1]. جاء في (سفر الخروج) - الإصحاح الرابع والعشرين:

«٩ ثم صعد موسى وهرون وناداب وأبيهو وسبعون من شيوخ إسرائيل. ١٠ ورأوا إله إسرائيل وتحت رجليه شبه صنعة من العقيق الأزرق الشفاف وكذات السماء في النقاوة. ١١ ولكنه لم يمد يده إلى أشراف بني إسرائيل فرأوا الله وأكلوا وشربوا».

بينما يذكر القرآن أن هذا ما كانَ ولا ينبغي أن يكون، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [البقرة].

ويذكر القرآن أن موسى سأل ربه ليريه نفسه فأخبره الرب أن هذا لا يكون قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾ [الأعراف].

وفي القرآن إعلاء لمقام الأنبياء وتنزيههم عن السقطات التي لا تليقُ بآحاد الناس والتي تلصقها تحريفات التوراة بهم والعهد القديم. من ذلك ما جاء في (سفر التكوين) الإصحاح التاسع عشر: «٣١ إنَّ بنتي لوط أَسْكرتا أباهما واضطجعتا معه فأولدهما فولدت البكر ابناً ودعت اسمه موآب، والصغيرة ولدت ابنا أيضاً أسمته بَنْ عمّي».

ومن ذلك ما جاء في (سفر التكوين) الإصحاح السابع والعشرين وفيه: أن نبيَّ الله يعقوب خدع أباه إسحاق وكذب عليه وادعى أنه ابنه (عيسو) وأخذ بركته بمكر.

ومن ذلك ما جاء في (صموئيل الثاني) الإصحاح الحادي عشر: أن نبي الله داود زنى

(١) انظر: الرحلة المدرسية، ٦٥.

بامرأة أوريّا وأنه أرسل زوجها في وجه الحرب الشديدة ليموت وبعد موت زوجها ضَمَّها داود إلى بيته وصارت له امرأة.

وأن داود احتقر كلامَ الرب وعمل الشر في عينيه (صموئيل الثاني) - الإصحاح الثاني عشر.

علماً بأن ذلك محرمٌ في التوراة بل هو من كبائر المحرمات وأن فاعله يستحق القتلَ.

جاء في (سفر التثنية) الإصحاح الثاني والعشرين: «إذا وجد رجل مضطجعاً مع امرأة زوجةِ بعلٍ يُقتلُ الإثنان الرجلُ المضطجعُ مع المرأة والمرأة فتنزع الشر من إسرائيل».

فنبيُّ الله داود على زعمهم مخالفٌ للتوراة مرتكبٌ لكبيرة يستحق عليها القتل.

وفيه أن أبشالوم بن داود زنى بسراري أبيه أمام جميع إسرائيل على السطح (صموئيل الثاني - الإصحاح السادس عشر ف٢٠).

ولما مات أبشالوم كان داود يبكي ويقول: يا ابني أبشالوم يا ابني أبشالوم يا ليتني متُّ عوضاً عنك يا أبشالوم ابني يا ابني. (صموئيل الثاني - الإصحاح الثامن عشر ف٣٣) وانظر أيضاً الإصحاح التاسع عشر ف٤ من هذا السفر.

علماً بأن أبشالوم يستحق القتل كما جاء في التوراة جاء في سفر (اللاويين) الإصحاح العشرين: (١٠ وإذا زنى رجلٌ مع امرأة، فإذا زنى مع امرأة قريبة فإنه يقتل الزاني والزانية. وإذا اضطجع رجل مع امرأة أبيه فقد كشف عورة أبيه إنهما يقتلان كلاهما».

وداود كان ملكاً بيده السلطان فكان الذي عليه أن يقتلَ هذا الزاني المستهتر ويقيم عليه الحد. فداود مخالفٌ لكتاب الله مخالفٌ لحكمه كما يصوره الكتاب المقدس علماً بأنه من أكبر الأنبياء عندهم. فهل هذا مقام الأنبياء؟

ومن ذلك أن نبي الله سليمان آخر عمره صار يركض وراء النساء فَأَمَلْنَ قلبَهُ وكفر وارتدَّ وعبدَ آلهة أخرى من دون الله، جاء في سفر (الملوك الأول) - الإصحاح الحادي عشر: «١ وأحبَّ الملك سليمان نساء غريبة كثيرة مع بنت فرعون موآبيات وعمونيات وأدوميات وصيدونيات وحثيات. ٢ من الأمم الذين قال عنهم الرب لبني إسرائيل لا تدخلون إليهم وهم لا يدخلون إليكم لأنهم يُميلون قلوبكم وراء آلهتهم. فالتصق سليمان

بهؤلاء بالمحبة. ٣ وكانت له سبعمائة من النساء السيدات وثلاثمائة من السراري فأمالت نساؤه قلبه. ٤ وكان في زمان شيخوخة سليمان أن نساءه أملن قلبه وراء آلهة أخرى ولم يكن قلبه كاملاً مع الرب إلهه كقلب داود أبيه فذهب سليمان وراء عشتورت آلهة الصيدونيين وملكوم رجس العمونيين. وعمل سليمان الشر في عيني الرب... إلخ.

فأين هذا من القصص القرآني المشرق المضيء؟!

ومن ذلك تنزيه القرآن الله عما لا يليقُ به تعالى مما تذكره التوراةُ من ذلك ما جاء في قصة آدم أن الله كذب على آدم والحية صَدَّقته، فالحيةُ أصدق من الله - كما تقول التوراة - تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

جاء في (سفر التكوين) - الإصحاح الثاني: «١٥ وأخذ الرب الإله آدم ووضعه في جنة عدن ليعملها ويحفظها. ١٦ وأوصى الرب الإله آدم قائلاً: من جميع شجر الجنة تأكل أكلاً. ١٧ وأما شجرةُ معرفةِ الخير والشر فلا تأكل منها. لأنك يوم تأكل منها موتاً تموت.

الإصحاح الثالث:

١ وكانت الحيةُ أحيلَ جميع حيوانات البرية التي عملها الربُ الإله. فقالت للمرأة: أحقاً قال الله لا تأكلا من كل شجر الجنة. ٢ فقالت المرأة للحية من ثمر شجر الجنة نأكل. ٣ وأما ثمر الشجرة التي في وسط الجنة فقال الله: لا تأكلا منه ولا تمسّاه لئلا تموتا. ٤ فقالت الحية للمرأة: لن تموتا. ٥ بل الله عالمٌ أنه يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما وتكونان كالله عارفين الخيرَ والشر... «ثم تذكر التوراة أكلهما من الشجرة إلى أن تقول:

٢٢- وقال الرب الإله هو ذا الإنسانُ قد صار كواحدٍ منا عارفاً الخير والشر. والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضاً ويأكل ويحيا إلى الأبد.

٢٣ فأخرجه الربُ الإله من جنة عدن ليعمل الأرض التي أُخذ منها».

وهكذا تُظهر التوراةُ الربَّ كاذباً والحية صادقة، فالله يقول لآدم وزوجه إنكما إذا أكلتما من هذه الشجرة تموتان موتاً، والحقيقة أنها شجرة معرفة الخير والشر كما أخبرت الحية. هذا من ناحية.

ومن ناحية ثانية لست أدري ما معنى كلام الله عن الإنسان أنه (قد صار كواحدٍ منا عارفاً الخير والشر) فَمَنْ هم هؤلاء الجماعة؟ أهم آلهةُ مع الله أم مَن يكون هؤلاء؟!

وهل يليق هذا بجلالِ الله وتوحيده وتنزيهه؟!

ومن ذلك ما ذكرته أن يعقوب صارع ربه إلى طلوع الفجر فلم يتمكن رَبُّه عليه وأن الربَّ حاول أن يتفلت من يعقوب فلم يتمكن حتى باركه ربه.

جاء في (سفر التكوين) الإصحاح الثاني والثلاثين:

«٢٤ فبقي يعقوب وحده. وصارعه إنسان حتى طلوع الفجر. ٢٥ ولما رأى أنه لا يقدر عليه ضرب حُقَّ فخذه. فانخلع حق فخذ يعقوب في مصارعته معه. ٢٦ وقال: أطلقني لأنه قد طلع الفجر. فقال: لا أطلقك إن لم تباركني. ٢٧ فقال له: ما اسمك؟ فقال: يعقوب. ٢٨ فقال: لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل إسرائيل لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت. ٢٩ وسأل يعقوب وقال: أخبرني باسمك. فقال: لماذا تسأل عن اسمي وباركه هناك».

ومن ذلك أن الرب قال لموسى: أنا جعلتك إلهاً لفرعون وهرون نبياً لك جاء في (سفر الخروج) الإصحاح السابع عشر: «١ فقال الرب لموسى انظر أنا جعلتك إلهاً لفرعون. وهرون أخوك يكون نبيك».

أَهذا هو مقامُ الألوهية؟

والآن لنضربْ مثلاً صغيراً لقصةٍ وردت في التوراة وفي القرآن لنرى كيف يعالجها كلٌّ منهما وهي قصة إبراهيم وضيوفه:

جاء في (سفر التكوين) الإصحاح الثامن عشر:

«١- وظهر له الرب [لإبراهيم] عند بلّوطات ممرا وهو جالس في باب الخيمة وقت حَرِّ النهار. ٢ فرفع عينيه ونظر وإذا ثلاثة رجال واقفون لديه. فلما نظر ركض لاستقبالهم من باب الخيمة وسجد إلى الأرض. ٣ وقال: يا سيد إن كنتُ قد وجدتُ نعمة في عينيك فلا تتجاوز عبدك. ٤ ليؤخذ قليل ماء واغسلوا أرجلكم واتكئوا تحت الشجرة. ٥ فآخذَ كسرة خبز فتسندون قلوبكم ثم تجتازون لأنكم قد مررتم على عبدكم.

فقالوا: هكذا تفعل كما تكلمت. ٦ فأسرع إبراهيم إلى الخيمة إلى سارة وقال أسرعي بثلاث كيلات دقيقاً سميذاً. اعجني واصنعي خبزَ مَلَّة. ٧ ثم ركض إبراهيم إلى البقر وأخذ عجلاً رخصاً وَجيداً وأعطاه للغلام فأسرع ليعمله. ٨ ثم أخذ زبداً ولبناً والعجل الذي عمله ووضعها قدامهم وإذ كان هو واقفاً لديهم تحت الشجرة أكلوا.

٩ وقالوا له: أين سارة امرأتك؟ فقال: ها هي في الخيمة؟ ١٠ فقال: إني أرجع إليك نحو زمان الحياة ويكون لسارة امرأتك ابنٌ. وكانت سارة سامعة في باب الخيمة وهو وراءه. ١١ وكان إبراهيم وسارة شيخين متقدمين في الأيام وقد انقطع أن يكون لسارة عادةٌ كالنساء. ١٢ فضحكت سارة في باطنها قائلة: أبعد فنائي يكون لي تَنعُّمٌ وسَيِّدي قد شاخ؟ ١٣ فقال الرب لإبراهيم لماذا ضحكت سارة قائلة أفبالحقيقة ألدُ وأنا قد شخت؟ ١٤ هل يستحيلُ على الربِّ شيء؟ في الميعاد أرجع إليك نحو زمان الحياة ويكون لسارة ابن. ١٥ فأنكرت سارة قائلة: لم أضحك، لأنها خافت. فقال: لا، بل ضحكت.

١٦- ثم قام الرجال من هناك وتطلعوا نحو سدوم (موطن لوط) وكان إبراهيم ماشياً معهم. ١٧ فقال الرب: هل أُخفي عن إبراهيم ما أنا فاعله؟...».

ولننظر إلى القصة نفسها في القرآن الكريم.

جاء في سورة هود: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ ﴾.

فانظر إلى الفرق بين ما جاء في التوراة وفي القرآن.

التوراة تقول:

١- إن الله ظهر لإبراهيم عند بلوطات. وحاشا لله أنْ يُرى في الدنيا كما يصورون.

٢- نظر إبراهيم وإذا ثلاثة رجال فسجدَ لهم، ولسنا ندري مَنْ هؤلاء الرجال الذين سجد لهم رسول الله إبراهيم؟

٣- مخاطبته لهم بقوله: يا سيد إن كنت... إلخ وهذا خلط فلا تعلم أنه يخاطب جماعة أم مفرداً، أيخاطب إلهاً واحداً أم آلهة، انظر إلى قوله: «قد مررتم على عبدكم...».

٤- إنَّ هؤلاء أكلوا من الطعام الذي أعَدَّهُ لهم إبراهيم.

٥- يظهر أن في القصة ارتباكاً وخَلْطاً فمرةً يجعلُ ضيفَ إبراهيم واحداً ومرة جماعة، ثم لا ندري أن هؤلاء الرجال آلهة أم ملائكة، ولكن مخاطبته لهم كمخاطبةِ العبدِ لربه.

وازنْ هذا بما جاء في القرآن الكريم وانظر أيّ الصورتين أليقُ بمقام الله وملائكته؟

وهذا هو نمط القصص القرآني والقصص المذكور في الكتاب المقدس. فالقصص القرآني يبدو مُصَحِّحاً مكملاً لما جاء في الكتاب المقدس كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [النمل].

فهل بعد هذا نستطيع أن نقول إن محمداً أخذ القصص القرآني من علماء أهل الكتاب؟

أليس عجيباً أن هذا الرجل الأمي يذكرُ قصة ذي القرنين مثلاً وشخصيته ورحلاته الحربية وبنائه السد الحديدي كما ورد في كتب التاريخ الغارقة في القِدم والمعاصرة له والتي سجلها المؤرخون المعاصرون له من أمثال هيرودتس وتي سياز وزينوفن والذين عاشوا قبل الميلاد بنحو خمسمائة سنة.

وقد أثبتت الدراسات الحديثة لما كتبه هؤلاء المؤرخون، والتنقيبات الأثرية في اصطخر وغيرها ما ذكره القرآن بالتفصيل[١] وبما يدعو إلى العجب.

فهل بعد هذا يمكن أحداً أن يقول إن أحداً غير الله يعلمه؟

---

(١) انظر الرسالة القيمة التي كتبها أبو الكلام آزاد في هذا الموضوع وهي (شخصية ذي القرنين المذكورة في القرآن).

الإخبَار بالغيوب

الإخبار بالغيب من أظهر الأدلة وأوضحها على نبوة الرسول وإن كان ليس هو الطريق الوحيد لإثبات نبوته.

وقد أخبر القرآن عن غيوبٍ كثيرة فتحققت كلها فقام ذلك دليلاً صادقاً على صحة نبوته ﷺ ومن ذلك:

١- الإخبار بغلبة الروم:

قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٦﴾ [الروم].

«نزلت هذه الآيات حين غلب سابور ملكُ الفرس على بلاد الشام وما والاها من بلاد الجزيرة وأقاصي بلاد الروم فاضطر هرقل ملك الروم حتى ألجأه إلى القسطنطينية وحاصره فيها مدة طويلة ثم عادت الدولة لهرقل. وقال الإمام أحمد: حدثنا معاوية بن عمرو، حدثنا أبو إسحاق، عن سفيان الثوري، عن حبيب بن أبي عمرة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ ۝٣﴾. قال: كان المشركون يحبون أن تظهرَ فارس على الروم لأنهم أصحاب أوثان وكان المسلمون يحبون أن تظهر الرومُ على فارس لأنهم أهل الكتاب فَذُكِرَ ذلك لأبي بكر فذكره أبو بكر لرسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «أما إنهم سيغلبون»... وروي بطرق أُخر صحيحة»[1].

وصَحَّ عن أبي بكر أنه راهن قريشاً على ذلك وربح الرهان وذُكر أن الرهان كان على

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/٤٢٢، وانظر تفسير الطبري، ج٢١، ص١٦، فتح القدير ٤/٢٠٧-٢٠٩، تفسير القرطبي، ج١٤، ص١ وما بعدها، تفسير الرازي، ج٢٥، ص٩٥، أسباب النزول للواحدي ٣٦٠-٣٦١، تثبيت دلائل النبوة ١/٥٩ وما بعدها.

مائة قلوص مع أُبيّ بن خلف»[١].

من هذه الآيات نرى أن القرآن الكريم أخبر بأن الروم غُلبوا، ثم أخبر أنهم سيغلبون في بضع[٢] سنين، وأن المؤمنين سيفرحون بهذا النصر، ثم قال: وهذا وعدٌ قاطع لا يتخلف.

وقد تَمَّ ذلك. فبعد بضع سنين من نزول هذه الآيات انتصر الروم على الفرس كما أخبر القرآن وقطع به.

فدل ذلك دلالة قاطعة على نبوته ﷺ. قال الفخر الرازي: «وهذه ذُكِرَ في أولها ما هو معجزة وهو الإخبارُ عن الغيب»[٣].

قد يقول قائل: إن هذا الإخبار هو من قبيل الحدس والظن. ولكن سياق الآيات يرد هذا القول، فهي تدل على القطع والتوكيد وأن النصر سيتم في خلال مدة معينة لا يتعداها. ثم هَبْ أنهم لم ينتصروا أفلا تنتكس دعوةُ محمد ويُكذَّب؟ وقد جاء في الأخبار أن قريشاً لما سمعت بهذه الآية ضجوا وكذبوه وطلبوا الرهان على هذا فراهنهم أبو بكر على مائة قلوص وقد علم الرسول ﷺ بهذا الرهن وأقره.

وقد يقول قائل: ومن أين نعلم أن هذا الحدث قد تَمّ وحصل؟

فنقول: إن حكم هذا النص من الناحية التاريخية ثابت قطعاً، فإن القرآن أوثقُ خبر تاريخي عن المجتمع آنذاك فليس من الممكن أن يذكر شيئاً لا وجود له، وإن مجرد ذِكْرِه يدل على أنه قد حصل وتم وإلا أصبح مسخرة وعبثاً.

إضافة إلى أن هذا الخبر متواتر في كتب التاريخ القديمة عند أهل الملل الأخرى فقد سجلته كتب النصرانية وغيرها فهذا مما لا شك فيه[٤].

---

(١) تفسير الطبري، ج٢١، ص١٦، فتح القدير ٤/٢٠٧-٢٠٩.

(٢) البضع في لغة العرب من الثلاثة إلى التسعة.

(٣) تفسير الرازي ٢٥/٩٥، وانظر: تثبيت دلائل النبوة ١/٥٩ وما بعدها.

(٤) انظر وصف الحالة بين الفرس والروم إلى انتصار الروم في (كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق) تأليف البطريرك افتيشيوس المكنى بسعيد بن البطريق المطبوع في بيروت بمطبعة الآباء اليسوعيين سنة ١٩٠٩، ج٢، ص٤٠١.

وأذكرُ أنه كان لي زميلٌ ماديٌّ فقلتُ له ذات يوم: ألا تفسر لي هذه الظاهرة؟ وذكرتها له. فاعترض عليّ قائلاً: ومن أين لنا أن هذا حصل؟

فقلتُ له: يهمنا الآن من القرآن الدلالةُ التاريخية، أفلا يُعَدّ القرآنُ كتابَ تاريخ عن ذلك العهد؟ فقال: بلى.

قلت: إذن فإن هذا قد حصل. ثم قلت له: ألا يدل ذلك على نبوة محمد؟ فأجاب وهو في حالة ذهول: صحيح، ثم غرق في تفكير عميق.

فاتضح بهذا أن محمداً نبي يُوحى إليه وأن الذي أخبره عَلاَّمُ الغيوب، وما أصدق قول حسان:

نبيّ يرى ما لا يرى الناسُ حوله ويتلو كتاب الله في كل مسجدِ
وإن قال في يوم مقالةَ غائبٍ فتصديقها في اليومِ أو في ضُحى الغِد

٢- وعده باستخلاف المؤمنين في الأرض:

قال تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ﴿٥٥﴾ ﴾ [النور].

قال الطبري: «يقول تعالى ذِكْرُه (﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ يقول: ليورثنَّهم الله أرضَ المشركين من العرب والعجم فيجعلهم ملوكها وساستها»[١].

وقال الحافظ ابن كثير: «هذا وعدٌ من الله تعالى لرسوله صلوات الله وسلامه عليه بأنه سيجعل أمته خلفاء الأرض أي أئمةَ الناس والولاة عليهم، وبهم تصلح البلاد وتخضع لهم العباد. وليبدلنَّهم من بعد خوفهم من الناس أمناً وحكماً فيهم. وقد فعله تبارك وتعالى وله الحمد والمِنَّة»[٢].

وقال الفخر الرازي: «دلت الآية على صحة نبوة محمد ﷺ لأنه أخبر عن الغيب في

---

(١) تفيسر الطبري ٨/١٥٨.

(٢) تفسير ابن كثير ٣/٣٠٠.

قوله: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ . . . أَمْنًا﴾ وقد وجد هذا المخبر موافقاً للخبر. ومثل هذا الخبر معجز والمعجز دليل الصدق فدل على صدق محمد ﷺ»(١).

فنحن نرى أن القرآن يَعِدُ المؤمنين الذين كانوا في زمن الرسول ﷺ بالاستخلاف في الأرض وتمكين الدين لهم بقوله ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ﴾ ثم يأتي بهذا الوعد مؤكداً بالنون وبلام القسم (ليستخلفنهم، وليمكننّ) وقد تم ذلك على يد أصحاب الرسول بعده كما وعد الله سبحانه فدل ذلك دلالة قاطعة على صدق نبوته ﷺ.

٣- وعده بإظهار دين الإسلام على سائر الأديان:

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [التوبة].

وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾ [الفتح].

وقال: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾ [الصف].

فنرى أن الله سبحانه يؤكد هذا الأمر في ثلاثة مواطن من القرآن الكريم، قال الحافظ ابن كثير: «أي على سائر الأديان كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله زوى لي الأرض مشارقَها ومغاربها وسيبلغُ ملكُ أمتي ما زُويَ لي منها»(٢).

وجاء في «تثبيت دلائل النبوة» أن رسول الله ﷺ قال حين دعا إلى الله وفي حال وحدته وضعفه: «إن الله أرسلني ووعدني أن يُظهرَ ديني على الأديان كلها فيكون سلطاني أقهر من سلطان كسرى وقيصر، فأغلبُ الملوكَ، ويعلو مُلكي وملك أنصاري وأتباعي كلَّ مُلكٍ في الأرض، ثم ما رضيَ بهذا القول حتى جعله كتاباً يُقرأ وقرآناً

(١) التفسير الكبير، ج٢٤، ص٢٤، وانظر تفسير القرطبي ١٢/١٩٧-٢٩٨، أسباب النزول للواحدي ٣٤١- ٣٤٢، فتح القدير ٤/٤٥-٤٦، تثبيت دلائل النبوة للهمذاني ٢/٤٤٦.

(٢) تفسير ابن كثير ٢/٣٤٩، وانظر تفسير الطبري ١٠/١١٦، تفسير القرطبي ٨/١٢١، التفسير الكبير للرازي ١٦/٤٠، فتح القدير للشوكاني ٢/٣٣٨.

مخلداً يعرفه العدوُّ والوليُّ فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ۝٢٨﴾ وقال أيضاً: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝٨﴾ فكان كما قال وكما أخبر»[1].

فدل ذلك على صدق نبوته ﷺ.

ومن الوعد بإظهار دين الإسلام قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلۡأٓفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٍ شَهِيدٌ ۝٥٣﴾ [فصلت].

وهذا وعدٌ بأن الله سينصر محمداً وسيريهم هذا النصرَ فيهم أنفسهم وفي الآفاق وهي الأقطار والبلاد حتى يعلموا أن ما وعده الله حق.

قال الفخر الرازي: «فهذا إخبار عن الغيب وقد وقع مخبره مطابقاً لخبره [الفتوح] فيكون هذا إخباراً صدقاً عن الغيب والإخبارُ عن الغيب معجزة»[2].

وجاء في الكشاف: «يعني ما يَسَّر الله عز وجل لرسوله ﷺ وللخلفاء من بعده ونُصَّارِ دينه في آفاق الدنيا وبلاد المشرق والمغرب عموماً وفي باحة العرب خصوصاً من الفتوح التي لم يتيسر أمثالها لأحد من خلفاء الأرض قبلهم ومن الإظهار على الجبابرة والأكاسرة وتغليب قليلهم على كثيرهم... ونشر دعوة الإسلام في أقطار المعمورة وبسط دولتها في أقاصيها. والاستقراء يطلعك في التواريخ والكتب المدونة في مشاهد أهله وأيامهم على عجائب لا ترى وقعة من وقائعها إلا عَلَماً من أعلام الله وآيةً من آياته يقوى معها اليقينُ ويزداد بها الإيمان ويتبين أن دين الإسلام هو دين الحق الذي لا يَحيدُ عنه إلا مكابرُ حِسِّه مغالطُ نفسه»[3].

وقال الحافظ ابن كثير: «أي سَنُظهر لهم دلالاتنا وحججنا على كونِ القرآن حقاً منزلاً من عند الله على رسولِ الله ﷺ بدلائل خارجة في الآفاق من الفتوحات وظهور الإسلام على الأقاليم وسائر الأديان. قال مجاهد والحسن والسدي: ودلائل في أنفسهم، قالوا:

---

(١) تثبيت دلائل النبوة ٢/٣١٤.

(٢) تفسير الرازي ٢٧/١٣٩.

(٣) الكشاف ٣/٧٥، وانظر تفسير الطبري، ج٢٥، ص٤، القرطبي ١٥/٣٧٤، فتح القدير ٤/٥٠٨-٥٠٩.

وقعة بدر وفتح مكة ونحو ذلك من الوقائع التي حلت بهم، نصرَ اللهُ فيها محمداً ﷺ وصحبه، وخذل فيها الباطل وحزبه.

ويحتمل أن يكون المراد من ذلك ما الإنسان مركب منه وفيه وعليه من المواد والاختلاط والهيئات العجيبة كما هو مبسوط في علم التشريح الدال على حكمة الصانع تبارك وتعالى»[1].

أما الاحتمال الثاني الذي ذكره ابن كثير فغير مراد والله أعلم لأن الكلام على القرآن وآياته فإن هذه الآية تأتي بعد قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ۝٥٢﴾ [فصلت]، فالسياق يأباه.

ثم إن قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۝٥٣﴾ [فصلت] يعني: حتى يتبين لهم أن القرآن أو دين الله حق وهذا لا يثبت من علم التشريح، إذ ما علاقة التشريح بكون أن القرآن حق؟!

إن علمَ التشريح يدل على حكمة الله تعالى ولا علاقةَ له بدين الإسلام فيظهر لهم أنه الحق.

ثم إن قوله (لهم) يعني أنهم هم المقصودون بذاك أي: سيريهم الوعودَ التي وعدها الله نبيه من النصر حتى يظهرَ لهم أنَّ ما قاله محمد وما وعده به رَبُّه حق وأنَّ الله شهيدٌ على ذلك ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٥٣﴾ [فصلت].

ومنه قوله تعالى في القرآن: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٨٧ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ۝٨٨﴾ [ص] والذِّكْرُ: الشرفُ، فذكر أن القرآن شرفٌ للعالمين وأنكم سترون ذلك بعد حين من الدهر وهو إلماح إلى النصر الواسع العام.

ونحو قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٠﴾ [الأنبياء] «قال ابن عباس: شَرُفكم، قال مجاهد: حديثكم، وقال الحسن: دينكم»[2].

وجاء في «الكشاف»: «ذِكْرُكم: شرفكم وصِيتكم كما قال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ ۝٤٤﴾

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ١٠٥.

(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ١٧٤.

[الزخرف]»[١]. وقال القرطبي: «فيه ذِكركم» والمراد بالذكر هنا الشرف، أي: فيه شرفكم مثل: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزخرف] أي: شرفٌ ورفعةٌ لك ولقومك تُذكرون بذلك، فكان كما قال إذ كان قومه مغمورين مجهولين فرفعهم القرآنُ وشَرَّفهم وصيَّرهم قادةَ الدنيا وسادتها، قال الهمذاني في «تثبيت دلائل النبوة»: «أي: شرفٌ ونُبلٌ وجلالة... ولهذا قال عز وجل لقريش في ابتداء المبعث: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [ص] يريد القرآن، وإنه عِزٌّ ونُبلٌ وشرف وستشرف به أمم ممن تَمسَّكَ به ودعا إليه...

وفي مثل هذا المعنى قوله عز وجل: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ ... وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾﴾ [الانشراح] فإن ذكره ارتفع بالصدقِ والوفاء وقيام الحجة»[٢].

ونحوه قوله تعالى: ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾﴾ [المؤمنون] قال الزمخشري: «بذكرهم أي: بالكتاب الذي هو ذِكْرُهم، أي: وعظهم، أو صيتُهم وفَخْرُهم»[٣].

وهذه الآيات كلها تشير إلى أن القرآن إنما هو رفعةٌ لمحمد ولمن آمن به فكما قال. وهي من الأدلةِ الواضحة على صِدقِ نبوته ﷺ.

٤- وعده بنصر الرسول في الدنيا والآخرة:

قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾﴾ [الحج].

والمعنى أن الله ناصرُ رسولهِ لا محالةَ في الدنيا وفي الآخرة ومَنْ كان يظن غير ذاك فليخنقْ نفسه بحبل أو ليفعل ما يشاء فإنَّ نصره كائنٌ لا يتخلف. قال ابن كثير: «قال ابن عباس: مَنْ كان يظن أن لن ينصرَ اللهُ محمداً ﷺ في الدنيا والآخرة فليمدُدْ بسببٍ أي: بحبلٍ إلى السماء أي سماء بيته ثم ليقطع يقول: ثم ليختنق به. وكذا قال مجاهد

---

(١) تفسير القرطبي ١١/ ٢٧٣.

(٢) تثبيت دلائل النبوة ١/ ٨٤.

(٣) [الك]شاف ٢/ ٣٦٦، وانظر تفسير الرازي ٢٢/ ١٤٥.

وعكرمة وعطاء وأبو الجوزاء وقتادة وغيرهم.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ﴾ أي: ليتوصَّلْ إلى بلوغ السماء فإنَّ النصرَ إنما يأتي محمداً من السماء ثم ليقطع ذلك عنه إن قدر على ذلك. وقول ابن عباس وأصحابه أولى وأظهر في المعنى وأبلغ في التهكم فإن المعنى: مَنْ كان يظن أن الله ليس بناصر محمداً وكتابه ودينه فليذهب فليقتل نفسه إن كان ذلك غائطه فإن الله ناصره لا محالة»(١).

وجاء في «الكشاف»: «والمعنى أنَّ الله ناصرُ رسوله في الدنيا والآخرة فمن كان يظن من حاسديه وأعاديه أن الله يفعلُ خلافَ ذلك ويطمع فيه ويغيظه أنه يظفر بمطلوبه فليستقصِ وُسْعَهُ وليستفرغْ جهوده في إزالة ما يغيظه بأنْ يفعل ما يفعل مَنْ بلغ منه الغيظُ كلَّ مبلغ حتى مَدَّ حبلاً إلى سماء بيته فاختنق»(٢).

وهو دليلٌ قاطع على نبوته كما ترى.

ومن الوعود بنصر رسوله والمؤمنين في الحياة الدنيا وفي الآخرة قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ۝﴾ [غافر].

فهو وعدٌ بنصر الرسول والمؤمنين معه في الدنيا وفي الآخرة لأن محمداً من الرسل وأتباعه من الذين آمنوا فمحمد وأتباعه داخلون في جملة الوعد وقد تم ذلك كما أخبر، ثم قال بعد هذه الآية: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ۝﴾ أي: سيصيبكم النصرُ قطعاً وإنَّ هذا الوعدَ حقٌّ لا يتخلف فاصبرْ ترَ ذلك.

وقد تحقق هذا الوعد كما قال الله. قال الشوكاني: «أي: نجعلهم الغالبين لأعدائهم القاهرين لهم... وننصرُ الذين آمنوا معهم في الحياة الدنيا بما عودهم الله من الانتقام منهم بالقتل والسلب والأسر والقهر ويومَ يقومُ الأشهاد وهو يومُ القيامة»(٣).

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٢١٠.

(٢) الكشاف ٢/ ٣٤٣، وانظر تفسير الطبري ١٧/ ١٢٥، تفسير القرطبي ١٢/ ٢١، تفسير الرازي، ج٢٣، ص١٦، فتح القدير ٣/ ٤٢٧، تثبيت دلائل النبوة ٢/ ٣٤٩.

(٣) فتح القدير ٤/ ٤٨٢.

وقال ابن كثير: «وهكذا نصرَ اللهُ نبيه محمداً ﷺ وأصحابه على مَنْ خالفه وناوأه وكذَّبه وعاداه فجعلَ كلمته هي العليا ودينه هو الظاهر على سائر الأديان، وأَمرهُ بالهجرةِ من بين ظهراني قومه إلى المدينة النبوية وجعلَ له فيها أنصاراً وأعواناً ثم منحه أكتاف المشركين يوم بدر فنصره عليهم وخذلهم وقتلَ صناديدهم وأسرَ سراتهم فاستاقهم مُقَرَّنينَ في الأصفاد... ثم بعد مدة قريبة فتح عليه مكةَ فقرَّتْ عينهُ ببلده وهو البلد المحرم الحرام المشرف المعظم... وفتح له اليمن ودانت له جزيرةُ العرب بكمالها ودخل الناسُ في دين الله أفواجاً»(١).

ومن الوعود بنصر رسوله والمؤمنين وخذلان أهل الكفر قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الصافات].

وهذا وعدٌ ثابتٌ بنصر الرسول ﷺ والمؤمنين لأنه ﷺ من الرسل وأتباعه من المؤمنين فهم داخلون في الوعد. ومما يدل على أن الرسول ﷺ وأتباعه مقصودون بهذا الوعد قوله تعالى مخاطباً رسوله: ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ إلى آخر الآيات، فأكد أن النصرَ والغلبةَ حاصلتانِ للرسولِ وجنده بعد حين من الزمن وأن العذابَ نازلٌ بأهل الكفر وإنهم سوف يبصرون هذا العذاب النازل بهم وغلبة الرسول عليهم فكان كما أخبر. جاء في «الكشاف»: «والمراد الموعد بعلوِّهم على عدوِّهم في مقاوم الحِجاجِ وملاحمِ القتال في الدنيا وعلوهم عليهم في الآخرة»(٢).

وقال ابن كثير: «يقول تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾﴾ أي: تقدمَ في الكتاب الأول أنَّ العاقبةَ للرسل وأتباعهم في الدنيا والآخرة كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾ [المجادلة]، وقال عز وجل: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر]، ولهذا قال جل جلاله: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ أي: في الدنيا والآخرة...

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٨٤، وانظر الطبري ٢٤/ ٧٤.

(٢) الكشاف ٢/ ٦١٥.

وقوله جَلَّ وعلا: ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾﴾ أي: اصبرْ على أذاهم لك وانتظر إلى وقت مؤجل فإنا سنجعلُ لك العاقبةَ والنصر والظفر. ولهذا قال بعضهم غَيَّا ذلك إلى يوم بدر... قوله جلت عظمته: ﴿وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾﴾ أي: انظرهم وارتقبْ ماذا يحلُّ بهم من العذاب والنكال بمخالفتكَ وتكذيبك ولهذا قال تعالى على وجه التهديد والوعيد ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾﴾ ثم قال عز وجل: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾﴾(١)».

٥- وعده بهزيمة أهل الكفر:

قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾﴾ [آل عمران].

وعدَ الله محمداً هزيمة أهل الكفر وخذلانهم في الدنيا وفي الآخرة وقال له أخبرهم بذاك. وقد تَمَّ ما أخبرَ اللهُ به رسولَهُ وتحقق وعده فدلَّ ذلك على صدق نبوته. قال الإمام الطبري: «إن أبا كريب حدثنا قال: ثنا يوسف بن بكير عن محمد بن إسحاق قال ثني محمد بن أبي محمد مولى زيد عن سعيد بن جبير أو عكرمة عن ابن عباس قال: لما أصاب رسول الله ﷺ قريشاً يوم بدر فقدم المدينةَ جمع يهود في سوق بني قينقاع فقال: يا معشر يهود أسلموا قبل أنْ يُصيبكم مثل ما أصاب قريشاً. فقالوا: يا محمد لا تَغرّنَّكَ نفسكَ إنك قتلتَ نفراً من قريش كانوا أغماراً لا يعرفون القتال. إنك والله لو قاتلتنا لعرفتَ إنا نحنُ الناس وأنك لم تأت مثلنا. فأنزل الله عز وجل في ذلك من قولهم: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾﴾ إلى قوله: ﴿لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾﴾ [آل عمران](٢).

وقال ابن كثير: ﴿ستغلبون﴾ أي: في الدنيا ﴿وتحشرون﴾ أي: يوم القيامة(٣)...

وقال الشوكاني: «وقد صدق الله وعده بقتل بني قريظة وإجلاء بني النضير وفتح خيبر

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/٢٤، وانظر الطبري ٢٣/١١٤-١١٦، القرطبي ١٥/١٣٩، تفسير الفخر الرازي ٢٦/١٧٢، فتح القدير ٤/٤٠٣.

(٢) تفسير الطبري ٣/١٩٢، وانظر القرطبي ٤/٢٤.

(٣) تفسير ابن كثير ١/٣٥٠.

وضرب الجزية على سائر اليهود ولله الحمد»[١].

وقال الفخر الرازي: وقوله ﴿ستغلبون﴾ إخبارٌ عن أمر يحصل في المستقبل وقد وقع مخبره على موافقته فكان هذا إخباراً عن الغيب وهو معجز. ونظيره قوله تعالى: ﴿ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝ ﴾ [الروم][٢].

ونحو هذا قوله تعالى في اليهود ﴿ مِّنۡهُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ۝ لَن يَضُرُّوكُمۡ إِلَّآ أَذٗىۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمۡ يُوَلُّوكُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ۝ ﴾ [آل عمران].

جاء في «تثبيت دلائل النبوة»: «وبابٌ آخر من آياته وعجيب إعلامه وهو إخباره عن اليهود فقال: «منهم المؤمنون.. إلى قوله: ثم لا ينصرون... فكان كما قال، وانظرْ كيف أَخبرَهم بها قبل وقوعها وأنذرهم بما يكون قبل أن يكون وجعلهم على أهبة»[٣].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ ۞ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخۡوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَئِنۡ أُخۡرِجۡتُمۡ لَنَخۡرُجَنَّ مَعَكُمۡ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمۡ أَحَدًا أَبَدٗا وَإِن قُوتِلۡتُمۡ لَنَنصُرَنَّكُمۡ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ۝ لَئِنۡ أُخۡرِجُواْ لَا يَخۡرُجُونَ مَعَهُمۡ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمۡ وَلَئِن نَّصَرُوهُمۡ لَيُوَلُّنَّ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ۝ ﴾ [الحشر].

أخبر الله محمداً بأن مواعيدَ المنافقين لليهودِ بنصرِهم كاذبةٌ كلها. وقد تبين صدق إخبار الله بذلك فإن المنافقين لم يخرجوا مع بني النضير الذين أخرجوا من المدينة، ولم يقاتلوا مع بني قريظة ولا أهل خيبر.

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عن المنافقين كعبد الله بن أبي وأضرابه حين بعثوا إلى يهود بني النضير يَعِدُونَهم النصرَ من أنفسهم فقال تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين نافقوا...﴾ قال الله تعالى: ﴿والله يشهد إنهم لكاذبون﴾ أي: لكاذبون فيما وعدوهم به.. ﴿ولئن قُوتلوا لا ينصرونهم﴾ أي: لا يقاتلون معهم ولئن نصروهم، أي: قاتلوا معهم لَيولُنَّ الأدبار ثم لا ينصرون. وهذه بشارة مستقلة بنفسها»[٤].

---

(١) فتح القدير ١/ ٢٩١.

(٢) تفسير الرازي ٧/ ٣٠١، وانظر تثبيت دلائل النبوة ٣/ ٤٣٥.

(٣) تثبيت دلائل النبوة ٢/ ٤٣٤-٤٣٥.

(٤) تفسير ابن كثير ٤/ ٣٤٠.

وجاء في «فتح القدير»: «وقد كان الأمر كذلك فإن المنافقين لم يخرجوا مع من أخرج من اليهود وهم بنو النضير ومَنْ معهم، ولم ينصروا من قوتل من اليهود وهم بنو قريظة وأهل خيبر»[١].

وجاء في «الكشاف»: «وفيه دليل على صحة النبوة لأنه إخبار بالغيوب...»[٢].

وجاء في «تفسير القرطبي»: «وفي هذا دليل على صحة نبوة محمد ﷺ من جهة علم الغيب لأنهم أخرجوا فلم يخرجوا وقوتلوا فلم ينصروهم كما قال تعالى: ﴿والله يشهد إنهم لكاذبون﴾[٣].

ونحو هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأنفال].

فقد أخبر الرب أن هؤلاء ينفقون أموالهم للصدِّ عن دينِ الله فيسنفقونها ثم يغلبون ولا يجنون شيئاً سوى الندامة.

قال الحافظ ابن كثير: «قال محمد بن إسحاق حدثني الزهري ومحمد بن يحيى بن حبان وعاصم بن عمر بن قتادة والحصين بن عبد الرحمن بن عمرو بن سعيد بن معاذ قالوا: لما أصيبت قريش يوم بدر ورجع فلّهم إلى مكة ورجع أبو سفيان بعِيرِه مشى عبد الله بن أبي ربيعة وعكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية في رجال من قريش أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم ببدر فكلّموا أبا سفيان بن حرب ومَنْ كانت له في تلك العير من قريش تجارة. فقالوا: يا معشر قريش إن محمداً قد وَتَركم وقتلَ خياركم فأعينونا بهذا المالِ على حربه لعلنا أنْ نُدركَ منه ثأراً بمن أصيب منا ففعلوا. قال: ففيهم كما ذكر عن ابن عباس أنزل الله عز وجل ﴿إن الذين كفروا... الخاسرون﴾. وكذا روي عن مجاهد وسعيد بن جبير والحكم بن عيينة وقتادة والسدي وابن أبزى أنها نزلت في أبي سفيان ونفقته الأموال في أُحد لقتالِ رسول الله ﷺ. وقال الضحاك: نزلت في أهل

---

(١) فتح القدير ١٩٨/٥-١٩٩. وانظر تثبيت دلائل النبوة ٢/ ٤٩٠.

(٢) الكشاف ٣/ ٢١٧.

(٣) تفسير القرطبي ١٨/ ٣٤.

بدر، وعلى كلٍّ تقدير فهي عامة»[١].

وجاء في «فتح القدير» للشوكاني: «والمعنى أن غرض هؤلاء الكفار في إنفاق أموالهم هو الصدّ عن سبيلِ الحق بمحاربة رسول الله ﷺ وجمع الجيوش لذلك وإنفاق أموالهم عليها وذلك كما وقع من كفار قريش يوم بدر ويوم أُحد ويوم الأحزاب فإن الرؤساء كانوا ينفقون أموالهم على الجيش. ثم أخبر الله سبحانه عن هذا الغيب على وجه الإعجاز فقال: ﴿فسينفقونها﴾ أي: سيقع منهم هذا الإنفاق ثم تكون عاقبة ذلك أن يكون إنفاقهم حسرةً عليهم... ثم آخر الأمر يُغلبون»[٢].

وجاء في «تثبيت دلائل النبوة»: «فخبر بإنفاقهم قبل أن ينفقوا وبقتالهم قبل أن يقاتلوا وبهزيمتهم قبل أن يهزموا ثم كان ذلك كما قال وكما أخبر وكما فصل»[٣].

وعلى كل حال فهو إخبار عام بهزيمة وخسران كل مَنْ يتصدى لمحاربة الرسول والصد عن دينِ الله سواء كانوا هؤلاء المذكورين أم غيرهم وكان كما أخبر.

ونحو هذا قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ۝ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ۝﴾ [القمر].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وأنزل في مكة ﴿أم يقولون نحن...﴾ فكان كما أخبر هزم الجمع وولوا الدبر»[٤].

قال القرطبي: «سيهزم الجمع، أي: جَمْعُ كفارِ مكة، وقد كان ذلك يوم بدر وغيره»[٥].

وأخرج البخاري في صحيحه والنسائي في غير موضع وابن حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ يوم بدر وهو في قبة: اللهم إني أنشدك عهدكَ ووعدك اللهم إن شئت لم تُعبدْ بعد اليوم. فأخذ أبو بكر بيده فقال: حَسْبُكَ يا رسولَ الله فقد

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/٣٠٧، وانظر الكشاف ٢/١٤-١٥، أسباب النزول للواحدي ٢٣٤.

(٢) فتح القدير ٢/٢٩٢، وانظر الطبري ٩/٢٤٤-٢٤٦.

(٣) تثبيت دلائل النبوة ٢/٤٣٢.

(٤) الجواب الصحيح ٤/١٣٠.

(٥) تفسير القرطبي ١٧/١٤٥، وانظر الطبري ٢٧/١٠٨، ابن كثير ٤/٢٦٦، فتح القدير ٥/١٢٥، تثبيت دلائل النبوة ١/٨٤، ٢/٣١٣، إعلام النبوة للماوردي ٥٥-٤٥.

ألححتَ على ربك وهو في الدرع وهو يقول: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾.

فانظر إلى قوله ﷺ: «أنشدك عهدك ووعدك، فقد وعده ربه أن يهزم جمعهم فكان كما أخبر.

ونحو هذا من الوعود قوله تعالى: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾﴾ [ص].

قال ابن كثير: «أي هؤلاء الجند المُكَذِّبون الذين هم في عِزَّةٍ وشقاق سَيُهزمون ويغلبون ويكبتون كما كُبِتَ الذين من قبلهم من الأحزاب المكذبين كقوله جَلَّتْ عظمته ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ كان ذلك يوم بدر»[1].

وجاء في «تفسير القرطبي»: «وهذا تأنيس للنبي ﷺ وقد فُعل بهم هذا في يوم بدر. قال قتادة: وعد الله أنه سيهزمهم وهم بمكة فجاء تأويلها يوم بدر»[2].

وجاء في «فتح القدير»: «وهذا وعد من الله سبحانه لنبيه ﷺ بالنصر عليهم والظفر بهم... وقد وقع ذلك ولله الحمد في يوم بدر وفيما بعده من مواطن الله»[3].

وجاء في «الكشاف»: «يريد ما هُمْ إلا جيشٌ من الكفار المتحزِّبين على رسول الله مهزومٌ مكسور عما قريب فلا تُبالِ بما يقولون ولا تكترثْ لما به يهذون»[4].

وجاء في «تثبيت دلائل النبوة»: «فتأمل الأمر في ذلك تجده عظيماً لأنه توعَّدهم بالحرب قبل الحرب وقبل الجماعة وفي حالة الضعف وهو معهم وفي أَسْرهم وفي قبضتهم فبعثهم على قتله واستئصاله»[5].

ومن الوعود أيضاً قوله تعالى: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمْ

---

(١) ابن كثير ٤/٢٨.
(٢) تفسير القرطبي ١٥/١٥٣.
(٣) فتح القدير ٤/٤١٠، وانظر الطبري ٢٣/١٣٠، التفسير الكبير ٢٦/١٨١.
(٤) الكشاف، ج٣، ص٥.
(٥) تثبيت دلائل النبوة ١/٨٣.

﴿يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾﴾ [التوبة].

وهو وعدٌ بأنَّ الله سَيُخزيهم وينصر المؤمنين عليهم فكان كما وعدَ اللهُ ربنا وأخبر.

وما ذكرناه من الوعود إنما هو غُيوبٌ متعددة وكلُّ واحدٍ منها دليلٌ على صحة نبوة الرسول. فأنت ترى أن بعض هذه الآيات موجه إلى اليهود وتهديدهم بالغلبة والقهر فكان كما قال.

وبعض هذه الآيات موجه إلى الذين جمعوا الأموال للاستعانة على حرب الرسول وإخبارهم بأنهم سينفقون أموالهم ولا يدركون شيئاً ثم يُغلبون فكان كما قال.

وبعضها موجه إلى جيش الكفر جميعه بأنه سيهزم هذا الجمع ويولون الدُّبر فكان كما قال.

فأنت ترى أن هذه غيوب متعددة وكل منها ينهض دليلاً برأسه على صدق نبوته ﷺ.

قد يقول قائل إنَّ هذا من بابِ رفع المعنويات وبث الحماس في نفوس أصحابه كما يفعل السياسيون والقادة في بعث الحماس في نفوس جماعاتهم. والحقيقة أن هناك فرقاً كبيراً بين الأمرين فإنه إذا اختلف وعد واحد من مواعيد الرسول الكثيرة ولم يتحقق أدى ذلك إلى الشك في نبوته ودعا ذلك إلى تكذيبه بخلاف السياسي فإنه يقصد إلى رفع معنويات جماعته فإنْ تَحقَّقَ فذاكَ وإلا فلا ضررَ فيه.

ثم ما حجةُ النبي الذي يَعِدُ فلا يتحقق وعدهُ؟ هل هي نفس حجة السياسي الذي يعد فلا يتحقق وعده؟

إنَّ السياسي يقولُ بكل سهولة: كان هذا تقديري للأمر وقد أخطأتُ والإنسان يخطىء وأنا لا أعلمُ الغيب.

فهل يستطيع النبيُّ أنْ يقول ذاك؟ وكيف يستطيع أن يقول ذاك وهو يَدَّعي أنَّ الله خالقُ الخلق وعالم الغيب هو الذي أرسله للناس؟ ومن سيتابع هذا النبي الذي يعد ولا يتحقق وعده؟ من سيتابع هذا النبي الذي يحمل معه الدليل على كذبه؟

إن محمداً ﷺ وعد جماعته وعوداً كثيرة ومنها - مثلاً - وعده بالنصر على قريش في معركة بدر كما أخبر القرآن بذاك بقوله: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ

﴿غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ﴾ [الأنفال] - كما سيمر بنا - فإنه إنْ لم يتحقق هذا الوعد ارتدَّ عنه جماعتُه وكذَّبوه وافتُضِحَ أمرهُ.

وهكذا شأن بقية الوعود.

وأنتَ قد رأيتَ أن الرسول وعد وعوداً كثيرة وتحققت كلها ولم يتخلَّفْ واحدٌ منها فقام ذلك دليلاً واضحاً على نبوته.

٦- الوعد بإرجاع الرسول إلى مكة:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ [القصص]. نزلت هذه الآية بالجحفة والرسولُ مهاجرٌ يَعِدُه الله فيها بإرجاعه إلى مكة.

وقال البخاري في التفسير من صحيحه: حدثنا محمد بن مقاتل أنبأنا يعلى حدثنا سفيان العصفري عن عكرمة عن ابن عباس ﴿لرادك إلى معاد﴾ قال: إلى مكة.

وهكذا رواه النسائي في تفسير سننه وابن جرير من حديث يعلى وهو ابن عبيد الطنافسي به وهكذا رواه العوفي عن ابن عباس ﴿لرادك إلى معاد﴾ أي: لرادك إلى مكة كما أخرجك منها.

وقال محمد بن إسحاق عن مجاهد في قوله ﴿لرادك إلى معاد﴾ إلى مولدك بمكة. وحدثنا أبي حدثنا ابن أبي عمر قال: قال سفيان فسمعناه من مقاتل منذ سبعين سنة عن الضحاك قال: لما خرج النبي ﷺ من مكة فبلغ الجحفة اشتاق إلى مكة فأنزل الله عليه ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ أي: إلى مكة»[١].

وجاء في «فتح القدير»: «قال جمهور المفسرين: أي إلى مكة»[٢].

قال الفخر الرازي: «قال أهلُ التحقيق: وهذا أحد ما يدل على نبوته لأنه أخبر عن الغيب ووقع كما أخبر فيكون معجزاً»[٣].

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/٤٠٢-٤٠٣، وانظر تفسير الطبري ٢٠/١٢٥، الكشاف ٣/٤٨٧، تثبيت دلائل النبوة ٢/٣٧١، إعلام النبوة للماوردي ٤٤-٤٥.

(٢) فتح القدير ٤/١٨٢، القرطبي ١٣/٣٢١.

(٣) التفسير الكبير، ج٢٥، ص٢١.

٧- الوعد بدخول المسجد الحرام:

قال تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾ [الفتح].

هاتان الآيتان من سورة الفتح، وسورة الفتح نزلت كلها عند الانصراف من الحديبية.

قال ابن كثير: «كان رسول الله ﷺ قد رأى في المنام أنه دخل مكة وطاف بالبيت فأخبر أصحابه بذلك وهو بالمدينة فلما ساروا عام الحديبية لم يشك جماعةٌ منهم أن هذه الرؤيا تتفسر هذا العام فلما وقع ما وقع من قضيةِ الصلح ورجعوا عامهم ذلك على أنْ يعودوا من قابل وقع في نفس بعض الصحابة رضي الله عنهم من ذلك شيءٌ حتى سأل عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه في ذلك فقال له فيما قال: أفلم تكن تخبرنا أنَّا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: بلى أَفأخبرتُكَ أنك تأتيه عامكَ هذا؟ قال: لا.

قال النبي ﷺ: «فإنك آتيه ومطوفٌ به». كما جاء في صحيح البخاري. «إن الله شاء: هذا لتحقيقِ الخبرِ وتوكيده وليس هذا من الاستثناء في شيء»[(١)].

وفي هذا إخباران: إخبارُ تصديقِ الرؤيا، وأن عمرَ ممن يطوفُ بالبيت فلا يموت ولا يعرض له عارض يمنعه من الطواف.

وجاء في «تفسير الكشاف»: «صدقه في رؤياه ولم يكذبه، تَعالى الله عن الكذب وعن كل قبيح علواً كبيراً...

(إن شاء الله) في إخبار الله عز وجل، قلتُ فيه وجوه: أن يعلق عِدَته بالمشيئة تعليماً لعباده أنْ يقولوا في عِداتهم مثل ذلك متأدبين بأدبِ الله ومقتدينَ بسنته... أو هي حكاية ما قال رسولُ الله ﷺ لأصحابه وقَصَّ عليهم.

﴿فجعل من دون ذلك﴾ أي: من دون فتح مكة.

﴿فتحاً قريباً﴾ وهو فتح خيبر لتستروحَ إليه قلوبُ المؤمنين إلى أن يتيسَّرَ الفتحُ

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/٢٠١.

الموعود.

﴿ليظهره﴾ لِيُعْليه ﴿على الدين كله﴾ على جنس الدين كله، يريد الأديان المختلفة.. وفي هذه الآية تأكيدٌ لما وعد من الفتح وتوطينٌ لنفوس المؤمنين على أن الله تعالى سيفتح لهم من البلاد ويقيض لهم من الغَلَبة على الأقاليم ما يستقلون إليه فتح مكة»(١).

«وقال أبو عبيدة: إن بمعنى إذْ يعني إذ شاء الله حيث أَرى رسولَهُ ذلك».

﴿وكفى بالله شهيداً﴾: أي كفى الله شهيداً على هذا الإظهار الذي وعد المسلمين به وعلى صحة نبوة نبيه ﷺ»(٢).

وهاتان الآيتان فيهما أعلام صادقة واضحة على نبوته ﷺ هي:

١- الوعد بدخول المسجد الحرام، وقد أكَّدَ اللهُ هذا الأمر بلام القسم ونون التوكيد فقال: «لقد صدق الله. لتدخلن المسجد الحرام» وهذا تأكيدٌ بالغ.

وأما قوله (إن شاء الله) فليس تعليقاً، ولو كان تعليقاً لم يكنْ تصديقاً للرؤيا. فإنه إنْ لم ينجز الله وعده ويدخلوا المسجد الحرام فهل يعد هذا تصديقاً للرؤيا؟

فقوله: ﴿لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق﴾ دَلَّ على أنَّ قوله ﴿إن شاء الله﴾ ليس استثناء وإلا لم يكنْ تَصديقاً، وهذا واضح.

وقد تَحقَّقَ هذا الوعدُ في العام القابل فكان إخباراً صادقاً ودلَّ على صحة نبوته.

٢- إن الله وعدهم فتحاً قريباً قبل تحقق الرؤيا فقال: ﴿فجعل من دون ذلك فتحاً قريبا﴾ أي: فجعل من دون دخول المسجد الحرام فتحاً قريباً.

وقد تحقق هذا الوعدُ فقد فُتحت خيبر بعد انصرافهم من الحديبية.

٣- ثم إن الله وعدهم بإظهار دين الإسلام على سائر الأديان بقوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ ﴾ وقد تم ذاك فاتضح أن هذا

---

(١) الكشاف ٣/١٤١، وانظر تفسير الطبري ٢٦/١٠٧، تفسير القرطبي ١٦/٢٩٠، التفسير الكبير ٢٨/١٠٥.

(٢) فتح القدير ٥/٥٣-٥٤.

من أعلام نبوته ﷺ.

٨- الوعد بالفتوحات والمغانم:

وهي وعود كثيرة وردت في القرآن الكريم وكل منها عَلَمٌ برأسه ودلالةٌ صادقة على نبوته ﷺ.

فقد كان ﷺ يعد المسلمين بالنصر والتمكين في الأرض وكان المنافقون يقولون: هذا من الغرور، وحكى الله عنهم هذا القول فقال في سورة الأحزاب: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾ [الأحزاب].

وهذه الآية مما نزل في وقعة الأحزاب حيث انتشر الرعبُ في المدينة ونجمَ النفاقُ وكان رسول الله ﷺ يَعِدُهم كنوزَ كسرى وقيصر حتى قال معتب بن قشير أخو بني عمرو بن عوف: كان محمد يعدنا أنْ نأكلَ كنوز كسرى وقيصر وأحدنا لا يقدرُ على أنْ يذهبَ إلى الغائط[1].

والآية هذه تدل دلالةً واضحة على أن الرسول كان يَعِدُهم بالنصرِ والظفر وإلا فلا معنى لهذا القول، وقد حَقَّقَ اللهُ الوعدَ فكان عَلَماً على نبوته.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾﴾ [الأنفال].

وهذه الآية نزلت في وقعة بدر وكان رسول الله ﷺ يقول: إنَّ الله وعدني إحدى الطائفتين إما العير (أي القافلة) وإما النفير (أي النصر في الحرب) وكان أصحابه يودون أن تكون لهم القافلة. قال ابن كثير: «والغرض أن رسول الله ﷺ لما بلغه خروجُ النفير أوحى الله إليه يَعِدُه إحدى الطائفتين إما العير وإما النفير ورغب كثير من المسلمين إلى العير لأنه كسبٌ بلا قتال كما قال تعالى: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾..

ثم قال الرسول ﷺ: «سيروا على بركة الله وأبشروا فإنَّ الله قد وعدني إحدى

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/٤٧٢، وانظر القرطبي ١٤/١٧٤، الطبري ٢١/١٣٣، الكشاف ٢/٥٣٣، فتح القدير ٤/٢٥٨، تثبيت دلائل النبوة ٢/٤٥١.

الطائفتين والله لكأنّي الآن أنظرُ إلى مصارع القوم»[1].

وفي هذه الآية عَلَمان من أعلام النبوة:

١- إن الرسول كان وعدَهم إحدى الطائفتين قبل المعركة. وكانوا يودون أن تكون لهم القافلة (غير ذات الشوكة) كما ثبت ذلك من الآية.

٢- في هذه الآية إخبارٌ بأنَّ الله يريد أن يُحِقَّ الحق ويقطعَ دابر الكافرين وقد تم هذان الأمران فأعطاه إحدى الطائفتين بأنْ نصره على القوم وأحقَّ الله الحق بأنْ أعلى الإسلامَ وقطع دابرَ الكافرين كما وعد الله.

فانتهض ذلك دليلاً على نبوة محمد ﷺ.

ومن هذه الوعود قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾﴾ [الفتح].

هاتان الآيتان من سورة الفتح وسورة الفتح نزلت كلها عند الانصراف من الحديبية[2].

ونذكر في هاتين الآيتين عَلَمين من أعلام النبوة:

١- إن الله وعدهم بأخذِ مغانمَ في المستقبل وهي مغانمُ خيبر. ولا يهمنا أن تكون هي مغانم خيبر أو غيرها فالمهم أنَّ الله وعدهم بأخذِ مغانم وقد تَمَّ ذاك. وهذه الآية نزلت قبل أخذ المغانم والنصُّ يدل على ذلك بصورة قاطعة. انظر إلى قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا﴾ فسينُ الاستقبال وإذا الشرطية يقطعان بذلك إضافةً إلى ما ورد من الآثار الصحيحة، قال الحافظ ابن كثير: «فإن الله قد وعد أهل الحديبية بمغانم خيبر وحدهم لا يشاركهم فيها غيرهم من الأعراب المتخلفين فلا

---

(١) ابن كثير ٢/ ٢٨٧-٢٨٩، وانظر الكشاف ٢/ ٤-٥، الطبري ٩/ ١٨٤-١٨٨، القرطبي ٧/ ٣٦٩، فتح القدير ٢/ ٢٧٤.

(٢) تفسير الطبري ٢٦/ ٦٨، تفسير ابن كثير ٤/ ١٨٢، أسباب النزول ٤٠٣.

يقع غير ذلك شرعاً ولا قدراً»[١].

٢- إخبار من الله للمخلَّفين من الأعراب بأنهم سَيُدْعَوْنَ إلى القتالِ في المستقبل واختلف المفسرون في هؤلاء القوم الذين يدعى إليهم المُخَلَّفون على أقوال:

أحدها: إنهم هوازن، الثاني: ثقيف، الثالث: بنو حنيفة، الرابع: هم أهل فارس والروم وغير ذلك[٢].

ولا يهمنا تسميةُ هؤلاء الأقوام أو أن يكونوا هؤلاء أو غيرهم، فهو على أيٍّ حال وعد بأنهم سَيُدعون إلى القتال وقد دُعوا فعلاً إلى هؤلاء جميعاً فتحقق الوعد فكان هذا علماً من أعلام نبوته.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ [الفتح].

وفي هذه الآيات إخبار عن غيوب كثيرة:

١- تزكيةُ المؤمنين المبايعين تحت الشجرة والاطلاع على قلوبهم وإعلانُ الرضا عنهم وهم عدد كثير. ولا شك أن الأمرَ كما قال إذ لو كان في إيمان أحدهم دَخَلٌ لشكَّ وارتابَ وأعلنَ ارتدادَهُ وكفرَهُ وتكذيبه لمحمد.

ولو كان القرآنُ من صُنْع محمد لم يقدم على هذا الإعلان الخطير إذ ما يدريه لعل منهم مَنْ هو مُبطنٌ للكفر أو من سيرتدُّ عِلْماً بأن محمداً كان يقول: «وإن أحدكم ليعملُ بعملِ أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبقُ عليه الكتابُ فيعملُ بعمل أهل النار فيدخلها». وكان يقول: «القلوبُ بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلِّبها كيف يشاء». وكان كثيراً ما يدعو: «يا مُقَلِّبَ القلوب ثَبِّتْ قلبي على دينك».

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ١٨٩، وانظر الطبري ٢٦/ ٧٩، القرطبي ١٦/ ٢٧٠-٢٧٢، الكشاف ٣/ ١٣٨، الرازي ٢٨/ ٩٠، فتح القدير ٥/ ٤٧.

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٤/ ١٩٠، تفسير الطبري ٢٦/ ٨٢، الكشاف ٣/ ١٣٨، فتح القدير ٥/ ٤٩.

فدلَّ ذلك على صحة هذا الإخبار وهو غيبٌ لا يعلمه إلا الله، فإنه لا يعلمُ دخائلَ القلوبِ غير الله.

٢- ذكر أنه أثابهم فتحاً قريباً، أي: أعطاهم فتحاً قريباً. وهذه الآيات كما ذكرنا نزلت في الطريق عند الانصراف من الحديبية. واختلف المفسرون في هذا الفتح القريب أهو فتح مكة أم خيبر أم غيرهما(١). جاء في «فتح القدير»: «هو فتح خيبر عند انصرافهم من الحديبية»(٢).

ولا يهمنا تسمية هذا الفتح فقد حصل الفتح القريب وهو خيبر وتوالت بعده الفتوح فكان كما أخبر.

والأظهر أنه فتح خيبر لأنه سماه فتحاً قريباً وقد حصل عند انصرافهم من الحديبية.

وفي هذا غيب آخر وهو أن هذا الفتح القريب هو للمبايعينَ تحتَ الشجرة لا يُشاركهم فيه غيرهم لأنه قال ﴿وأثابهم فتحاً قريباً﴾ والكلامُ على المبايعين تحت الشجرة. وقد تم ذاك فعلاً فلم يشاركهم فيه أحد.

٣- إن الله وعدهم مغانمَ كثيرة يأخذونها فعجَّلَ لهم هذا المغنم القريب وهو مغنم خيبر. وهذا وعدٌ قاطع بفتح خيبر وأخذ مغانمها، ووعد بمغانم كثيرة ستأتي في المستقبل. وقد تم هذا فقد توالت المغانم والفتوحات كما أخبر الله.

جاء في تفسير ابن كثير في قوله ﴿وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها﴾: «هي جميع المغانم إلى اليوم»(٣).

٤- أخبر الله بهذه الوعود ﴿لتكون آية للمؤمنين﴾ أي: لتكون علامةً دالة على صِدْقِ الرسول والدلالة على نبوته. وقد تمت هذه الوعود فحصلت الدلالة على هذا المقصد وكانت آية للمؤمنين على صدق الرسول وعلى صدق ما أخبر الله به.

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/١٩١، الكشاف ٣/١٣٩.

(٢) فتح القدير ٥/٤٩، وانظر الرازي ٢٨/٩٦، الطبري ٢٦/٨٨-٩٠، القرطبي ١٦/٢٧٤-٢٧٨.

(٣) ابن كثير ٤/١٩١، وانظر الكشاف ٣/١٣٩، الطبري ٢٦/٨٨، تفسير الرازي ٢٨/٩٦، القرطبي ١٦/ ٢٧٤- ٢٧٨، فتح القدير ٥/٤٩.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾ [الأحزاب]. فإن الله وعد المؤمنين بعد أنْ أورثهم أرضَ بني قريظة بأنْ يُورثهم أرضاً لم يطؤوها وهي كلُّ أرضٍ تُفتح إلى يوم القيامة[١] وقد تم ذاك بحمد الله..

ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ﴿٢٨﴾﴾ [التوبة].

فقد وعد الله قريشاً بالغنى عن المشركين وقد حصل ذاك. قال ابن كثير «قال محمد بن إسحاق: وذلك أن الناس قالوا: لَتُقْطعنَّ عنا الأسواقُ ولتهلكن التجارةُ وليذهبنَّ عنا ما كنا نصيبُ فيها من المرافق فأنزل الله ﴿وإن خفتم عيلة﴾»[٢].

وجاء في تفيسر القرطبي: «وكان المسلمون لما منعوا المشركين من الموسم وهم كانوا يجلبون الأطعمة والتجارات قذف الشيطان في قلوبهم الخوف من الفقر وقالوا: من أين نعيش؟ فوعدهم الله أن يُغنيهم من فضله... وأغنى الله من فضله»[٣].

وقال الفخر الرازي: «قوله ﴿فسوف يغنيكم الله من فضله﴾ إخبارٌ عن غيب في المستقبل على سبيل الجزم في حادثة عظيمة وقد وقع الأمر مطابقاً لذلك الخبر فكان معجزة»[٤].

ومن ذلك إخباره بالفتح قبل حصوله قال تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾﴾ [الفتح].

واختلف المفسرون في هذا الفتح فقيل: فتح مكة، وقيل: خيبر، وقيل: فتح الروم[٥]. والظاهر أن هذا لا يختص بفتح مكة وإنما هو إخبارٌ بالفتح عموماً فكان كما

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٣٥-٥٣٦، القرطبي ١٤/ ١٦١، فتح القدير ٤/ ٢٦٥-٢٦٦.

(٢) تفسير ابن كثير ٨/ ١٠٦.

(٣) تفسير القرطبي ٨/ ١٠٦.

(٤) تفسير الرازي ١٦/ ٢٧.

(٥) تفسير ابن كثير ٤/ ١٨٢، تفسير الطبري ٢٦/ ٧٠، الرازي ٢٨/ ٧٧، تفسير القرطبي ١٦/ ٢٦٠، الكشاف ٣/ ١٣٥، فتح القدير ٥/ ٤٢.

أخبر الله وهو غيب.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ (٥٢)﴾ [المائدة].

فقد ذكر الله أن المنافقين يتولون اليهود والنصارى ويسارعون فيهم قائلين نخشى أنْ تُصيبنا دائرة ولكن الله ألمح إلى الفتح فقال: ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾. وهو إلماح إلى الوعد بالإتيان بالفتح و(عسى) في كلام الله واجب لا يتخلف.

جاء في «الكشاف»: «فعسى الله أن يأتي بالفتح لرسول الله ﷺ على أعدائه وإظهار المسلمين أو أمرٍ من عنده يقطع شأفةَ اليهود ويجليهم عن بلادهم فيصبح المنافقون نادمين على ما حدَّثُوا به أنفسهم وذلك أنهم كانوا يشكّون من أمر رسول الله ﷺ ويقولون: «ما نظنُّ أن يتمَّ له أمر»[(١)]».

وجاء في «فتح القدير»: «وعسى في كلام الله وعدٌ صادق لا يتخلف. والفتح ظهور النبي ﷺ على الكافرين. ومنه ما وقع من قتل مقاتلة بني قريظة وسبي ذراريهم وإجلاء بني النضير، وقيل: هو فتح بلاد المشركين على أيدي المسلمين. وقيل فتح مكة»[(٢)].

ومثل هذا الإلماح قوله تعالى: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٧)﴾ [الممتحنة].

وهو إلماح إلى فتح مكة وتأليف القلوب بعدما حصل ما حصل، فإن هذه الآية نزلت في حاطب بن أبي بلتعة الذي أرسل رسالة إلى قريش يخبرهم بتوجه رسول الله إليهم يريد أن يتخذ عندهم يداً فكان مما قاله الله هذا القول.

وقد تم ذاك كما أخبر فأزال الضغائن والإحن وأحلَّ المودةَ محلها.

وهذه كما ترى غيوبٌ كثيرة قد تحققتْ كلها، وكلٌّ منها عَلَمٌ برأسهِ وحجةٌ قاطعة

---

(١) الكشاف ١/٤٦٥، ابن كثير ٢/٦٨، القرطبي ٦/٢١٨.

(٢) فتح القدير ٢/٤٧-٤٨، وانظر تفسير الطبري ٦/٢٨٠، تفسير الرازي ١٢/١٦.

على نبوة محمد ﷺ فكيف باجتماعها؟!

٩- الإخبار بحوادث خاصة:

وهي غيوب كثيرة منها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾﴾ [التحريم].

والحادثة أن رسول الله أَسرَّ إلى حفصةَ بنت عمر زوجه حديثاً واستكتمها إياه لكنها أَفْشتهُ إلى عائشةَ فأَطْلعه الله على هذا الإفشاء فخبَّرَ حفصةَ بذلك فسألته عمن أخبره، فقال: إنما أخبرني به اللهُ تعالى»(١).

ولا يهمنا الآن ما هو السر ولا مَنْ هي الزوج التي أباحت سِرَّ رسول الله، فأياً كان السرُّ وأياً كانت الزوج فالمسألةُ واحدة وهي أن الله أطلعَ رسوله على هدا الإفشاء.

لعلك تقول: لعل زوجه الأخرى هي التي أخبرته.

فنقول: هذا مردود لأن محمداً ادعى أن الله أظهره عليه وليس بشراً. انظر إلى قوله تعالى: ﴿وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ وإلى قوله: ﴿قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾.

فلو كان المُخْبِرُ غيرَ الله لَعَدَّ محمد كاذباً ولارتاب مخبره وارتد وفضحَ هذا الأمرَ وقال: أنا الذي أخبرتهُ فادَّعى أن الله أخبره.

ومحمدٌ في سَعةٍ عن هذا الأمر وفي غِنى عن هذا الادعاء والدخول في هذا المدخل وجعلهِ قرآناً يتلى على رؤوس الأشهاد. فدل ذلك على أن الله هو الذي أخبره. وهذا غيبٌ وهو ينهضُ دليلاً برأسه على نبوة محمد ﷺ.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ ﴿١﴾﴾ [الممتحنة].

هذه الآية نزلت في حاطب بن أبي بلتعة الذي أرسل كتاباً مع امرأة مشركة إلى قريش

---

(١) الكشاف ٣/٢٤٥-٢٤٦، تفسير الطبري ٢٨/١٥٩-١٦٠، تفسير القرطبي ١٨/١٨٦، فتح القدير ٥/٢٣٤، أسباب النزول للواحدي ٤٦٨-٤٦٩.

يخبرهم بتوجُّهِ رسولِ الله إليهم فأطلعه الله عليه فأرسل رسول الله علياً والزبير والمقداد إلى المرأة وهي في الطريق فجاؤوا بالكتاب، جاء في صحيح البخاري بطرق متعددة عن سفيان عن عمرو بن دينار عن حسن بن محمد عن عبيد الله بن أبي رافع عن علي وبطرق متعددة عن حصين عن سعد بن عبيدة عن أبي عبد الرحمن السلمي عن علي.

عن عبيد الله بن أبي رافع قال: سمعت علياً رضي الله عنه يقول: بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد بن الأسود قال: انطلقوا حتى تأتوا روضةَ خاخ فإنَّ بها ظعينةً ومعها كتابٌ فخذوه منها فانطلقنا تَعادَى بنا خيلنا حتى انتهينا إلى الروضة فإذا نحنُ بالظعينة فقلنا: أخرجي الكتاب. فقالت: ما معي من كتاب. فقلنا: لَتُخْرِجِنَّ الكتابَ أو لَنُلقين الثياب. فأخرجته من عقاصها فأتينا به رسولَ الله ﷺ فإذا فيه من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناس من المشركين من أهل مكة يخبرهم ببعضِ أمرِ رسول الله ﷺ. فقال رسول الله ﷺ: يا حاطب ما هذا؟ قال: يا رسول الله لا تعجلْ عليَّ إني كنتُ امرءاً مُلْصقاً في قريش ولم أكنْ من أنفسها وكان مَنْ معكَ من المهاجرين لهم قراباتٌ بمكة يحمون بها أهليهم وأموالهم فأحببتُ إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أنْ أَتَّخذَ عندهم يداً يحمون بها قرابتي وما فعلتُ كفراً ولا ارتداداً ولا رِضاً بالكفر بعد الإسلام. فقال رسول الله ﷺ: لقد صَدَقكم. قال عمر: يا رسول الله دَعْني أضرب عنقَ هذا المنافق. قال: «إنه قد شهد بدراً وما يُدريكَ لعلَّ الله أن يكونَ قد اطَّلَعَ على أهلِ بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرتُ لكم».

وأخرجه مسلم والنسائي والترمذي والبيهقي وابن عبد البر في الاستيعاب وابن أبي حاتم وذكرها جمهور المفسرين[1] وأصحاب المغازي والسير.

وهذا غيبٌ من الغيوب وهو يدل على نبوة رسول الله ﷺ.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ ﴿٩﴾﴾ [الحشر] ذكر البخاري ومسلم أن سبب نزول هذه الآية أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: إني مجهود. فأرسل إلى بعض نسائه فقالت: والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء، ثم

---

(١) الطبري ٢٨/٥٨، القرطبي ١٨/٥٠-٥٢، الكشاف ٣/٢١٩، ابن كثير ٤/٣٤٥، فتح القدير ٥/٢٠٤، أسباب النزول ٤٤٧.

أرسل إلى أخرى فقالت مثلَ ذلك حتى قُلن كلهن مثل ذلك: لا والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء. فقال: مَنْ يُضيف هذا الليلةَ رحمه الله؟ فقام رجل من الأنصار فقال: أنا يا رسولَ الله. فانطلق به إلى رَحْلِه فقال لامرأته: هل عندك شيء؟ قالت: لا إلا قوتُ صبياني. قال: فعلِّليهم بشيءٍ فإذا دخل ضيفنا فأطفئي السراج وأَريه أنَّا نأكل فإذا أهوى ليأكلَ فقومي إلى السِّراج حتى تُطفئيه قال: فقعدوا وأكل الضيف فلما أصبح غدا على النبي ﷺ فقال: قد عجبَ اللهُ من صنيعكما بضيفكما الليلة(١).

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ۝ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ۝ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ۝ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ۝ ... وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ۝﴾ [النساء].

أخرج الترمذي وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والحاكم وصححه عن قتادة بن النعمان رضي الله عنه قال: كان أهلُ بيتٍ منا يقال لهم بنو أُبيرق بِشْر وبشير ومبشر وكان بشير رجلاً منافقاً يقول الشعرَ يهجو به أصحابَ رسول الله ﷺ ثم ينحله لبعض العرب ثم يقول: قال فلان كذا وكذا، وقال فلان كذا وكذا، فإذا سمع أصحاب رسول الله ﷺ قالوا: والله ما يقولُ هذا الشعرَ إلا هذا الرجل الخبيث أو كما قال الرجل وقالوا ابن الأبيرق قالها. قالوا: وكانوا أهلَ بيتٍ وحاجة وفاقةٍ في الجاهلية والإسلام وكان الناس إنما طعامهم بالمدينة التمر والشعير، وكان الرجل إذا كان له يَسارٌ فقَدِمَتْ ضافطةٌ من الشام من الدرمك ابتاع الرجلُ منها فخص بها نفسه، وأما العيالُ فإنما طعامهم التمر والشعير. فقدمت ضافطة من الشام فابتاع عمي رفاعة بن زيد حملاً من الدرمك فجعله في مَشْربة له، وفي المشربة سلاحٌ ودرع وسيف فَعُدِي عليه من تحت البيت فنقبت المشربة وأخذ الطعام والسلاح فلما أصبح أتاني عمي رفاعة فقال: يا ابن أخي إنه قد عُدِيَ علينا في ليلتنا هذه فنقبت مشربتنا فذهب بطعامنا وسلاحنا. قال:

---

(١) انظر أسباب النزول للواحدي ٤٤٥-٤٤٦. فتح القدير ١٩٧/٥.

فتحسَّسْنَا في الدار وسألنا فقيل لنا: قد رأينا بني أبيرق استوقدوا في هذه الليلة ولا نرى فيما نرى إلا على بعض طعامكم قال: وكان بنو أبيرق قالوا - ونحن نسأل في الدار - والله ما نَرى صاحبَكم إلا لبيدَ بن سهل، رجلاً مِنَّا له صلاحٌ وإسلام. فلما سمع لبيدٌ اخترطَ سيفه وقال: أنا أسرق! والله لِيُخالِطَنَّكُم هذا السيفُ أو لتبيننَّ هذه السرقة. قالوا: إليكَ عنا أيها الرجلُ فما أنتَ بصاحبها. فسألنا في الدار حتى لم نشك إنهم أصحابها. فقال لي عمي: يا ابن أخي لو أتيتَ رسولَ الله ﷺ فذكرتَ ذلك له. قال قتادة: فأتيتُ رسولَ الله ﷺ فقلتُ: إن أهلَ بيتٍ أهل جفاء عمدوا إلى عمي رفاعة بن زيد فنقبوا مشربة له وأخذوا سلاحه وطعامه، فليردُّوا علينا سلاحنا فأما الطعامُ فلا حاجة لنا فيه. فقال النبي ﷺ: سآمر في ذلك.

فلما سمع بذلك بنو أبيرق أتوا رجلاً منهم يقال له أسيد بن عروة فكلَّموه في ذلك فاجتمع في ذلك أناسٌ من أهل الدار فقالوا: يا رسول الله إن قتادة بن النعمان وعمه عمدا إلى أهلِ بيتٍ منا أهل إسلام وصلاحٍ يرمونهم بالسرقةِ من غير بينة ولا ثبت. قال قتادة: فأتيتُ النبيَّ ﷺ فكلَّمتهُ فقال: عمدت إلى أهل بيت ذكر منهم إسلام وصلاح ترميهم بالسرقة على غير ثبت ولا بينة.

قال: فرجعتُ ولَوِددتُ أني خرجت من بعض مالي ولم أُكَلِّمْ رسولَ الله ﷺ في ذلك. فأتاني عمي رفاعة فقال: يا ابن أخي ما صنعتَ؟ فأخبرته بما قال لي رسول الله ﷺ. فقال: الله المستعان. فلم نلبثْ أنْ نزلَ القرآن ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾﴾ يعني بني أبيرق (واستغفر الله) مما قلت لقتادة... (فلما نزل القرآن أتى رسول الله ﷺ بالسلاح فرده إلى رفاعة...) الحديث(١).

ومن ذلك ما جاء في تبرئة عائشة من الإفك وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ﴿١١﴾﴾ [النور].

بقيت الألسنة تَلُوكُ حادثةَ الإفك شهراً والرسول لا يُوحَى إليه - كما جاء في صحيحي البخاري ومسلم - وهو حائرٌ متردد في أمر عائشة يسأل ويستشير، والمنافقون

---

(١) تفسير الطبري ٥/٢٦٤، القرطبي ٥/٣٧٥، تفسير ابن كثير ١/٥٥١-٥٥٣، فتح القدير ١/٤٧٤.

يشيعون الفاحشة ويتولون كِبْرَ الإثمِ حتى وقع فيها مَنْ وقع من المسلمين. ثم جاءها الرسولُ في بيت أهلها ثم قال لها: يا عائشة فإنه بلغني عنك كذا وكذا فإنْ كنت بريئةً فسيبرئك اللهُ وإنْ كنت ألممتِ فاستغفري الله وتوبي إليه فإنَّ العبدَ إذا اعترفَ بذنبه ثم تابَ تابَ اللهُ عليه.

وعائشة لم تُجِبْ رسولَ الله.

فوالله ما رامَ مجلسه ولا خرجَ أحدٌ من أهلِ البيت حتى أُنزلَ عليه فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء حتى إنه ليتحدَّرُ منه مثل الجمان من العَرَقِ في يوم شاتٍ. فلما سُرِّيَ عن رسول الله ﷺ وهو يضحكُ فكان أول كلمة تكلم بها أنْ قال لي: يا عائشة احمدي الله فقد برَّأكِ الله.

فقالت لي أمي: قومي إلى رسول الله ﷺ فقلتُ: لا والله لا أقومُ إليه ولا أحمدُ إلا الله. فأنزل الله تعالى: ﴿إن الذين جاؤوا بالإفك﴾.

إنه من الواضح إنه لا يعلم ببراءة عائشة أحد من البشر إلا اثنان هما عائشة وصفوان بن المعطل، وهما وحدهما اللذان يملكان المعرفة الصحيحة، فإقدامُ محمد على تبرئتها بقرآنٍ يُتلى أمرٌ عجيب لا يمكن أن يُقْدِمَ عليه محمد من نفسه، إذ ما يُدريه لعل الأمر على غير ذلك فيفتضح ادعاؤه ويتبين كذبه فترتاب عائشة ويرتد صفوان؟

كان يكفيه السكوت أو أي موقف آخر حتى تهدأَ الفتنةُ وتسكنَ القَالةُ، ولكن إقدامه على هذا الأمر وإعلانه براءة عائشة بقرآنٍ يُتلى يدل قطعاً على أن الذي برأها هو الله الذي يعلم الغيب.

ثم لنلحظ موقفَ الرسول من عائشة فبعد أن كان موقف التردد والحيرة تحول بعد الوحي فجأة إلى موقف الثقة والاطمئنان، وهذا التحول لا يمكنه أن يكون لو لم يكن واثقاً ببراءتها بإخبار من الله تعالى.

١٠- الوعد بأمور قريبة:

من ذلك قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ ﴾ [المائدة].

هذا إخبار من الله بحادثٍ قريب وهو أن الله سيختبرهم بصيدٍ قريبٍ منهم تَنالهُ رماحهم وأيديهم وهم مُحْرِمون ليعلم الله مَنْ يُطيعه في عدم قتله لأنهم في حالِ إحرامٍ وقد حصل ذلك فكانت الوحش والطير والصيد تغشاهم في رحالهم لم يروا مثله قط فيما خلا[1].

فهو كما ترى إخبارٌ عن شيء قبل حدوثه، فهو غيبٌ من الغيوب فدلّ ذلك على نبوته.

ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [البقرة].

جاء في «الكشاف»: «وإنما وعدهم ذلك قبل كونه ليوطِّنُوا عليه نفوسهم»[2] وجاء في «الانتصاف من الكشاف»: «لأن هذا الابتلاء موعود به في المستقبل مذكور قبل وقوعه توطناً عليه عند الوقوع»[3].

وقد حصل ذاك فقام دليلاً على نبوته.

١١- تحدي اليهود في تمني الموت:

تحدى القرآنُ اليهودَ في تمني الموت مرتين فقال: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾﴾ [الجمعة].

وقال: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [البقرة].

ووجه الدليل في ذلك أن القرآنَ طلب من اليهود أن يتمنوا الموتَ، أي: أن يتقدم أي واحد منهم فيقول بلسانه: أنا أتمنى الموت ثم أخبر أنهم لن يتمنوه أبداً، فما تمناه أحد منهم مع حرصهم على تكذيب الرسول وكيدهم له فقام ذلك دليلاً صادقاً

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٩٧، وانظر تفسير الرازي ١٢/ ٨٥.
(٢) الكشاف ١/ ٢٤٧.
(٣) الانتصاف من الكشاف ١/ ٢٤٧.

على نبوته.

وهذا عَلَمٌ عظيم من أعلام نبوته إذ كيف يعلن الرسول تحدياً عاماً لليهود فيدعوهم لتمني الدوت ويقول: إنه لا يتمناه أحد منهم إلا مات، ثم يخبر أنه لن يتمنى أحد منهم الموت، وما يدريه فلعلَّ أحداً ممن يعتقد كذب الرسول يتقدم فيتمنى الموت وهم جموع كثيرة فيفتضح ادعاؤه الكاذب؟ ثم ما الموجب لمثل هذا التحدي؟

فدل هذا أصدق دليل على أن التحدي ليس من محمد وإنما هو ممن يعلم الغيب.

قال ابن تيمية: «فأخبر عن اليهود إنهم لم يتمنوا الموت أبداً وكان كما أخبر فلا يتمنى اليهود الموت أبداً. وهذا دليل من وجهين:

من جهة إخباره بأنه لا يكون أبداً، ومن جهة صَرْفِ الله لدواعي اليهود عن تمني الموت مع أن ذلك مقدور لهم وهذا من أعجب الأمور الخارقة للعادة وهم مع حرصهم على تكذيبه لم تنبعث دواعيهم لإظهار تكذيبه بإظهار تمني الموت»[١].

وجاء في «الفصل في الملل»: «ومن أبهر ذلك وأعظمه قوله لليهود الذين كانوا معه في وقته وهم زيادة على ألف بلا شك ولعلهم كانوا ألوفاً وهم بنو قريظة وبنو النضير وبنو أهدل وبنو قينقاع أن يتمنوا الموت إن كانوا صادقين في تكذيبهم نبوته. وأعلمهم أنهم لا يستطيعون ذلك أصلاً فعجزوا عن ذلك، أي عن تمني الموت»[٢].

وجاء في «فتح القدير»: «والمراد بالتمني هنا هو التلفظ بما يدل عليه لا مجرد خطوره بالقلب وميل النفس إليه فإن ذلك لا يراد في مقام المحاجة ومواطن الخصومة ومواقف التحدي. وفي تركهم للتمني أو صرفهم عنه معجزةٌ لرسول الله ﷺ»[٣].

وجاء في «تفسير ابن كثير»: «ولو تمنّوه يومَ قالَ لهم ذلك ما بقيَ على الأرضِ يهوديٌّ إلا مات... قال ابن عباس: لو تمنى يهود الموت لماتوا...»[٤].

---

(١) الجواب الصحيح ٤/ ١٣١.

(٢) الفصل في الملل ١/ ٨٣.

(٣) فتح القدير ١/ ٩٧.

(٤) تفسير ابن كثير ١/ ١٢٧.

«وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل بن يزيد الرقي أبو زيد حدثنا قرة عن عبد الكريم بن مالك الجزري عن عكرمة عن ابن عباس قال: قال أبو جهل قَبَّحه الله: إنْ رأيتُ محمداً يصلي عند الكعبة لآتينَّهُ حتى أطأَ على رقبتِهِ، فقال: لو فعل لأخذَتْهُ الملائكةُ عياناً، ولو أنَّ اليهود تمنوا الموت لماتوا ولرأوا مقاعدهم من النار، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ رجعوا لا يجدون مالاً ولا أهلاً...

وقد رواه البخاري والترمذي والنسائي من حديث عبد الرزاق عن معمر عن عبد الكريم به. وقال الترمذي: حسن صحيح»[1].

وجاء في «التفسير الكبير»: «إنه لو حصل ذلك - أي لو تمنى اليهود الموت - لنقل نقلاً متواتراً لأنه أمرٌ عظيم فإن بتقديرِ عدمهِ يثبتُ القولُ بصحةِ نبوةِ محمد ﷺ وبتقديرِ حصولِ هذا التمني يبطلُ القولُ بنبوته...

وهذا إخبارٌ عن الغيب لأن مع توفر الدواعي على تكذيب محمد ﷺ وسهولة الإتيان بهذه الكلمة أخبر بأنهم لا يأتون بذلك، فهذا إخبار جازم عن أمرٍ قامت الأمارات على ضده فلا يمكن الوصول إليه إلا بالوحي»[2].

وجاء في «الجواب الفسيح لما لفقه عبد المسيح»: «والمراد بالتمني القولُ ولا شك أنه عليه الصلاة والسلام مع تقدمه في الرأي والجزم وحُسْنِ النظر في العاقبة... لا يجوزُ وهو غير واثقٍ من ربه سبحانه بالوحي أن يتحدى أعدى الأعداء بأمرٍ لا يأمنُ عاقبةَ الحال فيه ولا يأمنُ عن خصمهِ أن يقهره بالدليل والحجة لأن العاقل الذي لم يجرب الأمور لا يكاد يرضى بذلك فكيف الحال في أعقل العقلاء فثبتَ أنه ما قدم على هذا التحدي إلا بعد الوحي واعتماده الكامل، وكذا لا شك أنهم كانوا من أشد أعدائه وكانوا أحرصَ الناس على تكذيبه وإنهم لا يزالون متفكرين فيما يَنْمحي به الإسلامُ أو يحصل منه الذلة لأهله... وكان المطلوب منهم أمراً سهلاً لا صعوبة فيه فلو لم يكن رسول الله ﷺ صادقاً في دعواه لبادروا إلى القول به ليكذبوه ولصرحوا به ليوهنوه»[3].

---

(١) تفسير ابن كثير ١/٣٦٩، وانظر تفسير الطبري ١/ ٤٢٥.

(٢) التفسير الكبير ٣/ ١٩١-١٩٢.

(٣) الجواب الفسيح للألوسي ٢٧٥.

وجاء في «تثبيت دلائل النبوة»: «فما تمنوه مع هذا الاقتضاء والمطالبة التي تغيظ وتغضب ومع شدة عداوتهم لرسول الله ﷺ وحرصهم على تكذيبه وفضيحته وزلَّةٍ تكون منه وقد بذلوا في ذلك دماءهم وأموالهم وأولادهم وحاربوه وأعانوا عدوه عليه وتكلَّفوا كل شدة وكل مشقة في ذلك وما أقدموا على تمني الموت مع سهولته وقربه»(١).

١٢- الوعد بحفظ القرآن:

قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر].

لقد وعد الله بحفظ القرآن وتكفَّل به فكان كما وعد فتم جَمْعُ المصحف في زمن أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) فقد أمر أبو بكر زيد بن ثابت كاتبَ الوحي بجمعه فتتبع القرآن يجمعه من العسُب (جريد النخل) واللخاف (حجارة عريضة رقاق) وصدور الرجال حتى جمعه. فكانت الصحفُ عند أبي بكر حتى مات، ثم عند عمر حتى قبض، ثم عند حفصة بنت عمر.

وفي خلافة عثمان أرسل إلى حفصة أنْ أرسلي إلينا الصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك فأرسلت بها إليه فأمرَ زيد بن ثابت جامعها الأول وعبد الله بن الزبير وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف. حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة وأرسل إلى كل أُفق مصحفاً مما نَسخوا. فَحُفِظَ القرآنُ بذلك وتَمَّ وعدُ الله بذاك فكان كما أخبر فقام دليلاً على صِدْقِ نبوته.

وهذا الإخبار إنّما هو من الغيب إذ ما يُدري محمداً بهذا الحفظِ والأمان من الضياع أو التحريف؟ فلعل شأن القرآن شأن بقية الكتب السماوية التي ضاعت أو حرّفت وما المانع من ذلك؟

المانعُ هو تكفُّلُ اللهِ بحفظهِ فهيَّأَ الأسبابَ لذلك لكنهُ أوكلَ حِفظَ الكتب السماوية إلى أهلها فلم يتمكنوا، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۝٤٤﴾ [المائدة] فوكَلَ حفظَ

---

(١) تثبيت دلائل النبوة ٢/٤١١-٤١٢.

التوراة إليهم فلم يتمكنوا منه فلهذا دَخلَها التحريفُ والتبديل وكذلك شأن الكتب الأخرى.

١٣- الوعد بعصمة الرسول من الناس:

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴿٦٧﴾ ﴾ [المائدة].

وعد الله محمداً بأنْ يعصمه من الناس جميعاً ويحفظه منهم فكان ذلك فلم يَقْدِرْ أحدٌ على قتلِه على كثرة المحاولات.

وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله كان يُحرس حتى نزلت هذه الآية فأخرج رسول الله ﷺ رأسه وقال: يا أيها الناس انصرفوا فقد عَصَمنا اللهُ عز وجل.

ومن المحاولات لقتلِ رسول الله ﷺ ما جاء في صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله قال: غزونا مع رسول الله ﷺ غزوة قبل نجد فأدركنا رسولُ الله ﷺ في وادٍ كثيرٍ فنزل رسول الله ﷺ تحت شجرة فعلَّقَ سيفه بغصنٍ من أغصانها قال: وتفرق الناسُ في الوادي يستظلون بالشجر قال: فقال رسول الله ﷺ: إن رجلاً أتاني وأنا نائم فأخذَ السيفَ فاستيقظتُ وهو قائمٌ على رأسي فلم أشعر إلا والسيف صلتاً في يده فقال لي: مَنْ يمنعك مني؟ قال: قلت: الله. ثم قال في الثانية: من يمنعك مني؟ قال قلت: الله. قال: فشام السيف فها هوذا جالس ثم لم يعرض له رسول الله ﷺ(١).

وروى ابن أبي حاتم محاولة أخرى لقتله ﷺ.

ومن ذلك ما جاء في صحيحي البخاري ومسلم والاستيعاب ومسند الإمام أحمد والبيهقي وغيرها أن امرأة يهودية أتت رسول الله ﷺ بشاة مسمومة فأكل منها فجيء بها إلى رسول الله ﷺ فسألها عن ذلك فقالت: أردتُ لأقتلك. قال: ما كان اللهُ ليسلِّطكِ على ذاك. قال أو قال: عليّ. قال: قالوا: ألا نقتلها؟ قال: لا فما زلتُ أعرفها في

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٢/٣١، ٧٨-٧٩، القرطبي ٦/٢٤٤، تفسير الطبري ٦/٣٠٧-٣٠٨، تفسير الرازي ١٢/٥٠، فتح القدير ٢/٥٧، أسباب النزول للواحدي ١٩٦، طبقات ابن سعد ١/١/١١٣.

لهواتِ رسولِ الله ﷺ.

فاتَّضحَ أن الله كان قد عصمه كما أخبر وكما وعد فقام ذلك دليلاً على صدق نبوته.

جاء في «الكشاف»: «والله يعصمك: عِدة من اللهِ بالحِفظ والكلاءة. والمعنى: واللهُ يضمنُ لك العصمةَ من أعدائك فما عذرك في مراقبتهم؟»[1].

قال القرطبي: «قوله تعالى ﴿والله يعصمك من الناس﴾ دليل على نبوته لأن الله عز وجل أخبر أنه معصوم»[2].

وكان الله قد تحداهم قبل هذا مرتين في أن يكيدوا محمداً إن استطاعوا قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ [الأعراف].

وقال: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمۡ كَيۡدٞ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾﴾ [المرسلات] وهو تَحدٍّ سافرٌ بأن يكيدوه ولا يُمهلوه إذا كان ذلك بوسعهم.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾ [البقرة] وهذا وعدٌ من الله بأنه سيكفيه مَنْ عانده وخالفه.

جاء في «الكشاف»: «ضمانٌ من الله لإظهار رسول الله ﷺ وقد أنجز وعده بقتلِ قريظةَ وسبيهم وإجلاء بني النضير، ومعنى السين أن ذلك كائنٌ لا محالة وإنْ تأخرَ إلى حين»[3].

وجاء في «فتح القدير»: «وعد من الله لنبيه أنه سيكفيه مَنْ عانده وخالفه من المتولين وقد أنجز له وعده بما أنزله من بأسه بقريظة والنضير وبني قينقاع»[4].

وجاء في «التفسير الكبير»: «هذا إخبار عن الغيب فيكون معجزاً دالاً على صدقه، وإنما قلنا أنه إخبارٌ عن الغيب وذلك لأنا وجدنا مُخبرَ هذا القولِ على ما أخبر به لأنه

---

(١) الكشاف ١/ ٤٧٣-٤٧٤.

(٢) القرطبي ٦/ ٢٤٣، وانظر الجواب الفسيح ١٠٤-١٠٥.

(٣) الكشاف ١/ ١٤١، وانظر الطبري ١/ ٥٧٠، ابن كثير ١/ ١٨٧.

(٤) فتح القدير ١/ ١٢٧.

تعالى كفاه شَرَّ اليهود والنصارى ونصره عليهم حتى غلبهم المسلمون وأخذوا ديارهم وأموالهم فصاروا أذلاء في أيديهم يؤدون إليهم الخراج والجزية... وإنما قلنا أنه معجز لأن المتخرصَ لا يصيبُ في مثل ذلك على التفصيل»(١).

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [الحجر].

والمستهزئون هم رجالٌ بأعيانهم تمادوا في غيِّهم يستهزئون برسول الله ﷺ ويستهترون فأخبر الله محمداً بأنه كفاه هؤلاء. قال الحافظ ابن كثير: «قال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا يحيى بن محمد بن السكن حدثنا إسحاق بن إدريس حدثنا عون بن كهمس عن يزيد بن درهم عن أنس قال: سمعتُ أنساً يقول في هذه الآية ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴿٩٦﴾﴾ [الحجر] قال: مَرَّ رسولُ الله ﷺ فغمزه بعضهم فجاء جبريل أحسبه قال فغمزهم فوقع في أجسادهم كهيئةِ الطعنة فماتوا.

وقال محمد بن إسحاق: كان عظماء المستهزئين كما حدثني يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير خمسة، وكانوا ذوي أسنان وشرف في قومهم من بني أسد بن عبد العزى بن قصي الأسود بن المطلب أبو زمعة... ومن بني زهرة الأسود بن عبد يغوث بن وهب بن عبد مناف بن زهرة، ومن بني مخزوم الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم، ومن بني سهم بن عمر بن هصيص بن كعب بن لؤي العاص بن وائل بن هشام بن سعيد بن سعد، ومن خزاعة الحارث بن الطلاطلة بن عمرو بن الحارث بن عبد بن عمرو بن ملكان. فلما تمادوا في الشر وأكثروا برسول الله ﷺ الاستهزاءَ أنزل الله تعالى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

قال ابن إسحاق فحدثني يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير أو غيره من العلماء أن جبريل أتى رسول الله ﷺ وهو يطوف بالبيت فقام وقام رسول الله ﷺ إلى جنبه فمر به الأسود بن عبد يغوث فأشار إلى بطنه فاستسقى بطنه فمات منه، ومر به الوليد بن المغيرة فأشار إلى أثرِ جرحٍ بأسفل كعب رجله وكان أصابه قبل ذلك بسنين وهو يجر

---

(١) تفسير الرازي ٤/٩٥، وانظر تثبيت دلائل النبوة ٢/٤٠١.

إزاره وذلك أنه مر برجل من خزاعة يريش نبلاً له فتعلق سهم من نبله بإزاره فخدش رجله ذلك الخدشَ وليس بشيءٍ فانتقضَ به فقتله، ومَرَّ به العاص بن وائل فأشار إلى أخمص قدمه فخرج على حمار يريد الطائف فربض على شبرقة فدخلت في أخمصِ قدمه فقتلته، ومر به الحارث بن الطلاطلة فأشار إلى رأسه فامتخط قيحاً فقتله...

وهكذا روي عن سعيد بن جبير وعكرمة نحو سياق محمد بن إسحاق»(١). ولا يهمنا ذكر الأسماء وعددهم وإنما المهم أنْ نعلم أن هناك مستهزئين كانوا يستهزئون برسول الله فأعلن الله أنه كفاهم رسولَهُ فكان كما أخبر وهو عَلَمٌ من أعلام النبوة.

ونحو ذلك ما جاء في الوليد بن المغيرة: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَـٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ ... سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾﴾ [المدثر].

وفي هذا عَلَمان من أعلام النبوة.

١- إخباره بأن الوليد سيموت على الكفر ويصليه سقر فكان ذاك.

٢- إخباره بأن الله لن يزيده مالاً ولا ولداً بعد نزول الآية وذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَـٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾﴾ فلم يَزِدْهُ مالاً ولا ولداً حتى مات.

جاء في تفسير القرطبي: «كلا: أي ثم إن الوليدَ يطمع بعد هذا كله أنْ أزيده في المال والولد (كلا) أي ليس يكون ذلك مع كفره بالنعم... فلم يزل يرى النقصان في ماله وولده حتى هلك»(٢).

وفي القرآن أخبار عن غيوب كثيرة أخرى لا نريد استقصاءها وحسبنا منها ما يقيمُ الدليلَ ويُنير السبيلَ ويثبت الحجة، ونرى أن ما أوردناه كاف لهذا الأمر.

المباهلة:

قال تعالى: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٥٥٩-٥٦٠، وانظر الطبري ١٤/٦٩-٧٢، تفسير الرازي ٢٠/٢١٥، القرطبي ١٠/٦٢، فتح القدير ٣/١٤٠، تثبيت دلائل النبوة ٢/٣٤٤-٣٤٥.

(٢) القرطبي ١٩/٧٢، وانظر الطبري ٢٩/١٥٤، تثبيت دلائل النبوة ١/٥٤.

نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ [آل عمران].

سبب نزول الآية هو أن العاقب والسيد صاحبي نجران جاءا إلى رسول الله ﷺ وجادلاه في أمر عيسى عليه السلام فأنزل الله تعالى آية المباهلة هذه، والمباهلة دعاء الله والابتهال إليه أن يُنزِلَ لعنته على الكاذب فواعداه على أن يلاعناه الغَداةَ فغدا رسول الله ﷺ فأخذ بيد علي وفاطمة والحسن والحسين ثم أرسل إليهما فأبيا أن يجيبا وأقرَّا له بالخراج(١).

قال البخاري: حدثنا عباس بن الحسين حدثنا يحيى بن آدم عن إسرائيل عن أبي إسحاق عن صلة بن زفر عن حذيفة رضي الله عنه قال: جاء العاقب والسيد صاحبا نجران إلى رسول الله ﷺ يريدان أن يلاعناه قال: فقال أحدها لصاحبه: لا تفعل فوالله لئن كان نبياً فلاعنَّاهُ لا نفلح نحنُ ولا عَقبنا من بعدنا. قالا: إنَّا نعطيك ما سألتنا وابعثْ معنا رجلاً أميناً... إلى آخر الحديث.

وقد روى البخاري والترمذي والنسائي: لو أن اليهود تمنوا الموتَ لماتوا ولرأوا مقاعدهم من النار ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون مالاً ولا أهلاً.

وهذا كما ترى فِعْل الواثقِ بربه في أنه سينزل لعنته عليهم ويهلكهم إن فعلوا ذاك وهو مما يدل على نبوته لأنهم لو باهلوه ولم ينزل عليهم العذاب لكان ساعياً في تكذيب نفسه. قال الفخر الرازي: «إنها دلت على صحةِ نبوته عليه السلام من وجهين:

أحدهما: وهو أنه عليه السلام خَوَّفهم بنزولِ العذاب عليهم ولو لم يكن واثقاً بذلك لكان ذلك منه سعياً في إظهارِ كذبِ نفسه لأن بتقدير أن يرغبوا في مباهلته ثم لا ينزل العذاب فحينئذ كان يظهر كَذِبُه فيما أخبر. ومعلوم أن محمداً ﷺ كان من أعقلِ الناس فلا يليقُ به أن يعمل عملاً يُفضي إلى ظهور كذبه فلما أصرَّ على ذلك علمنا أنه إنما أصَرَّ عليه لكونهِ واثقاً بنزولِ العذاب عليهم.

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٣٧٠، الطبري ٣/ ٢٩٥-٢٩٨، فتح القدير ١/ ٣١٦، أسباب النزول للواحدي ٩٩.

وثانيهما: أن القوم لما تركوا مباهلته فلولا أنهم عرفوا من التوراةِ والإنجيل ما يدلُّ على نبوته وإلا لما أحجموا عن مباهلته»[1].

الإسراء:

قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١﴾ [الإسراء].

ادعى محمد أن الله أسرى به من مكة إلى بيت المقدس ثم أرجعه في ليلة واحدة علماً بأن مدة السفر في ذلك مقدار شهرين ذهاباً وإياباً.

ولما عاد رسول الله ﷺ تحدث بذلك في أهله فقالت له أم هانيء بنت أبي طالب: لا تتحدثْ بهذا فوالله لا صدقك الناس وليكفرنَّ بكَ مَنْ آمن بك وليكذبنَّكَ من صَدقك. فقال ﷺ: إن ربي أمرني أن أُخبرَ الناسَ بذلك»[2].

وهو تَوقُّعٌ قريب إلى الصحة من أم هانيء إذ كيف يدرك الناسُ هذا الأمر؟ وربما اتُّخِذَ ذريعةً إلى تكذيبه ﷺ، ومع ذلك أصرَّ على الإخبار بهذا الأمر الذي ليس في مصلحة دعوته لأن الله - على حد قوله - أمره بذاك.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى إنَّ أقرب شيء يَرِدُ إلى الذهن هو أنهم سيسألونه عن بيتِ المقدس وصفته سؤالات دقيقة إنْ كان قد رآه كما ادعى، علماً بأن الرسول لم يكن قد رآه في حياته، وهذه عقدة كبيرة، وفعلاً حدث هذا الأمر فقد سألوه عن صفة بيت المقدس فجلاَّهُ الله له فوصفه بدقة وأبو بكر يُصَدِّقهُ حتى أفحمهم.

جاء في صحيح البخاري: حدثنا يحيى بن بكير حدثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب حدثني أبو سلمة بن عبد الرحمن سمعت جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: لما كذبتني قريش قمتُ في الحجر فجَلاَ الله لي بيتَ المقدس فطفقتُ أُخبرهم عن آياته. وأنا أنظر إليه.

وأخرجه مسلم عن جابر والإمام أحمد عن ابن عباس وأخرجه النسائي والبيهقي

---

(١) التفسير الكبير ٨/٨٧-٨٨، وانظر القرطبي ٤/١٠٤، تثبيت دلائل النبوة ٢/٤٢٦.

(٢) تثبيت دلائل النبوة ١/٤٦.

وغيرهم[1].

فقام ذلك دليلاً على صحة نبوته إذ كيف يمكن أن يصف بيت المقدس بدقة وهو لم يكن قد رآه؟ وقد ذكر أنه وصف مدخله والمسجد وسقوفه وما فيه شيئاً شيئاً[2].

الرمي بالشهب:

قال تعالى على لسان الجن: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩﴾ [الجن].

وهذه ظاهرة طبيعية يذكرها القرآن وهي ظاهر الرمي بالشهب التي صاحبت البعثة المحمدية.

ولا شك أن هذا الخبر صحيح إذ لو لم يكن صحيحاً لكذَّبَهُ قومهُ فقد كثر انقضاضُ الشهب عند مبعث محمد كثرةً هائلة وامتلأت به السماء حتى خاف الناس وظنوا أنه فناء العالم وأراد الناس أن يخرجوا من أموالهم. جاء في «الجواب الصحيح» لشيخ الإسلام ابن تيمية: «وقد تواترت الأخبار بأنه حين المبعث كثر الرميُ بالشهبِ وهذا أمر خارق للعادة حتى خاف بعض الناس أن يكون ذلك لخراب العالم حتى نظروا هل الرميُ بالكواكبِ التي في الفلك أم الرمي بالشهب؟ فلما رأوا أنه بالشهب علموا أنه لأمر حدث...

حتى لما بعث الله محمداً ﷺ رجموا ليلةً من الليالي ففزع لذلك أهلُ الطائف. فقالوا: هلك أهلُ السماء لما رأوا من شدة النار في السماء واختلاف الشهب فجعلوا يعتقون أرقاءهم ويُسَيِّبون مواشيهم فقال لهم عبد ياليل بن عمرو بن عمير: وَيْحكم يا معشر الطائف أمسكوا عن أموالكم وانظروا إلى معالم النجوم فإن رأيتموها مستقرة في أمكنتها فلم يهلك أهلُ السماء إنما هذا من أجل ابن أبي كبشة (يعني محمداً ﷺ) وإنَّ أنتم لم تروها فقد هلك أهلُ السماء فنظروا فرأوها فكفوا عن أموالهم...

وقبل زمان البعث وبعده كان الرمي خفيفاً لم تمتلىء به السماء كما ملئت حين نزول

---

(١) انظر ابن كثير ٣/ ١٥.
(٢) تثبيت دلائل النبوة ١/ ٤٧-٤٨.

القرآن»[1].

وهذا من دلائل النبوة فإن الرجمَ كان قبل المبعث خفيفاً لا يلفتُ النظرَ ثم كثر عند المبعث كثرةً هائلة مُلئت به السماء حتى خاف الناسُ وظنوا أنه انقراض الدنيا وفناء العالم.

والقرآن يقول إن هذا رجمٌ للجن الذين كانوا يستمعون الأخبار من السماء قبل نزول القرآن فَمُنِعُوا بنزولِ القرآن من السماء ورُجموا.

انشقاق القمر:

قال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝﴾ [القمر].

تواترت حادثة انشقاق القمر على عهد رسول الله بالأسانيد الصحيحة وروى هذه الحادثة جمعٌ كثير من الصحابة. فقد رويت هذه الحادثة بطرق متعددة صحيحة عن أنس بن مالك وجبير بن مطعم وعبد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عمر مما يفيد العلم اليقيني إضافة إلى النص القرآني الذي له الدلالة التاريخية القاطعة.

جاء في «صحيح البخاري» باب سؤال المشركين أن يُريهم النبيُّ آية:

● حدثني عبد الله بن محمد حدثنا يونس حدثنا شيبان عن قتادة عن أنس بن مالك.

● وقال لي خليفة حدثنا يزيد بن زريع حدثنا سعيد عن قتادة عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه حدثهم أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر.

● وفيه هذا عن صدقة بن الفضل عن ابن عيينة عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن أبي معمر عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: وفيه: فقال النبي ﷺ: اشهدوا.

● وفيه عن خلف بن خالد القرشي عن بكر بن مضر عن جعفر بن ربيعة عن

---

(١) الجواب الصحيح ٤/٣٨-٤٠، تثبيت دلائل النبوة ٦٥-٦٩.

عراك بن مالك عن عبيد الله بن عبد الله بن مسعود عن ابن عباس.

● وفيه عن عبد الله بن عبد الوهاب عن بشر بن المفضل عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن أنس بن مالك: وفيه: «حتى رأوا حِراء بينهما» أي بين شقتي القمر.

● وفيه عن عبدان عن أبي حمزة عن الأعمش عن إبراهيم عن أبي معمر عن عبدالله.

● وفيه: وقال أبو الضحى عن مسروق عن عبد الله.

● وتابعه محمد بن مسلم عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن أبي معمر عن عبد الله.

● وفيه عن عثمان بن صالح عن بكر بن مضر عن جعفر بن ربيعة عن عبد الله.

● وفيه عن عمر بن حفص عن أبيه عن الأعمش عن إبراهيم عن أبي معمر عن عبدالله.

● وفيه عن مسدد عن يحيى عن شعبة وسفيان عن الأعمش عن إبراهيم عن أبي معمر عن ابن مسعود.

● وفيه عن علي عن سفيان عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن أبي معمر عن عبدالله.

● وفيه عن يحيى بن بكير عن بكر عن جعفر عن عراك بن مالك عن عبيد الله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود عن ابن عباس.

● ووردت هذه الحادثة في صحيح مسلم عن قتيبة بن سعيد عن جرير عن الأعمش عن أبي الضحى عن مسروق عن عبد الله.

● وفيه عن أبي سعيد الأشج عن وكيع عن الأعمش عن أبي الضحى عن مسروق عن عبدالله.

● وفيه عن عمرو الناقد وزهير بن حرب قالا: حدثنا سفيان بن عيينة عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن أبي معمر عن عبد الله.

● وفيه حدثنا أبو بكر بن أبي بكر شيبة وأبو كريب وإسحاق بن إبراهيم جميعاً عن أبي معاوية، وحدثنا عمر بن حفص بن غياث عن أبيه كلاهما عن الأعمش عن إبراهيم

عن أبي معمر عن عبد الله بن مسعود.

● وفيه حدثنا ابن الحارث التميمي عن ابن مسهر عن الأعمش عن إبراهيم عن أبي معمر عن عبد الله بن مسعود.

● وفيه عن عبيد الله بن معاذ العنبري عن أبيه عن شعبة عن الأعمش عن إبراهيم عن أبي معمر عن عبد الله بن مسعود.

● وفيه عن عبيد الله بن معاذ عن أبيه عن شعبة عن الأعمش عن مجاهد عن ابن عمر.

● عن بشر بن خالد عن محمد بن جعفر وحدثنا محمد بن بشار عن ابن أبي عدي كلاهما عن شعبة بإسناد ابن معاذ عن شعبة.

● عن زهير بن حرب وعبد بن حُميد قالا: حدثنا يونس بن محمد عن شيبان عن قتادة عن أنس.

● عن محمد بن المثنى عن محمد بن جعفر وأبي داود، وحدثنا ابن بشار عن يحيى بن سعيد ومحمد بن جعفر وأبي داود كلهم عن شعبة عن قتادة عن أنس.

● عن موسى بن قريش التميمي عن إسحاق بن بكر بن مضر عن أبيه عن جعفر بن ربيعة عن عراك بن مالك عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن ابن عباس.

وأخرجهما الإمام أحمد وابن جرير والطبراني والترمذي والبيهقي بروايات متعددة.

وأوردنا هذه الأسانيد لتعلمَ مقدار ثبوتِ الحادثة وصِحَّتها وأغفلنا أسانيدَ كثيرة أخرى صحيحة ولذا قال العلماء بتواتر الحادثة(١).

هذا إضافة إلى النصِّ القرآني الذي يفيدُ العلمَ اليقيني «ومعلوم بالضرورة في مُطَّرِدِ العادة أنه لو لم يكن انشق القمر لأسرع المؤمنون به إلى تكذيب ذلك فضلاً عن أعدائه من الكفار والمنافقين»(٢).

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٤/٦١، فتح القدير ٥/١١٧، إظهار الحق ٢/١٨٧.
(٢) الجواب الصحيح ٤/١٦٢-١٦٤.

جاء في «الكشاف»: «انشقاق القمر من آيات رسول الله ﷺ ومعجزاته النيرة... وعن بعض الناس أن معناه ينشق يوم القيامة وقوله: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةً يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ ۝٢﴾ يَردُّه وكفى به راداً. وفي قراءة حذيفة: وقد انشق القمر أي اقتربت الساعة وقد حصل من آياتِ اقترابها أن القمرَ قد انشق كما تقول: أقبل الأمير وقد جاء المبشر بقدومه»[1].

وجاء في «فتح القدير»: «وانشق القمر أي وقد انشق القمر وكذا قرأ حذيفة بزيادة (قد) والمراد الانشقاق الواقع في أيام النبوة معجزة لرسول الله ﷺ وإلى هذا ذهب الجمهور من السلف والخلف. قال الواحدي: وجماعة المفسرين على هذا إلا ما روى عثمان بن عطاء عن أبيه أنه قال: المعنى سينشق القمر والعلماء كلهم على خلافه.

قال الزجاج: زعم قوم عندوا عن القصد وما عليه أهل العلم أن تأويله أن القمر سينشق يوم القيامة والأمر بيِّنٌ في اللفظِ وإجماع أهل العلم لأن قوله ﴿وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةً يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ ۝٢﴾ يدل على أن هذا كان في الدنيا لا في القيامة» انتهى.

ولم يأت من خالف الجمهور وقال إن الانشقاق سيكونُ يومَ القيامة إلا بمجرد استبعاد فقال: لأنه لو انشق في زمن النبوة لم يبقَ أحدٌ إلا رآه لأنه آية والناس في الآيات سواء. ويُجابُ عنه بأنه لا يلزم أن يراه كلُّ أحدٍ لا عقلاً ولا شرعاً ولا عادة ومع هذا فقد نُقلَ إلينا بطريق التواتر، وهذا بمجرده يدفع الاستبعادَ ويضرب به في وجه قائله.

والحاصل أنا إذا نظرنا إلى كتاب الله فقد أخبرنا بأنه انشق ولم يخبرنا بأنه سينشق وإن نظرنا إلى سنة رسول الله ﷺ فقد ثبت في الصحيح وغيره من طرق متواترة أنه قد كان ذلك في أيام النبوة، وإن نظرنا إلى أقوال أهل العلم فقد اتفقوا على هذا ولا يُلتفت إلى شذوذِ مَنْ شذ واستبعاد من استبعد»[2].

وقال الفخر الرازي: «المفسرون بأسرهم على أن القمر انشق وحصل فيه الانشقاق..

---

(١) الكشاف ٢/١٨١-١٨٢.

(٢) فتح القدير ٥/١١٧، وانظر أسباب النزول للواحدي ٤٢٤.

وقال بعض المفسرين: المراد سينشق وهو بعيد ولا معنى له»[1].

ومعلوم أن الذين قالوا إن معنى (انشق القمر) سَينشقُّ لا يستندون إلى شيء سوى الاستبعادِ الذي ذكره بعضهم وهو أنه لو حدث لرآه الناسُ جميعاً. وهو مردود من الناحية التاريخية ومن الناحية اللغوية ومن الناحية العقلية.

أما من الناحية التاريخية فقد ثبت وقوعها بالأسانيد الصحيحة المتواترة التي تفيد العلم اليقيني، والحوادث التاريخية تَثبتُ بأقل من هذا بكثير.

ومردود من الناحية اللغوية لأن الفعل (انشق) فعلٌ ماضٍ وصرفُه إلى الاستقبال لا يَصِحُّ إلا بقرينةٍ صارفة ولا توجد هذه القرينة، ثم يَردُّ هذا التقديرَ أمران:

الأول: قوله تعالى بعد هذه الآية: ﴿وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢﴾ فدل هذا على أنهم رأوا هذه الآية فأعرضوا وقالوا: هذا سحر. ولا معنى لهذه الآية لو لم يكن الأمر كذلك أو لو كان الانشقاق يوم القيامة. فإنه في يوم القيامة يحدث ما هو أكثر من ذلك إذ قد تنشق السماء وتنتثر الكواكب وتكور الشمس وتتفجر البحار وتذوب الجبال فمن الساحر ثم ومَن المسحور؟!!

وهذا القول حكاه كفار قريش فإنهم حين رأوا انشقاقَ القمر قالوا: هذا سحر. عن جبير بن مطعم قال: انشق القمر ونحن بمكة حتى صار فرقتين على هذا الجبل فقال: وعلى هذا الجبل.

فقال الناس: سحرنا محمد ﷺ.

فقال رجل: إنْ كان سحركم فلم يسحر الناسَ كلهم. رواه الترمذي.

الثاني: قراءة حذيفة (وقد انشق القمر) لأن (قد) إذا دخلت على فعل ماضٍ تَعيَّنَ كونُه للزمنِ الماضي ولا يصحُّ صرفُه للاستقبال.

وأما الشبهة التي ذكرها بعضهم وهي أنه لو كان حصل ذلك لرآه الناس جميعاً فهذا مردود أيضاً. وقد ردها الشيخ رحمة الله الهندي رداً وافياً نلخصه بما يأتي:

---

(١) تفسير الرازي، ج٢٩، ص ٢٨، الطبري ٢٧/ ٨٤-٨٨، القرطبي ١٧/ ١٢٥ وما بعدها، تثبيت دلائل النبوة ١/ ٥٦.

١- إن انشقاق القمر كان في الليل وهو وقتُ الغفلة والنوم والسكون... فلا يكاد يعرفُ من أمور السماء شيئاً إلا مَن انتظره واعتنى به. ألا ترى إلى خسوف القمر فإنه يكون كثيراً وأكثر الناس لا يحصل لهم العلم حتى يخبرهم أحد به.

٢- إن هذه الحادثة ما كانت ممتدة إلى زمن كثير...

٣- إنها لم تكن متوقع الحصول لأهل العلم لينظروها في وقتها ويروها... وفي المقالة الحادية عشرة من تاريخ (فرشته) إن أهل مليبار من إقليم الهند رأوه أيضاً وأسلم والي تلك الديار التي كانت من مجوس الهند بعدما تحقق له هذا الأمر. وقد نقل الحافظ المزي عن ابن تيمية أن بعض المسافرين ذكر أنه وجد في بلاد الهند بناء قديماً مكتوباً عليه (بُنِيَ ليلةَ انشق القمر).

٤- إنه قد يحول في بعض الأمكنة وفي بعض الأوقات بين الرائي والقمر سحابٌ غليظ أو جبل ويوجد التفاوت الفاحش في بعض الأوقات في الديار التي ينزل فيها المطر كثيراً... وأهل البلاد الشمالية كالروم والفرنج في موسم نزول الثلج والمطر لا يرون الشمس إلى أيام فضلاً عن القمر.

٥- إن القمر لاختلاف مطالعه ليس في حَدٍّ واحد لجميعِ أهلِ الأرض... ولذلك نجد الخسوف في بعض البلاد دون بعض.

٦- إنه قلما يقع أن يبلغَ عددُ ناظري أمثال هذه الحوادث النادرة الوقوع إلى حد يفيدُ اليقينَ وأخبار بعض العوام لا يكون معتبراً عند المؤرخين في الوقائع العظيمة(١).

وجاء في «تثبيت دلائل النبوة»: «فأما قول النظّام: فلم لا يشاهد هذه الآية كل الناس فليس هذا بلازم لأن الناس لم يكونوا من هذا على ميعاد وإنما هو شيء حادث ليلاً وما كان عندهم خبر بأنه سيحدث وسيكون في وقت كذا فينظرونه وإذا كان كذلك فقد بطل ما ظنه. يزيدك بياناً أن القمر قد ينكسف كله فلا يرى ذلك من الناس إلا الواحد بعد الواحد والنفر اليسير لنومهم فكيف بانشقاقِ القمر الذي انشقَّ ثم التأم دن ساعته بعد أن رآه أولئك القوم الذين طلبوه»(٢).

---

(١) إظهار الحق ٢/ ١٩٤.

(٢) تثبيت دلائل النبوة ١/ ٥٧.

وجاء في «الجواب الفسيح» للآلوسي: «فقد ورد في الروايات الصحيحة بل المتواترة أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ (أن ينشق القمر فكان ذلك)».

ثم يقول: إنه وقع في الليل وزمان الغفلة وكان في زمان قليل ورؤية القمر في بلد لا تستلزم رؤيته في جميع البلاد لاختلافِ المطالعِ فقد يكون القمر طالعاً على قوم غائباً عن آخرين، ومكسوفاً عند قوم وغير مكسوف عند آخرين... وغفلة أهلها لحظة غير مستبعد»(١).

وفي هذا ما يزيلُ الشبهةَ ويتضح به الأمرُ.

والعجب أن كثيراً من القساوسة والرهبان يذكرون هذه الشبهة وفي كتبهم ما هو أبعد من ذلك ولا يثيرون حوله مثل هذه الشبهة.

فعندهم أن يوشع أوقف الشمسَ والقمر عن الحركة يوماً كاملاً وإن أشعيا أرجع الشمس عشر درجات. جاء في الباب العاشر من كتاب يوشع على وفق الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٤٤ هكذا:

«١٢ حينئذٍ تكلم يشوع أمام الرب في اليوم الذي وقع الأموريّ في يدي بني إسرائيل وقال أمامهم: أيتها الشمس مقابل جبعون لا تتحركي والقمر مقابل قاع إيلون ١٣ فوقف الشمس والقمر حتى انتقم الشعب من أعدائهم، أليس هذا مكتوباً في سفر الأبرار فوقفت الشمس في كبد السماء ولم تكن تعجل إلى الغروب يوماً تاماً».

قال الشيخ رحمة الله الهندي: «وهذه الحادثة عظيمة وكانت على زعم المسيحيين قبل ميلاد المسيح بألف وأربعمائة وخمسين سنة فلو وقعت لظهرت على الكل...

وهذه الحادثة العظيمة ليست مكتوبةً في كتب تواريخِ أهلِ الهند ولا أهل الصين وفارس»(٢).

وجاء فيه: «في الآية الثامنة من الباب الثامن والثلاثين في بيان رجوع الشمس بمعجزة أشعيا هكذا: «فرجعت الشمسُ عشر درجات في المراقي التي كانت قد انحدرت».

---

(١) الجواب الفسيح ٩٩-٢٠٠، وانظر القرطبي ١٧/ ١٢٥.

(٢) إظهار الحق ٢/ ٩٠.

وهذه الحادثة عظيمة ولما كانت في النهار فلا بد أن تظهر لأكثر أهل العالم وكانت قبل ميلاد المسيح بسبعمائة وثلاثة عشرة سنة شمسية وهذه الحادثة ليست مكتوبة في تواريخ أهل الهند والصين والفرس[1].

فالمفروض أن تسجل التواريخ القديمة هذه الحادثة العجيبة لأن الشمس مشاهدة وكل الناس يرونها بخلاف القمر الذي يطلع وقت الغفلة والنوم... فكان الأجدر بهم أن يثيروا هذه الشبهة حول حادثتهم التي لم تُنقل بسندٍ واحدٍ صحيح أو ضعيف، لا حولَ حادثةِ انشقاقِ القمر المنقولة نقلاً تاريخياً صحيحاً متواتراً ولكنهم كما قال السيد المسيح فيهم: «يَرونَ القشةَ في عينِ صاحبهم ولا يرونَ الخشبةَ في أعينهم».

---

(١) إظهار الحق ٢/١٩٢.

الأدلة الحديثيّة

مقدِّمة

هذه مقدمة قصيرة ضرورية - فيما نرى - للتعريف بالحديث النبوي وتدوينه وجمعه لنعرف مقدار الجهود التي بذلها العلماء للوصول إلى الأحاديث الصحيحة. فإنه ظهرت في العصر الحديث حملة مسعورة تستهدف الحديث والمحدثين حمل لواءها المستشرقون باسم العلم وحَذَا تلاميذهم ممن ينتسبون إلى الإسلام حذوهم.

وهذه الحملة للنيل من رجال الحديث وبالتالي من الحديث مقصودة، وذلك لأنه إذا ضاعَ الحديثُ ضاعتْ كثيرٌ من أحكام العبادات والمعاملات، فأحكام الطهارة والوضوء لا تثبت إلا عن طريق الأحاديث، والصلاة ومواقيتها وركعاتها وهيئاتها، والصيام ومفطراته وأحكامه، والزكاة وأنصبتها والأموال التي تؤخذ منها، والحج وأحكامه وأركانه كل ذلك لا يعرف إلا عن طريق الحديث. وكثير من المعاملات لا تُعلم أحكامها إلا عن طريق الحديث. فإذا حصل الشك في الحديث فقد بطلت العبادات والمعاملات وانحل الالتزام.

فالحملة التي تنادي بالاكتفاء بالقرآن حملةٌ مقصودة للمروقِ عن الإسلام والخروج عن أحكامه وتعطيلها، لأن القرآن فيه أحكام عامة وليس فيه التفصيلات. والتفصيلات إنما تكفَّلت ببيانها السنة النبوية. ولذا قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ﴿٧﴾﴾ [الحشر]، وقال: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴿٨٠﴾﴾ [النساء]، وقال: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل].

هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية: إن الحديث تَثبتُ به كثير من المعجزات المحمدية المروية بالطرق الصحيحة التي لا يرقى إليها الشك كتكثير الماء والطعام والإخبار ببعض الغيب وغيرها والتي تثبت نبوة محمد بصورة قاطعة، فإذا نالوا من رجال الحديث فقد حصل الشكُّ بمرويَّاتِهم فيسهل المروقُ من الدين. ولذلك ضربوا على هذه المسألة ضرباً عنيفاً متوالياً وحاولوا الوصول إلى ذلك بكل طريق غير علمي ولا صحيح ولا شريف

باسم العلم والبحث العلمي لتكتمل الخطة ولتتوافق الخطةُ مع بقية المخططات الرهيبة لتحطيم الإسلام.

فمن ذلك أنك ترى النقلَ المبتورَ عن كتب الحديث، أو ذكر مسألةٍ ليس لها أصلٌ مع إحالة القارىء إلى كتب الحديث المعتمدة لإيهامه بصحة ادعائه. أو تحريف في النص يؤدي إلى تغيير المعنى تماماً.

وقد قام الباحثون في العصر الحديث - جزاهم الله خيراً - بسعي مشكور فردوهم ردوداً أفحمتهم وأخجلتهم لو كان عندهم شيء من الحياء! ولست الآن بصدد شرح هذا الأمر وتبيينه فإن له مجالاً غير هذا المجال وأكتفي بذكر مثلٍ واحد ذكره المرحومُ الدكتور مصطفى السباعي في كتابه «السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي» لنرى التحريفَ المقصود من مستشرق كبير ورجل (عليم)!! هو المستشرق اليهودي (جولدتسيهر) الذي صار أستاذاً لكثير من رجالنا المسلمين.

قال الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله: «وفي جامعة (ليدن) بهولندا اجتمعت بالمستشرق اليهودي (شاخت) وهو الذي يحمل في عصرنا هذا رسالة (جولدتسيهر) في الدسِّ على الإسلام والكيدِ له وتشويهِ حقائقه وباحثتُه طويلاً في أخطاء (جولدتسيهر) وتعمده تحريف النصوص التي ينقلها عن كتبنا فأنكر ذلك أول الأمر. فضربتُ له مثلاً واحداً مما كتبه جولدتسيهر في تاريخ (السنة) - وهو ما نقلناه عنه في هذا الكتاب - وكيف حَرَّفَ قولَ الزهري: «إن هؤلاء الأمراء أكرهونا على كتابة (الأحاديث) إلى لفظ «على كتابة أحاديث» فاستغرب ذلك، ثم راجع كتاب جولدتسيهر - وكنا نجلس في مكتبته الخاصة - فقال: معك الحق إن جولدتسيهر أخطأ هنا».

قلت له: «هل هو مجرد خطأ؟ فاحتدَّ وقال: لماذا تُسيئون به الظن؟ فانتقلت إلى بحث تحليله لموقف الزهري من عبد الملك بن مروان وذكرت له من الحقائق التاريخية ما ينفي ما زعمه جولدتسيهر - وقد ذكرت ذلك في هذا الكتاب - وبعد مناقشة الموضوع قال: وهذا خطأ أيضاً من جولدتسيهر، ألا يخطىء العلماء؟ قلت له: إن جولدتسيهر هو مؤسس المدرسة الاستشراقية التي تبني حكمها في التشريع الإسلامي على وقائع التاريخ نفسه فلماذا لم يستعمل مبدأه هنا حين تكلم عن الزهري؟ وكيف جاز له أن يحكم على الزهري بأنه وضع حديثَ فضلِ المسجد الأقصى إرضاءً لعبد الملك ضد

ابن الزبير، مع أن الزهري لم يَلْقَ عبد الملك إلا بعد سبع سنوات من مقتلِ ابن الزبير؟

وهنا اصفرَّ وجهُ (شاخت) وأخذ يفركُ يداً بيد وبَدَا عليه الغيظُ والاضطراب فأنهيتُ الحديث معه بأن قلت له: لقد كانت مثل هذه «الأخطاء» كما تسميها أنت تشتهر في القرن الماضي، ويتناقلها مستشرقٌ منكم عن آخر على أنها حقائق علمية قبل أن نقرأ - نحن المسلمين - تلك المؤلفات إلا بعد موت مؤلفيها. أما الآن فأرجو أن تسمعوا منا ملاحظاتنا على (أخطائكم) لتصححوها في حياتكم قبل أن تتقرر كحقائق علمية!!»[1].

---

(١) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي ٢٤-٢٥.

تدوينُ الحديثِ

من الثابت أن الرسول ﷺ نهى عن كتابة الحديث في بادىء الأمر لئلا يختلط بالقرآن الكريم حتى إذا ذهب المحذور أباح الكتابةَ لمن أراد أن يكتب وقد تمت كتابة قسم من الأحاديث في زمن الرسول من ذلك:

١- صحيفة سعد بن عبادة الأنصاري.

٢- صحينة عبد الله بن أبي أوفى.

٣- نسخة سمرة بن جندب.

٤- كتاب أبي رافع مولى النبي.

٥- كتب أبي هريرة.

٦- صحيفة جابر بن عبد الله الأنصاري.

٧- الصحيفة الصادقة لعبد الله بن عمرو.

٨- الصحيفة الصحيحة لهمام بن منبه[١].

فهذه صحف كتبها الصحابة لأنفسهم أو استكتبوها بعد إباحة الرسول تدوين الحديث ومن ذلك كتب النبي إلى الملوك والرؤساء مثل:

١- كتابه إلى هرقل.

٢- كتابه إلى المقوقس ملك مصر.

٣- كتابه إلى المنذر بن ساوى.

٤- كتابه إلى ملك عمان وقد بعثه مع عمرو بن العاص.

---

(١) انظر بحوث في تاريخ السنة المشرفة ١٤٧-١٤٨.

٥- كتابه إلى صاحب اليمامة هوذة بن علي مع سليط بن عمرو.

٦- كتابه إلى الحرث بن أبي شمر الغساني مع شجاع بن وهيب[١].

ومن ذلك:

١- كتابه إلى همدان.

٢- كتابه إلى نجران[٢].

ومن ذلك كتابة قسم من الأحكام بأمرٍ منه ﷺ نحو:

١- كتابة أحكام الزكاة ومقاديرها بأمر الرسول بالمدينة في صفحتين.

٢- صحيفة الإمام علي في الأحكام.

٣- هدنة الحديبية.

٤- كتاب الرسول إلى اليمن مع عمرو بن حزم في الفرائض والصدقات والديات.

٥- كتاب عبد الله بن حكيم من رسول الله فيه أحكام الحيوانات.

٦- كتاب رسول الله إلى وائل بن حجر حين أراد الرجوع إلى بلاده حضرموت وفيه أحكام الصلاة والصوم والربا والخمر.

٧- كتاب الضحاك بن سفيان من رسول الله في بيان نصيب المرأة من دية زوجها.

٨- كتاب لأبي شاه بأمر رسول الله بعد الفتح[٣].

هذه بداية كتابة الحديث في العهد النبوي ثم اتَّسعت وتَمَّتْ في عهد الصحابة بعده.

إن الحديث تم وجمع في عهد الصحابة ودُوِّنَ أكثره في عهدهم أيضاً وذلك أن التابعين اتسعوا بتدوينه والتابعون أخذوا علمهم عن الصحابة، «فقد كان سعيد بن جبير يكتب روايات عبد الله بن عباس (الدارمي ٦٩). وبقيت صحيفة عبد الله بن عمرو

---

(١) زاد المعاد لابن القيم ٣/٦١-٦٣.

(٢) زاد المعاد ٣٦-٤٠.

(٣) انظر الرسالة المحمدية لسليمان الندوي ٥٤-٥٥، بحوث في تاريخ السنة ١٤٤.

(الصادقة) موجودة عند حفيده عمرو بن شعيب (سنن الترمذي ٦١، ١١٣)... وجمع وهب التابعي روايات جابر بن عبد الله وكانت عند إسماعيل بن عبد الكريم... (تهذيب التهذيب لابن حجر ١: ٣١٦)... وجمع همام بن منبه روايات أبي هريرة وهو أكثر الصحابة رواية وأوعاهم حفظاً لأحاديث الرسول ﷺ فصارت تُعرف صحيفته بين المحدِّثين بصحيفة همام وقد أوردها الإمام أحمد بن حنبل في الجزء الثاني من مسنده...

وروي عن سلمى قالت: رأيت عبد الله بن عباس يستملي أبا رافع خادم رسول الله ﷺ ما كان ﷺ يفعل أو يقول (طبقات ابن سعد ٢/٢/١٢٣) والواقدي وهو من متقدمي المصنفين في السيرة النبوية يقول: رأيت عند عبد الله بن عباس الكتاب الذي أرسله رسول الله ﷺ إلى المنذر بن ساوى سيد عمان مع كتب أخرى (زاد المعاد ٢/٥٧)...

ويقول سعيد بن جبير التابعي: كنت أكتبُ على الأقتاب ما أسمعه في الليل من عبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس، فإذا أصبحت كتبته واضحاً (الدارمي ص٦٩) وكان أصحابُ البراء بن عازب يكتبون عنده رواياته (الدارمي ص٦٩) وكان نافع - وقد صحبَ ابنَ عمر ثلاثين سنة - يملي على الناس (الدارمي ص٦٩). وعبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود أخرج كتاباً وقال: وأيمُ الله هذا ما كَتَبَتْهُ يدُ ابن مسعود (جامع بيان العلم لابن عبد البر، ص١٧)[1].

قال الشيخ سليمان الندوي: «ولا أعدو الحقيقةَ إذ قلت: إن التابعين رضي الله عنهم جمعوا جميع المرويات في عهد الصحابة وكتبوا في حياتهم ما وصل إلى علمهم من الأخبار والشؤون...

ومن أعظم الخطأ في تاريخ تدوين الحديث دعوى بعض الناس أنه بدأ بعد المائة وذلك تبعاً لخطئِهم في تحديدِ زمن التابعين وهم يعلمون أن بعض الصحابة امتد بهم العمر إلى أواخر المائة الأولى للهجرة ظنوا أن عهد التابعين يبدأ بعد انقضاء زمن الصحابة فذهبوا إلى أن التدوين بدأ بعد المائة. وهذا كله خطأ. والحق أن عنوان (التابعين) يطلق على الذين لم يدركوا النبي ﷺ أو ولدوا في أواخر عهده فلم يَرَوْهُ

---

(١) الرسالة المحمدية ٥٦-٥٧.

وإنما رأوا أصحابه وأخذوا عنهم. وعلى أقل تقدير يعد تابعياً مَنْ وُلِدَ بعد وفاة النبي ﷺ (ربيع الأول سنة ١١) وأعمال التابعين التي تُنسب إليهم يبدأ عهدها من سنة ١١ وليس من المحتم أن لا يُنسب إلى التابعين إلا ما صدرَ عنهم بعد وفاةِ آخرِ الصحابةِ بقاءً على قيد الحياة، فآخرُ الصحابة بقاء على قيد الحياة امتد زمنه إلى أواخر المائة الأولى للهجرة، وأعمال التابعين - ومنها البدء بتدوين الحديث - ينبغي أن تُنسبَ إلى زمنهم الذي يبدأ من بعد سنة ١١ التي انتقل فيها النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى»(١).

وبهذا يتضح أن تدوينَ الحديث وجمعه كان في عهد مبكرٍ جداً وهو عصرُ الصحابة من أفواههم ومما كتبت أيديهم.

إن التابعين الذين هم تلاميذ الصحابة يبدأ «تاريخ طبقتهم من السنة الأولى للهجرة ومنهم من ولد في عهد النبي ﷺ لكنه لم يتشرف برؤيته أو كان في العهد النبوي صغير السن فلم يحظ بالصحبة ولم يقدّر له أن ينال قبساً من مشكاة النبوة كعبد الرحمن بن الحارث المولود سنة ٣ وقيس بن أبي حازم المولود سنة ٤ وسعيد بن المسيب المولود سنة ١٤ وهؤلاء التابعون الذين ينزلون المنزلة الثانية بعد الصحابة في نشر الإسلام وتبليغ دعوته...

وقد ذكر ابن سعد في «الطبقات» ١٣٩ من التابعين أهل الطبقة الأولى الذين كانوا في المدينة وأدركوا كبار الصحابة وسمعوا منهم أحاديث النبي ﷺ ورووها عنهم. وذكر ١٢٩ من الطبقة الثانية الذين لقوا عامة الصحابة ورووا عنهم. أما الطبقة الثالثة من التابعين فهم الذين حظي الواحد منهم برؤية صحابي واحد أو عدة من الصحابة وعدد هؤلاء ٨٧ فمجموع عدد التابعين ٣٥٥ في مدينة واحدة وهي مدينة رسول الله ﷺ فقيسوا على ذلك عددَ الذين أخذوا عن الصحابة في بقية المدن الإسلامية»(٢).

إن جمع السنة النبوية بصورة واسعة بدأ في عهد عمر بن عبد العزيز إذ أرسل عمر إلى أبي بكر بن حزم عامله وقاضيه في المدينة أن يجمع الحديث وكذلك كتب إلى أهل الآفاق فبدىء بالجمع.

---

(١) الرسالة المحمدية ٥٨-٥٩.

(٢) الرسالة المحمدية ٤٩.

أما تدوين السنة بصورته الواسعة فقد تم على يد محمد بن مسلم بن شهاب الزهري (٥٠-١٢٤) الذي عاصر جماعة من الصحابة وأخذ عنهم.

فقد أخذ عن أنس بن مالك المتوفى سنة ٩٣ وابن عمر المتوفى سنة ٧٣ وجابر بن عبد الله المتوفى سنة ٧٨ وسهل بن سعد وغيرهم ودُوِّن من أفواههم، ثم شاع التدوينُ في الجيل الذي يلي جيلَ الزهري فكان أول من جمع الحديث بمكة ابنُ جريج المتوفى سنة ١٥٠ هجرية. وابن إسحاق المتوفى سنة ١٥١. وبالمدينة سعيد بن أبي عروبة المتوفى سنة ١٥٦هـ والربيع بن صبيح المتوفى سنة ١٦٠هـ، والإمام مالك (٩٣-١٧٩هـ) وقد ترك كتاب «الموطأ» الذي لا يزال متداولاً حتى الآن وقد طبع أكثر من مرة وغير هؤلاء وغيرهم(١).

فأنت ترى أن تدوين الحديث النبوي بدأ في عهد مبكر جداً فقد بدىء به بالعهد النبوي ثم كثر في عهد الصحابة ثم اتسع في عهد التابعين حتى أوشك أن يتم تدويناً لا كما يتصور كثير من الناس أنه كتبه البخاري المتوفى سنة ٢٥٦هـ ومسلم المتوفى سنة ٢٦١هـ. فهذان الإمامان سُبِقَا بجهود كثيرة لكن هذين الإمامين هما أول من أفرد كتاباً في الأحاديث الصحيحة وكانت المؤلفات قبل الصحيحين تحوي أحاديث صحيحة وحسنة وضعيفة مُبَيَّناً سَنَدُها(٢).

وقد بذل المحدثون جهوداً عظيمة للوصول إلى الحديث الصحيح متبعين أدق الطرق العلمية مما لم تقمْ بمثلِ ذلك أمةٌ من الأمم قبلهم فلم يُمَحِّص البشرُ أقوالَ رجلٍ في التاريخ كما محص المسلمون أحاديثَ هذا النبي الكريم وراقبوا أعماله، ولم يتناول التحقيق الإنساني صِدْقَ رواةِ الأخبار أو كذبهم وأهليتهم لحمل هذه الأمانة أو عدم أهليتهم لذلك كما حقق ذلك أعلام السنة المحمدية(٣).

وكان المحدِّثون يرحلون في طلب الحديث فتراهم يقضون الليالي والأيام في رحلة

---

(١) انظر السنة ومكانتها في التشريع ١٢١-١٢٥، بحوث في تاريخ السنة ١٤٤.

(٢) كانت كتب الحديث قبل هذين الإمامين مخلوطة بآثار وآراء كثيرة للصحابة والتابعين فهي ليست كتب حديث خالصة غير أن هذين الإمامين جَرَّدا الصحيحين من ذلك إلا في القليل.

(٣) انظر مقدمة مختصر التحفة الاثني عشرية لمحب الدين الخطيب (يب).

شاقة طويلة لمقابلة شخص يروي حديثاً واحداً، وهذه الرحلة لطلب العلم بدأت في جيل الصحابة فقد رحل جابر بن عبد الله إلى عبد الله بن أنيس في الشام واستغرق سفره شهراً ليستمع منه حديثاً واحداً لم يكن جابر قد سمعه عن النبي ﷺ ورحل جابر إلى مصر للقاء مسلمة بن مخلد وسؤاله عن حديثٍ بلغه عنه فلما أخبره به رجع.

ورحل أبو أيوب الأنصاري إلى عقبة بن عامر بمصر فلما لقيه قال: حَدِّثْنا ما سمعتَهُ من رسول الله ﷺ في ستر المسلم لم يبق أحد سمعه غيري وغيرك. فلما حدثه ركب أبو أيوب راحلته وانصرف عائداً إلى المدينة وما حَلَّ راحلته.

وقد استمرت الرحلةُ في جيل التابعين، فقد تفرق الصحابة في الأمصار يحملون معهم العلم فما كان للرجل أن يحيط علماً بحديث رسول الله ﷺ دون رحلة في الأمصار وملاحقة الصحابة المتفرقين فيها.

يقول سعيد بن المسيب (ت٩٤هـ) أحد كبار التابعين: إنْ كنتُ لأسيرُ في طلب الحديث الواحد مسيرةَ الليالي والأيام...

وعن أبي العالية الرياحي قال: كنا نسمع الرواية بالبصرة من أصحاب رسول الله ﷺ فلم نرض حتى ركبنا إلى المدينة فسمعناها من أفواههم...

واستمرت الرحلة في طلب العلم في أجيال المحدثين بعدهم حتى أُرسيت دعائمُ العلم وثبتت قواعده وأُحكمت أصوله وفصوله.

ومما انفرد به المسلمون - وهم في سبيل الوصول إلى معرفة الحديث الصحيح - إنشاءُ علم الجرح والتعديل الذي لم تَسْبقهم به أمةٌ من الأمم، وهو علم يقوم على نقد الرجال ومعرفة أحوالهم. قال الدكتور عبد الكريم زيدان: «وقد قام علماء الحديث بعملٍ مبرور إذ أنشأوا علم الجرح والتعديل أو علم الرجال. وهذا العلم مما انفرد به المسلمون ولا نظيرَ له عند غيرهم، والغرضُ منه الكشفُ عن أحوال رواة السنة وتمييز الصادق من الكاذب والضابط من الواهم والموثوق بروايته من المطعون فيها...

ويقوم هذا العلمُ على دراسة مستفيضة لأحوال الرواة والتحري عن ميولهم وصفاتهم وأخلاقهم ونشأتهم وعقائدهم، وقد بذل علماء هذا الفن جهداً عظيماً وتحملوا في سبيل ذلك التعبَ والسفر الطويل والرحلات المتعددة للتحرِّي والتنقيب عن أحوالِ الرواة

ودراسة حياتهم والسؤال عنهم. وقد كان علماء الجرح والتعديل في دراستهم لأحوال الرواة في غاية التجرد عن الهوى والموضوعية في البحث ولم تُؤَثِّرْ فيهم روابطُ الصداقة أو القرابة أو الاشتراك بالموطن والمذهب لأن سنةَ رسولِ الله ﷺ أعلى وأغلى في نظرهم من كل اعتبار آخر. فكانوا لهذا كله يفحصون أحوال رواة السنة النبوية فحصاً مجرداً موضوعياً لا تهمهم النتيجة التي يصلون إليها، وإنما يهمهم شيءٌ واحد هو الوصول إلى حقيقة وصفات مَنْ يدرسونه ومدى الوثوق بروايته. فكانوا في دراستهم هذه كالكيمياوي في مصنعه وهو يفحص مادة من المواد ليعرف خصائصها ولا تهمه النتيجةُ التي يصل إليها ولا نوع الصفات التي ستظهر عليها المادة التي يفصحها... فإذا ما أنهى العالم دراسته حول رواة الحديث أعطى لكل منهم رمزاً يشير إلى خلاصة ما توصل إليه فيقول: هذا ثقة، وهذا عدل، أو هذا لَيِّنُ الحديث، أو هذا لا بأسَ بحديثه، أو هذا كذابٌ، أو هذا سيىء الحفظ، أو هذا أصابه ضَعْفٌ في ذاكرته في شيخوخته.

وبهذه الدراسة المضيئة الخالصة المجردة من الهوى والمقرونة بتقوى الله والإخلاص له والحرص الشديد على تجريد السنة الصحيحة مما عَلِقَ بها، استطاع علماءُ الجرح والتعديل بعون الله أن يميزوا صحيحَ السنة من مكذوبها وأن يردوا كيدَ أعداء الإسلام الذين أرادوا هدمه بهدم السنة والتشكيك بها وصرف المسلمين عنها»[1].

وقال الدكتور مصطفى السباعي: «ومن ثمار هذه الجهود المباركة علمُ الجرح والتعديل أو علم ميزان الرجال وهو علم يُبحَثُ فيه عن أحوال الرواة وأمانتهم وثقتهم وعدالتهم وضبْطهم أو عكس ذلك من كذبٍ أو غفلة أو نسيان...».

ثم يقول: إن هذا العلم الذي نشأ عن تلك الحركة المباركة «لا تعرف له مثيلاً أيضاً في تاريخ الأمم الأخرى وقد أدى إلى نشأة هذا العلم حرصُ العلماء على الوقوف على أحوال الرواة حتى يميزوا بين الصحيح وغيره فكانوا يختبرون بأنفسهم مَنْ يعاصرونهم من الرواة ويسألون السابقين ممن لم يعاصروهم...»[2].

وقال الأستاذ المحقق أحمد محمد شاكر: «اجتهد علماء الحديث في رواية كل ما

---

(١) مقدمة كتابه (بحوث في تاريخ السنة المشرفة) ٨م- ٩م.

(٢) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي ١٢٧-١٢٨.

رواه عنه الرواةُ وإنْ لم يكن صحيحاً عندهم ثم اجتهدوا في التوثق من صحة كل حديث وكل (حرف) رواه الرواةُ ونقدوا أحوالهم ورواياتهم واحتاطوا أشد الاحتياط في النقل فكانوا يحكمون بضعف الحديث، لأقل شُبهةٍ في سيرةِ الناقل الشخصية مما يؤثر في العدالة عند أهل العلم.

أما إذا اشتبهوا وعلموا أنه كذبَ في شيءٍ من كلامه فقد رفضوا روايته وسموا حديثه موضوعاً أو مكذوباً وإن لم يُعرف عنه الكذب في رواية الحديث مع علمهم بأنه قد يصدق الكذوب.

وكذلك تَوثَّقوا من حِفْظِ كل راوٍ وقارنوا رواياته بعضها ببعض وبروايات غيره فإنْ وجدوا منه خطأ كثيراً وحفظاً غير جيد ضَعَّفُوا روايته وإنْ كان لا مَطعنَ عليه في شخصه ولا في صدقه خشية أن تكون روايته مما خانه فيه الحفظ...»[1].

وقد ألف علماءُ الجرح والتعديل كتباً في أسماء الرجال وتوثيقهم أو تضعيفهم فلست ترى حديثاً من الأحاديث الصحيحة أو الضعيفة إلا ترى ترجمة رواته كلهم في كتب الجرح والتعديل. وليس ثمة شخص جاء ذِكْرُه في حديثٍ إلا تعرض له المحدثون بالجرح أو التعديل. فهناك كتبٌ انفردت بتناولِ الثقات وكتبٌ انفردت بتناول الضعفاء وكتب تناولت الضعفاء والثقات. وكتب ألفت في معرفة الصحابة وكتب في الطبقات وكتب في معرفة الأسماء وتمييز المؤتلف والمختلف، والمتفق والمفترق وكتب في الأسماء والكنى والألقاب وكتب في الوفيات إلى غير ذلك من المؤلفات ومن الجهود التي لا تترك مجالاً لمستزيد.

ونشأ عن ذلك أيضاً علم مصطلح الحديث «الذي يضع القواعد العلمية لتصحيح الأخبار، وهي أصحُ ما عُرفَ في التاريخ من قواعد علمية للرواية والأخبار بل كان علماؤنا رحمهم الله هم أول من وضعوا هذه القواعد على أساس علمي لا مجال بعده للحيطة والتثبت»[2].

فكان المحدثون يضعون مصطلحاً واضحاً أمام كل حديث يبين درجته فيقولون هو:

---

(١) مقدمة الباعث الحثيث، ص٨.

(٢) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي ١٢٥.

متواتر، صحيح، حسن، ضعيف، موضوع إلى غير ذلك من المصطلحات الدقيقة الواضحة.

فالحديث الصحيح هو ما رواه عَدْلٌ تَامُّ الضبطِ عن مِثْلِه إلى رسولِ الله ﷺ غير مُعَلّلٍ ولا شاذ[1].

فلا يُحكَمُ لحديثٍ بالصحةِ حتى يكونَ جميعُ رواته عدولاً ضابطين، ثم لا يكون الحديث شاذاً أي رواه ثقةٌ خالف مَنْ هو أوثق منه، ولا معللاً أي فيه علة خفية في السند أو في المتن يعرفها جهابذةُ أهل العلم.

وأما المتواتر فهو أعلى درجات الحديث الصحيح لأنه ينبغي أن تكون سلاسلُ رواته عدداً كثيراً بحيث يستحيل تواطؤهم على الكذب وممن توفرت فيهم شروط الصحيح. وتوضيح ذلك أن تروي سلسلة كل رجالها معروفون بالعدل والضبط حديثاً إلى رسول الله. ثم تروي سلسلة أخرى معروفون بالعدل والضبط الحديثَ نفسَهُ إلى رسول الله. ثم تروي سلسلة أخرى كالسلسلة السابقة، الحديثَ نفسه، ثم تروي سلسلة أخرى كالسلاسل الأخرى الحديث نفسه، ثم تروي السلسلة أخرى كالسلاسل الأخرى الحديث نفسه.

قالوا: وأقلُّ هذه السلاسل خمسة وقسم ضبطه باثنتي عشرة سلسلة وبعشرين وبأربعين وبسبعين وبغير ذلك.

فهذا الحديث أي الحديث المتواتر يفيد العلم القطعي.

والأحاديث كلها مُدَوَّنة مسجلة برواتها وألفاظها ودرجاتها فلا يمكن أحداً أن يقول حديثاً واحداً من نفسه لأن الأحاديث كلها بلا استثناء مدونة في كتب الحديث ومدوّن معها رواتها ومدوَّنٌ لفظُ كل راوٍ بحيث لا يمكن التصرف بـ(حرف) واحد. ومدون معها درجة الحديث. فأي ضبط هذا؟!

وأَصحُّ كتبِ الحديث بإجماع المسلمين هو صحيح البخاري ثم صحيح مسلم. وصحيح البخاري يشمل أربعة آلاف حديث وهو - كما ذكر البخاري - أخرجه من زهاء

---

(١) مصطلح الحديث للشيخ عبد الغني محمود ١٤، الباعث الحثيث ٢١.

ستمائة ألف حديث وما وضع فيه حديثاً إلا اغتسل قبل ذلك وصلى ركعتين[١].

والبخاري أكبر إمام في الحديث في عصره بلا منازع أذعن له شيوخُ العلم وأقروا له بالفضل وفضلوه على أنفسهم في سائر الأمصار وكانوا لا يقدمون عليه أحداً. قال البخاري: كتبتُ الحديث عن ألف شيخ وأكثر، ما عندي حديث لا أذكر إسناده[٢].

نظر في الحديث من صغره وردَّ على بعض الشيوخ منذ كان عمره إحدى عشرة سنة[٣]. وكان أهل المعرفة من أهل البصرة يَعْدُونَ خلفه في طلب الحديث وهو شاب حتى يغلبوه على نفسه ويجلسونه في بعض الطريق فيجتمع عليه ألوف أكثرهم ممن يكتب عنه[٤].

ذكر أبو حامد أحمد بن حمدون القصار قال: سمعت مسلم بن الحجاج - صاحب الصحيح المشهور - جاء إلى محمد بن إسماعيل البخاري فقبَّلَ بين عينيه - وقال دَعْني أقبل حتى رِجْليك يا أستاذ الأستاذين وسيد المحدثين وطبيب الحديث في علله[٥].

عرض البخاريُّ كتابَ الصحيح على شيوخ عصره كالإمام أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وابن المديني فأقروا له بالصحة. وفحصه المسلمون فحصاً دقيقاً في عصره والعصور التي بعده ونظروا في رجاله فأجمع المسلمون على تقديمه وتوثيقه.

قال الحافظ الذهبي: «وأما جامع البخاري الصحيح فَأَجَلُّ كتبِ الإسلام وأفضلها بعد كتاب الله تعالى. فلو رحل الشخصُ لسماعه من ألف فرسخ لَمَا ضاعت رحلته».

وقال الإمام النسائي: ما في هذه الكتب كلها أجود من كتاب محمد بن إسماعيل البخاري[٦].

قال البخاري: «صَنَّفْتُ كتابَ الصحاح لست عشرة سنة خَرَّجته من ستمائة ألف

---

(١) تاريخ بغداد ٢/٩٠٨.

(٢) تاريخ بغداد ٢/١٠.

(٣) تاريخ بغداد ٢/٦.

(٤) تاريخ بغداد ٢/١٥.

(٥) تاريخ بغداد ١٣/١٠٢.

(٦) تاريخ بغداد ٢/٩.

حديث وجعلته حجة فيما بيني وبين الله»[١].

ولم يذكر البخاري فيه كلَّ ما صحَّ عنده وإنما كتب فيه أربعة آلاف حديث صحيح قال البخاري: «ما أدخلتُ في كتابي الجامع الصحيح إلا ما صَحَّ وتركتُ من الصحاح لحال الطوال»[٢].

وكذلك الإمام مسلم بن الحجاج المتوفى سنة ٢٦١ فقد أخذ عن البخاري وعن شيوخ عصره وطاف البلاد وألف كتابه الصحيح من ثلثمائة ألف حديث مسموعة وفيه زهاء أربعة آلاف حديث. وفحصه المسلمون فحصاً دقيقاً وأقروا له بالتقدم والثقة فهذان الكتابان أصح كتب الحديث بإجماع المسلمين.

قال الحافظ ابن كثير: «أول من اعتنى بجمع الصحيح أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري وتلاه صاحبه وتلميذه أبو الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري فهما أصح كتب الحديث والبخاري أرجح. . .

ثم إن البخاري ومسلماً لم يلتزما بإخراج جميع ما يُحكَمُ بصحتهِ من الأحاديث فإنهما قد صححا أحاديث ليست في كتابيهما»[٣].

والخلاصة إن كل ما في الصحيحين صحيح وليس فيهما كل الصحيح.

ثم تأتي بعد هذين الكتابين في الصحة الصحاح الأربعة وهي: جامع الترمذي وسنن النسائي وسنن أبي داود وسنن ابن ماجه رحمهم الله أجمعين.

وبعد هذه المقدمة القصيرة نعود إلى بحثنا.

---

(١) تاريخ بغداد ٢/ ١٤.

(٢) تاريخ بغداد ٢/ ٩.

(٣) الباعث الحثيث ٢٥.

أدِلة الحَدِيث

إن الأدلة التي تثبت نبوة محمد من الحديث الصحيح كثيرة غاية الكثرة ونحن لا نريد أن نستقصي جميع الأحاديث الدالة على ذلك وإنما حسبنا منها ما يقيم الدليل.

وقد التزمنا أن لا نذكر إلا حديثاً صحيحاً فمن ذلك

١- إخباره بالنصر وكثرة الفتوح وهلاك كسرى وقيصر:

جاء في «صحيح البخاري» بطرق متعددة عن الليث عن يزيد بن أبي حبيب عن أبي الخير عن عقبة بن عامر أن النبي ﷺ خرج يوماً فصلى على أهل أُحد صلاتَهُ على الميت ثم انصرف إلى المنبر فقال: «إني فَرَطٌ لكم وأنا شهيدٌ عليكم وإني والله لأنظرُ إلى حوضي الآن وإني أُعطيتُ مفاتيح خزائن الأرض أو مفاتيح الأرض. وإني والله ما أخاف عليكم أن تُشركوا بعدي ولكن أخاف عليكم أن تَنَافسوا فيها».

وجاء فيه أيضاً عن أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ جلس ذات يوم على المنبر وجلسنا حوله فقال: «إني مما أخاف عليكم من بعدي ما يُفتح عليكم من زهرةِ الدنيا وزينتها. . . الحديث.

وجاء فيه نحوه عن أبي هريرة رضي الله عنه.

ومن ذلك ما جاء فيه عن خباب بن الأرتّ قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسدٌ بردةً له في ظل الكعبة قلنا له: ألا تَستنصرْ لنا؟ ألا تدعو الله لنا؟ قال. . . الحديث وفيه:

«والله لَيُتِمّنَّ اللهُ هذا الأمرَ حتى يسيرَ الراكبُ من صنعاء إلى حضرموت لا يخافُ إلا الله أو الذئبَ على غنمه ولكنكم تستعجلون».

ومن ذلك ما جاء فيه عن عمرو بن عوف الأنصاري أن رسول الله ﷺ قال حديثاً وفيه: «فأبشروا وأَمِّلُوا ما يَسُرُّكم فوالله لا الفقرَ أخشى عليكم ولكن أخشى عليكم أن

تُبسطَ عليكم الدنيا كما بُسطتْ على مَنْ كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها وتُهلككم كما أهلكتهم».

ومن ذلك ما جاء في «صحيح مسلم» عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله زوى لي الأرضَ فرأيتُ مشارقها ومغاربها وإن أمتي سيبلغُ مُلْكُها ما زُوِيَ لي منها وأُعطيتُ الكنزين الأحمر والأبيض... الحديث».

ومن ذلك ما جاء في «صحيحي البخاري ومسلم» بطرق متعددة عن أبي هريرة وجابر بن سمرة رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «هلك كسرى ثم لا يكون كسرى بعده، وقيصر ليهلكن، ثم لا يكون قيصر بعده، ولتقسمنَّ كنوزهما في سبيل الله».

وفي «صحيح البخاري» أن المغيرة قال لعامل كسرى: وأخبرنا نبينا ﷺ عن رسالة ربنا أنه مَنْ قُتلَ منا صار إلى الجنة في نعيم لم ير مثلها قط، ومن بقي منا مَلَكَ رقابكم.

وفي «صحيح البخاري» بأكثر من طريق عن محل بن خليفة عن عدي بن حاتم قال: «بينا أنا عند النبي ﷺ إذ أتاه رجلٌ فشكا إليه الفاقةَ، ثم أتاه آخر فشكا إليه الفاقةَ، ثم أتاه آخر فشكا قطعَ السبيل، فقال يا عدي: هل رأيتَ الحيرة؟ قلتُ: لم أرها وقد أُنبئت عنها. قال: فإن طالتْ بك حياةٌ لترينَّ الظعينةَ ترتحلُ من الحيرة حتى تطوفَ بالكعبة لا تخافُ أحداً إلا الله. قلتُ فيما بيني وبين نفسي: فأين دُعَّار طيء الذين قد سعروا البلاد؟. ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى، قلتُ: كسرى بن هرمز؟ قال: كسرى بن هرمز. ولئن طالت بك حياة لترين الرجلَ يُخرج مِلْءَ كفِّه من ذهب أو فضة يطلب مَنْ يقبله منه فلا يجدُ أحداً يقبله منه. وليلقين الله أحدكم يوم يلقاه وليس بينه وبينه ترجمان يترجم له فيقولن: ألم أبعثْ إليك رسولاً فيبلغك؟ فيقول: بلى. فيقول: ألم أعطك مالاً وأفضل عليك؟ فيقول: بلى. فينظر عن يمينه فلا يرى إلا جهنم وينظر عن يساره فلا يرى إلا جهنم، قال عدي: سمعتُ النبي ﷺ يقول: اتقوا النار ولو بشق تمرة فمن لم يجدْ شقة تمرة فبكلمةٍ طيبة. قال عدي: فرأيت الظعينةَ ترتحلُ من الحيرة حتى تطوفَ بالكعبة لا تخافُ إلا الله. وكنتُ فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز، ولئن طالت بكم حياة لَتروُنَّ ما قال النبيُّ أبو القاسم يخرج ملء كفه».

أقولُ: حدث هذا في زمن الخليفة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه فقد كان عماله

يطوفون على مَنْ يقبلُ الصدقة فلا يقبلها أحدٌ فقد أغنى عمرُ بن عبد العزيز الناسَ.

ومن ذلك ما جاء في «صحيحي البخاري ومسلم» عن عبد الله بن عبد الرحمن الأنصاري ومحمد بن يحيى بن حبان وإسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة عن أنس بن مالك قال: كان رسولُ الله ﷺ يدخل على أم حِرام بنتِ مِلحان فتطعمه وكانت أم حرام تحت عبادةَ بن الصامت فدخل عليها رسول الله ﷺ فأطعمته وجعلت تفلي رأسَهُ فنامَ رسولُ الله ﷺ ثم استيقظ وهو يضحكُ. قالت: فقلتُ: وما يُضحكاكَ يا رسولَ الله؟ قال: ناسٌ من أمتي عُرضوا عليَّ غزاةً في سبيل الله يركبون ثَبَجَ هذا البحر ملوكاً على الأسرّةِ أو مثل الملوك على الأسرّة - شكَّ إسحاق - قالت: فقلت: يا رسول الله ادعُ الله أن يجعلني منهم، فدعا لها رسول الله ﷺ ثم وضع رأسه ثم استيقظ وهو يضحك فقالت: وما يُضحكك يا رسول الله؟ قال: ناسٌ عُرضوا عليَّ غزاة في سبيل الله - كما قال في الأول - قالت: فقلت: يا رسول الله ادعُ الله أن يجعلني منهم. قال: أنتِ من الأولين. فركبتُ في البحر زمانَ معاوية بن أبي سفيان فَصُرعت عن دابتها حين خرجت من البحر فهلكت. وأخرجه النسائي والبيهقي.

وجاء نحو هذا الحديث في «صحيح البخاري» عن عمير بن الأسود العنسي أنه أتى عبادة بن الصامت وهو نازلٌ في ساحة حمص وهو في بناء له ومعه أم حرام. قال عمير: فحدَّثتنا أمُّ حرام أنها سمعت النبي ﷺ يقول: «أولُ جيش من أمتي يغزون البحر قد أوجبوا. قالت أم حرام: قلتُ يا رسول الله أنا فيهم؟ قال: أنت فيهم. ثم قال النبي ﷺ: أولُ جيش من أمتي يغزون مدينة قيصر مغفورٌ لهم. فقلتُ: أنا فيهم يا رسول الله؟ قال: لا».

فأنت ترى أن هذا المعنى قد تواتر بطرق كثيرة صحيحة عن عقبة بن عامر وأبي سعيد الخدري وأبي هريرة وخباب بن الأرتّ وعمرو بن عوف الأنصاري وثوبان وجابر بن سمرة والمغيرة بن شعبة وعدي بن حاتم وأم حرام فأفاد العلمَ القطعي ودلَّ ذلك دلالة ظاهرة على صحة نبوته ﷺ.

٢- الإخبار بما يفتح المسلمون من البلاد:

أخبر الرسول ﷺ بفتح خيبر واليمن والعراق والشام وبيت المقدس ومصر والروم وفارس وغيرها من البلاد قبل فتحها، وأكثرُ هذه البلاد فُتح بعد موته ﷺ فقام ذلك

دليلاً على صحة نبوته ﷺ.

فمن ذلك ما جاء في «صحيحي البخاري ومسلم» عن حميد بن عبد العزيز بن صهيب وثابت البناني ومحمد بن سيرين وقتادة كلهم عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: وفيه: «فخرجنا إلى خيبر فانتهينا إليهم ليلاً فلما أصبح ولم يسمع أذاناً ركب وركبتُ خلف أبي طلحة وإن قدمي لَتمَسُّ قدمَ النبيِّ ﷺ قال: فخرجوا إلينا بمكاتلهم ومساحيهم فلما رأوا النبي ﷺ قالوا: محمد والله محمد والخميس[1] قال: فلما رآهم رسول الله ﷺ قال: الله أكبر الله أكبر خَربتْ خيبر إنَّا إذا نزلنا بساحةِ قومٍ فساءَ صباحُ المُنذَرين» وأخرجه البيهقي.

ونحوه ما جاء في «صحيحي البخاري ومسلم» عن سهل بن سعد وسلمة بن الأكوع وأبي هريرة رضي الله عنهم أجمعين قالوا - واللفظ هنا لسهل بن سعد -: «قال النبي ﷺ يوم خيبر: لأُعطينَّ الرايةَ غداً رجلاً يفتح الله على يديه يُحبُّ الله ورسوله ويحبه الله ورسوله. فباتَ الناسُ ليلتهم أيهم يُعطى فغدوا كلهم يرجوه. فقال: أين علي؟ فقيل: يشتكي عينيه. فبصقَ في عينيه ودعا له فبرأ كأنْ لم يكن به وجعٌ فأعطاه. فقال: أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا. قال: انفذ على رِسْلِكَ حتى تنزل بساحتهم ثم ادْعُهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجبُ عليهم فوالله لأن يهديَ اللهُ بك رجلاً خيرٌ لك من أن يكون لك حمر النعم» وأخرجه البيهقي وابن الأثير في «أسد الغابة».

ففتح الله على يديه فدل ذلك على صحة نبوته ﷺ.

ومن ذلك ما جاء في «صحيح البخاري» عن سفيان بن أبي زهير رضي الله عنه أنه قال: «سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: تُفتح اليمن فيأتي قوم يُبسّون فيتحملون بأهليهم ومَنْ أطاعهم والمدينة خيرٌ لهم لو كانوا يعلمون. وتُفتح الشام فيأتي قوم يُبسّون فيتحملون بأهليهم ومن أطاعهم والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون. وتفتح العراق فيأتي قوم يُبسّون فيتحملون بأهليهم ومن أطاعهم والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون».

ونحوه ما جاء في «صحيح البخاري» عن عبد الله بن عمر عن رسول الله ﷺ قال: «اللهم باركْ لنا في شامنا وفي يمننا. قال: قالوا: وفي نَجْدِنا. قال: قال: اللهم بارك

---

(١) الخميس: الجيش.

لنا في شامنا وفي يمننا. قال: قالوا: وفي نجدنا. قال: قال: هناك الزلازلُ والفتن وبها يطلع قرنُ الشيطان».

وفي هذا إخبار بفتح الشام قبل أن تُفتح.

ومن ذلك ما جاء في «صحيح البخاري» عن عوف بن مالك قال: أتيتُ النبيَّ ﷺ وهو في قبة من أدم، فقال: ٱعدُدْ ستاً بين يدي الساعة: «موتي، ثم فتح بيت المقدس... الحديث».

ومن ذلك ما جاء في «صحيح مسلم» عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «إنكم ستفتحون مصر وهي أرض يسمى فيها القيراط فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها فإنَّ لهم ذمةً ورحماً، أو قال: ذمة وصهراً. فإذا رأيت رجلين يختصمان فيها في موضع لبنة فاخرج منها.

قال: فرأيت عبد الرحمن بن شرحبيل بن حَسَنة وأخاه ربيعة يختصمان في موضع لبنة فخرجتُ منها».

ومن ذلك ما جاء في «صحيح مسلم» عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مُنعت العراق درهمها وقفيزها، ومنعت الشام مُدْيها ودينارها، ومنعت مصر اردبّها ودينارها، وعُدتم من حيث بدأتم، وعدتم من حيث بدأتم، وعدتم من حيث بدأتم. شهد على ذلك لحمُ أبي هريرة ودمه».

وهذا إخبارٌ بفتح هذه البلاد وما تَؤولُ إليه. وقد وقع ما ذكره ﷺ وعاد الناس من حيث بدأوا.

ومن ذلك ما جاء في «صحيح مسلم» عن نافع بن عتبة قال: «كنا مع رسول الله ﷺ في غزوة... الحديث وفيه:

قال: تَغزونَ جزيرةَ العرب فيفتحها الله، ثم فارس فيفتحها الله، ثم تغزون الرومَ فيفتحها الله... إلخ».

وهذه الأحاديث متواترة في المعنى - كما ترى - فقد رويت هذه الأحاديث في فتح البلاد عن طريق أنس بن مالك وسهل بن سعد وسلمة بن الأكوع وأبي هريرة

وسفيان بن أبي زهير وابن عمر وعوف بن مالك وأبي ذر ونافع بن عتبة بطرق صحيحة متعددة فأفادت العلمَ اليقينيَّ القطعي ودلَّت بصورةٍ قاطعة على صدق نبوته ﷺ.

٣- الإخبار بوفاة النجاشي وآخرين:

أخبر النبي ﷺ بوفاة النجاشي ملك الحبشة في اليوم الذي مات فيه وإنَّ ما بين الحبشة والمدينة مسيرة الأيام والليالي فجمع الصحابة فصفَّهم صفوفاً وصلى عليه وهذا إخبار بالغيب.

روى البخاري ومسلم عن سعيد بن المسيب وأبي سلمة عبد الرحمن عن أبي هريرة وأخرجاه عن سعيد بن ميناء وعطاء وعن أبي الزبير عن جابر بن عبد الله وأخرجاه عن عمران بن حصين وأخرجاه بطرق متعددة عن الشعبي عن ابن عباس - وهذا اللفظ لأبي هريرة - «أن رسول الله ﷺ نعى النجاشي في اليوم الذي مات فيه، خرج إلى المصلى فصفَّ بهم وكَبَّرَ أربعاً».

وعن جابر بن عبد الله الأنصاري أنه كان في الصف الثاني أو الثالث.

وأخرجه ابن عبد البر في «الاستيعاب» والنسائي والبيهقي.

فأنت ترى أن هذا الحديث روي بسلاسل متعددة كلها صحيحة، بل هو في أعلى الصحيح فدلّ على نبوته ﷺ.

ومن ذلك ما جاء في البخاري بطرق كثيرة عن حميد بن هلال عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «أخذَ الرايةَ زيد فأُصيبَ، ثم أخذها جعفر فأصيب، ثم أخذها عبد الله بن رواحة فأصيب، وإنَّ عيني رسولِ الله ﷺ لتذرفان، ثم أخذها خالد بن الوليد من غير إمرةٍ فَفُتِحَ له». وأخرجه البيهقي وابن الأثير في أسد الغابة. وأخرج البخاري نحوه أيضاً عن عبد الله بن عمر.

وهذا الحديث قيل في معركة مؤتة والرسول في المدينة. وهو من معجزاته ﷺ.

ومن ذلك ما جاء في «صحيح البخاري» عن أبي هريرة (رض) قال:

«بعث رسول الله ﷺ عشرة رهط سرية عيناً وأمّرَ عليهم عاصم بن ثابت الأنصاري [ثم ذكر الحديث أن فيهم مَن قُتلَ وفيهم من أُسِرَ وبيع ومعهم خبيب] وفيه: فأخبر النبي

ﷺ أصحابه خبرَهم وما أُصيبوا».

فأنت ترى أنَّ هذا المعنى متواتر ورد عن أبي هريرة وجابر بن عبد الله وعمران بن حصين وابن عباس وأنس بن مالك وعبد الله بن عمر بأسانيد متعددة كلها صحيحة فدل ذلك على صحة نبوته ﷺ.

٤- الإخبار بخاتمة طائفة من الناس:

أخبر الرسول بخاتمةِ بعضِ الأشخاص فقال: هو من أهلِ النار أو هو من أهل الجنة فَخُتِمَ له كما قال. ومن ذلك ما جاء في «صحيحي البخاري ومسلم» عن أبي هريرة وسهل بن سعد الساعدي رضي الله عنهما - واللفظ لسهل - «أن رسول الله ﷺ التقى هو والمشركون، فاقتتلوا فلما مال رسول الله ﷺ إلى عسكره ومال الآخرون إلى عسكرهم وفي أصحاب رسول الله ﷺ رجلٌ لا يدع لهم شاذّة ولا فاذّة إلا اتّبعها يضربها بسيفه، فقالوا: ما أجزأ منا اليومَ أحدٌ كما أجزأ فلان. فقال رسول الله ﷺ: أما إنه من أهلِ النار. فقال رجل من القوم: أنا صاحبه. قال: فخرج معه كلما وقف وقف معه وإذا أسرع أسرع معه قال: فجُرِح الرجلُ جرحاً شديداً فاستعجلَ الموت فوضع نَصْلَ سيفهِ بالأرض وذبابه بين ثدييه ثم تحامل على سيفه فقتلَ نفسه. فخرج الرجلُ إلى رسول الله ﷺ فقال: أشهدُ أنك رسولُ الله. قال: وما ذاك؟

قال: الرجلُ الذي ذكرتَ آنفاً إنه من أهل النار فأعظمَ الناسُ ذلك فقلت: أنا لكم به فخرجتُ في طلبه ثم جرح جرحاً شديداً فاستعجل الموت فوضع نصلَ سيفهِ بالأرض وذبابهُ بين ثدييه ثم تحامل عليه فقتل نفسه. فقال رسول الله ﷺ عند ذلك: إن الرجلَ ليعملُ عملَ أهلِ الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعملُ عملَ أهلِ النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة»(١).

ومن ذلك ما جاء في «صحيح البخاري» عن سعيد بن المسيب وعبد الرحمن بن عبد الله بن كعب عن أبي هريرة، وفيه عن عبيد الله بن كعب عمن شهد خيبر مع النبي ﷺ - واللفظ لأبي هريرة - قال: «شهدنا خيبرَ فقال رسول الله ﷺ لرجل ممن معه يَدَّعي الإسلام: هذا من أهل النار. فلما حضرَ القتال قاتل الرجلُ أشدَّ القتال حتى كثرتْ به

---

(١) لأن قتل النفس حرام في الإسلام وجرم كبير ومن أسباب دخول النار.

الجراحُ فكاد بعض الناس يرتاب فوجدَ الرجلُ ألمَ الجراحة فأهوى بيده إلى كنانته فاستخرج منها أسهماً فنحر بها نفسه، فاشتد رجالٌ من المسلمين فقالوا يا رسول الله: صَدَّقَ الله حديثك، انتحرَ فلان فقتلَ نفسه فقال: قم يا فلان فأذّنْ إنه لا يدخل الجنةَ إلا مؤمنٌ، إنَّ الله يؤيدُ هذا الدينَ بالرجلِ الفاجر». وأخرجه الإمام أحمد في «المسند» والبيهقي.

ومن ذلك ما جاء في «صحيح البخاري» عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «انطلق سعد بن معاذ معتمراً فنزل على أمية بن خلف أبي صفوان [ثم ذكر الحديث ملاحاة سعد لأبي جهل] ثم جاء فيه:

قال: فجعل أميةُ يقول لسعد: لا ترفع صوتك وجعل يمسكه.

فغضب سعد فقال: دَعْنَا عنكَ فإني سمعتُ محمداً ﷺ يزعم أنه قاتلك. قال: إياي؟ قال: نعم.

قال: والله ما يكذبُ محمد إذا حَدَّث. فرجع إلى امرأته فقال: أَمَا تعلمين ما قال لي أخي اليثربي؟ قالت: وما قال؟ قال: زعم أنه سمع محمداً يزعم أنه قاتلي. قالت: فوالله ما يكذبُ محمد. قال: فلما خرجوا إلى بدر وجاء الصريخ قالت له امرأته: أما ذكرتَ ما قال لك أخوك اليثربي؟ قال: فأراد ألا يخرج. فقال له أبو جهل: إنك من أشرافِ الوادي فَسِرْ يوماً أو يومين فسار معهم فقتله الله».

ومن ذلك ما جاء في «صحيح مسلم» عن أنس بن مالك قال: «كنا مع عمر - وذكر الحديث وفيه - فقال - أي عمر - أن رسول الله ﷺ كان يُرينا مصارعَ أهلِ بدر بالأمس يقول: هذا مصرع فلان غداً إن شاء الله، قال: فقال عمر: فوالذي بعثه بالحق ما أخطأوا الحدود التي حَدَّ رسول الله ﷺ».

ومن ذلك ما جاء في «صحيح البخاري» عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «قدم مسليمة الكذاب على عهد رسول الله ﷺ فجعل يقول: إنْ جعلَ لي محمد الأمرَ من بعدهِ تبعته. وقدمها في بَشَرٍ كثيرٍ من قومه. فأقبل إليه رسول الله ﷺ ومعه ثابت بن قيس بن شماس وفي يد رسول الله ﷺ قطعة جريد حتى وقف على مسليمة في أصحابه فقال: لو سألتني هذه القطعةَ ما أعطيتُكَها ولن تعدو أمرَ الله فيك ولئن أدبرتَ ليعقرنَّكَ

الله، وإني لأراك الذي أُريتُ فيكَ ما رأيت. فأخبرني أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال: بينما أنا نائم رأيت في يدي سوارين من ذهب فأَهمَّني شأنهما، فأوحي إليَّ في المنام أن أنفخهما فنفختهما فطارا. فأوَّلتهما كذَّابين يخرجان بعدي فكان أحدهما العَنسي، والآخر مسيلمة الكذاب صاحب اليمامة».

ومن ذلك ما جاء في «صحيح البخاري» عن أبي بكرة قال: «رأيتُ رسول الله ﷺ على المنبر والحسن بن علي إلى جنبه وهو يُقْبِلُ على الناس مرةً وعليه أخرى ويقول: إن ابني هذا سيدٌ ولعلَّ الله أنْ يُصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين».

وقد وقع ما ذكره رسول الله ﷺ فأصلح الله بالحسن بين فئتين مسلمتين عظيمتين وهما أهل الشام وأهل العراق.

ومن ذلك ما جاء في «صحيحي البخاري ومسلم» بأكثر من طريق عن أبي سعيد الخدري وأم سلمة - واللفظ هنا لأبي سعيد - قال: «كنا نحمل لَبِنةً لبنة وعمار يحمل لبنتين - يعني في بناء المسجد - فرآه النبي ﷺ فينفض التراب عنه ويقول: وَيْحَ عمار تقتلهُ الفئةُ الباغية يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار. قال يقول عمار: أعوذ بالله من الفتن».

وقال ابن عبد البر في «الاستيعاب»: «وتواترت الأخبار عن النبي ﷺ أنه قال: يقتل عماراً الفئة الباغية. وهو من أصح الأحاديث». فقتل عمار رضي الله عنه في جيش علي وقتلته الفئة الباغية على علي وهي فئة معاوية. فكان كما أخبر رسول الله ﷺ.

ومن ذلك ما جاء في «صحيحي البخاري ومسلم» عن سعيد بن المسيب وأبي عثمان النهدي عن أبي موسى الأشعري... وساق الحديث وفيه: «فجاء إنسان يحرك الباب فقلت: مَنْ هذا؟ فقال: عثمان بن عفان، فقلت: على رِسْلِكَ. فجئتُ إلى رسول الله ﷺ فأخبرته فقال: «ائذنْ له وبَشِّرْهُ بالجنة على بلوى تُصيبه».

ومن ذلك ما جاء في «صحيحي البخاري ومسلم» عن أنس بن مالك وأبي موسى الأشعري - واللفظ ههنا لأنس بن مالك - قال: إن النبي ﷺ صعد أحداً وأبو بكر وعمر وعثمان فرجف بهم فقال: اثبت أُحد فإنما عليك نبيٌّ وصِدِّيقٌ وشهيدان».

وجاء نحو هذا المعنى عن أبي هريرة رضي الله عنه في «صحيح مسلم».

ومن ذلك ما جاء في «صحيحي البخاري ومسلم» عن يزيد بن أبي عبيد وعبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك وإياس بن سلمة بن الأكوع كلهم عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: «خرجنا مع النبي ﷺ إلى خيبر فسرنا ليلاً فقال رجل من القوم لعامر: يا عامر ألا تسمعنا من هنيهاتك وكان عامر رجلاً شاعراً فنزل يحدو بالقوم... الحديث.

فقال رسول الله ﷺ: من هذا السائق؟ قالوا: عامر بن الأكوع. قال: يرحمه الله...

ثم يسوق الحديث وفيه أن عامراً مات مساءَ فتحِ خيبر». وأخرجه البيهقي والنسائي وابن الأثير في «أسد الغابة» وغيرهم.

ومن ذلك ما جاء في «صحيحي البخاري ومسلم» عن عروة ومسروق عن عائشة رضي الله عنها قالت: «دعا النبي ﷺ فاطمة ابنته في شكواه الذي قُبض فيه فسارَّها بشيءٍ فبكت، ثم دعاها فسارّها فضحكت. قالت: فسألتها عن ذلك فقالت: سارّني النبي ﷺ فأخبرني أنه يُقبض في وجعه الذي توفي فيه فبكيتُ، ثم سارّني فأخبرني أني أولُ أهلِ بيته أتبعه فضحكت».

وكان كما قال ﷺ أنها أول أهل بيته لحوقاً به.

إلى غير ذلك من الأحاديث الصحيحة.

وهذا المعنى متواتر فقد جاء بأسانيد كثيرة كلها صحيحة عن أبي هريرة وسهل الساعدي وابن مسعود وأنس بن مالك وابن عباس وأبي بكرة وأبي سعيد الخدري وأم سلمة وأبي موسى الأشعري وسلمة بن الأكوع وعائشة وبطرق متعددة فدل هذا على صحة نبوة محمد.

٥- الإخبار عن الفرقة المارقة:

كان رسول الله ﷺ كثيراً ما يخبر أصحابه عما يحدث فيهم وكان الصحابة يسألونه أحياناً فيجيب ومن ذلك ما جاء في «صحيحي البخاري ومسلم» - في غير هذا الباب - عن أبي موسى وأنس بن مالك «أن رسول الله ﷺ خرج حين زاغت الشمسُ فصلى الظهر فقام على المنبر فذكر الساعةَ فذكر أن فيها أموراً عظاماً ثم قال: مَنْ أَحَبَّ أن يسأل عن شيء فليسأل فلا تسألوني عن شيء إلا أخبرتكم ما دمتُ في مقامي هذا

فأكثرَ الناسُ في البكاء وأكثرَ أن يقول: سلوني. فقام عبد الله بن حذافة السهمي قال: من أبي؟ قال: أبو حذافة. ثم أكثر أن يقول: سلوني فبرك عمر على ركبتيه فقال: رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً... الحديث».

ومن ذلك ما أخبره بخروج المُبِير والكذابِ في ثقيف. جاء في «صحيح مسلم» «أن أسماء بنت أبي بكر قالت للحجاج: أما إنَّ رسولَ الله ﷺ حدثنا أن في ثقيف كذاباً ومبيراً[1]. فأما الكذاب فرأيناه وأما المبير فلا إخالكَ إلا إياه».

ومن عظيم الأخبار ما أخبر به عن خروج الفرقة المارقة وأنهم تقتلهم أولى الطائفتين بالحق فقتلهم علي كرم الله وجهه.

جاء في «صحيحي البخاري ومسلم» عن أبي سعيد الخدري وعلي بن أبي طالب وعبد الله بن عمر، واللفظ هنا لأبي سعيد رضي الله عنه - وفيه: «فأقبل رجل غائر العينين مشرف الوجنتين ناتيء الجبين كثّ اللحية محلوق فقال: اتق الله يا محمد. فقال: مَنْ يُطعِ اللهَ إذا عصيتُ، أيأمنني اللهُ على أهل الأرض فلا تأمنوني؟ فسأله رجل قَتْلَهُ، أحسبه خالد بن الوليد فمنعه، فلما ولّى قال: إن من ضِئْضىء هذا أو في عقب هذا قوم يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية يقتلون أهلَ الإسلام ويدعون أهلَ الأوثان لئن أنا أدركتهم لأقتلنهم قتلَ عاد».

وأخرج البخاري ومسلم أيضاً عن أبي سلمة بن عبد الرحمن والضحاك الهمداني وأبو نضرة عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «بينما نحن عند رسول الله ﷺ وهو يَقسمُ قَسْماً أتاه ذو الخويصرة وهو رجل من بني تميم فقال: يا رسول الله اعدلْ فقال: ويلك ومَنْ يعدل إذا لم أعدل؟ قد خِبْتَ وخسرتَ إنْ لم أكن أعدل. فقال عمر: يا رسول الله ائذن لي فيه فأضرب عنقه. فقال: دَعْهُ فإن له أصحاباً يَحقرُ أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الدين كما يمرق السهمُ من الرمية... إلى أن يقول: آيتهم رجلٌ أسود إحدى عضديه مثل ثدي المرأة أو مثل البضعة تَدَرْدَرُ، ويخرجون على حين فرقة من الناس.

قال أبو سعيد: فأشهد أني سمعتُ هذا الحديث من رسول الله ﷺ وأشهد أن

(١) المبير: السفّاك، المبيد، المهلك.

علي بن أبي طالب قاتلهم وأنا معه. فأمر بذلك الرجل فالتُمسَ فأُتيَ به حتى نظرت إليه على نعت النبي ﷺ الذي نعته».

وجاء في «صحيح مسلم»: حدثنا عبد بن حميد حدثنا عبد الرزاق بن همام حدثنا عبد الملك بن أبي سليمان حدثنا سلمة بن كهيل حدثني زيد بن وهب الجهني أنه كان في الجيش الذين كانوا مع علي رضي الله عنه الذين ساروا إلى الخوارج فقال علي رضي الله عنه: أيها الناس إني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: يخرج قوم من أمتي يقرأون القرآن ليس قراءتكم إلى قراءتهم بشيء ولا صلاتكم إلى صلاتهم بشيء ولا صيامكم إلى صيامهم بشيء يقرأون القرآن يحسبون أنه لهم وهو عليهم، لا تجاوز صلاتهم تَراقيهم يمرقون من الإسلام كما يمرق السهمُ من الرميَّة لو يعلم الجيشُ الذين يُصيبونهم ما قُضيَ لهم على لسان نبيهم ﷺ لاتَّكَلُوا عن العمل.

وآية ذلك أن فيهم رجلاً له عضد وليس له ذراع على رأس عضده مثل حلمة الثدي عليه شعرات بيض؛ فتذهبون إلى معاوية وأهل الشام وتتركون هؤلاء يخلفونكم في ذراريكم وأموالكم والله إني لأرجو أن يكونوا هؤلاء القوم فإنهم قد سفكوا الدمَ الحرام وأغاروا في سرح الناس. فسيروا على اسم الله.

قال سلمة بن كهيل: فنزَّلني زيد بن وهب منزلاً حتى قال: مررنا على قنطرة فلما التقينا وعلى الخوراج يومئذ عبد الله بن وهب الراسبي فقال لهم: ألقوا الرماح وسُلُّوا سيوفكم من جفونها فإني أخافُ أن يناشدوكم كما ناشدوكم يوم حروراء. فرجعوا فوحّشوا برماحهم وسلّوا السيوف وشجرهم الناس برماحهم. قال: وقُتلَ بعضُهم على بعض وما أصيب من الناس يومئذ إلا رجلان. فقال علي رضي الله عنه: التمسوا فيهم المُخَدَّج. فالتمسوه فلم يجدوه. فقام علي رضي الله عنه بنفسه حتى أتى أناساً قد قتل بعضهم على بعض قال: أخِّروهم فوجدوه مما يلي الأرض فكبّر ثم قال: صدقَ اللهُ وبلَّغ رسولُه.

قال: فقام إليه عبيدة السلماني فقال: يا أمير المؤمنين الله الذي لا إله إلا هو لسمعتَ هذا الحديثَ من رسولِ الله ﷺ؟

فقال: «إي والله الذي لا إله إلا هو، حتى استحلفه ثلاثاً وهو يحلفُ له». وفيه هذا عن عبيدة عن علي وعن عبيد الله بن أبي رافع مولى رسول الله. وهو آيةٌ عظيمة من

آيات الله تعالى.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وفي رواية في الصحيحين: تمرقُ مارقة على حين فرقةٍ من المسلمين يقتلهم أدنى الطائفتين إلى الحق.

وهؤلاء ظهروا بعد موته ببضع وعشرين سنة في أواخر خلافة علي لما افترق المسلمون. وكانت الفئة بين عسكر علي وعسكر معاوية، وقتلهم علي بن أبي طالب وهم أدنى الطائفتين إلى الحق. والطائفة الأخرى قتلوا عمار بن ياسر وهي الطائفة الباغية.

وكان علي قد أخبرهم بهذا الحديث وبعلامتهم وطلبوا هذا المُخدَّج فلم يجدوه حتى قام علي بنفسه ففتش عليه فوجده مقتولاً فسجد شكراً لله»(١).

٦- الإخبار بهبوب الريح الشديدة:

جاء في «صحيحي البخاري ومسلم» عن أبي حُميد الساعدي قال: «غزونا مع النبي ﷺ غزوة تبوك... الحديث وفيه: فلما أتينا تبوك قال: أما إنها ستهبُّ الليلةَ ريحٌ شديدة فلا يقومنَّ أحد، ومَنْ كان معه بعيرٌ فليعقِلْهُ، فعقلناها وهبت ريح شديدة فقام رجل فألقته بجبل طيء... الحديث».

٧- زيادة الماء:

تواترت الأخبار الصحيحة بزيادة الماء ببركة رسول الله ﷺ فمن ذلك ما جاء في «صحيحي البخاري ومسلم وسنن البيهقي» واللفظ للبخاري قال: «حدثنا مسدد قال: حدثني يحيى بن سعيد قال: حدثنا عوف قال: حدثنا أبو رجاء عن عمران قال: كنا في سفر مع النبي ﷺ... إلى أن قال: ثم سار النبي ﷺ فاشتكى إليه الناسُ من العطش فنزل فدعا فلاناً كان يسميه أبو رجاء، نَسِيَهُ عوف، ودعا علياً فقال: اذهبا فابتغيا الماء فانطلقا فتلقيا امرأة بين مزادتين أو سطيحتين من ماء على بعيرٍ له. فقالا لها: أين الماء؟ قالت: عهدي بالماء أمس هذه الساعة ونفرنا خلوفاً. قالا لها: انطلقي إذن. قالت: إلى أين؟ قالا: إلى رسول الله ﷺ. قالت: الذي يقال له الصابىء؟ قالا: هو

(١) الجواب الصحيح ٤/١٤٣-١٤٤.

الذي تَعنين فانطلقي، فجاءا بها إلى النبي ﷺ وحدثاه الحديث قال: فاستنزلوها عن بعيرها ودعا النبي ﷺ بإناء ففرّغ فيه من أفواه المزادتين أو سطيحتين وأوكأ أفواههما وأطلق العزالي، ونودي في الناس: اسقوا واستقوا فسقى مَنْ شاء واستقى من شاء وكان آخر ذاك أن أعطى الذي أصابته الجنابة إناء من ماء، قال: اذهب فأفرغه عليك وهي قائمة تنظر إلى ما يُفعلُ بمائها، وأيم الله لقد أقلع عنها وإنه ليخيلُ إلينا أنها أشد ملأة منها حين ابتدأ فيها.

فقال النبي ﷺ: اجمعوا لها فجمعوا لها من بين عجوة ودقيقة وسويقة حتى جمعوا لها طعاماً فجعلوه في ثوبٍ وحملوها على بعيرها ووضعوا الثوب بين يديها.

قال لها: تعلمين ما رُزئنا من مائك شيئاً ولكن الله هو الذي أسقانا. فأتت أهلها وقد احتبست عنهم قالوا: ما حبسك يا فلانة؟ قالت العجب، لقيني رجلان فذهبا إلى هذا الذي يقال له الصابىء، ففعل كذا وكذا فوالله إنه لأسحر من بين هذه وهذه وقالت بأصبعيها الوسطى والسبابة فرفعتها إلى السماء تعني السماء والأرض، أو أنه لرسول الله حقاً. . . الحديث».

ومن ذلك ما جاء في «صحيحي البخاري ومسلم» عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة عن أنس بن مالك أنه قال: «رأيتُ رسول الله ﷺ وحانت صلاة العصر فالتمس الناسُ الوضوءَ فلم يجدوه فأُتيَ رسولُ الله ﷺ بوضوء فوضع رسول الله ﷺ في ذلك الإناء يده وأمر الناسَ أن يتوضأوا منه. قال: فرأيتُ الماء ينبعُ من بين أصابعه حتى توضأوا من عند آخرهم».

ومن ذلك ما جاء في «صحيحي البخاري ومسلم» عن ثابت عن أنس وفيه: «فجعلتُ أنظر إلى الماء ينبع من بين أصابعه».

ومن ذلك ما جاء في «صحيحي البخاري ومسلم» عن قتادة عن أنس رضي الله عنه قال: «أُتي النبيُّ ﷺ بإناء وهو بالزوراء فوضع يده فجعل الماء ينبع من بين أصابعه فتوضأ القوم. قال قتادة لأنس: كم كنتم؟ قال: ثلاثمائة أو زهاء ثلاثمائة».

ومن ذلك ما جاء في «صحيح البخاري» عن الحسن وحميد عن أنس قال: «حضرت الصلاة فقام مَنْ كان قريب الدار إلى أهله وبقي قوم فأُتي رسولُ الله ﷺ بمخضبٍ من

حجارة فيه ماء فصغر المخضب أن يبسط فيه كفه فتوضأ القوم كلهم. قلنا: كم كنتم؟ قال: ثمانين وزيادة» وأخرجه ابن سعد في «الطبقات» بأسانيد عديدة عن أنس.

ومن ذلك ما جاء في «صحيح البخاري» عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: «كنا يوم الحديبية أربع عشرة مائة والحديبية بئر، فنزحناها حتى لم نترك فيها قطرة، فجلس النبي ﷺ على شفير البئر فدعا بماء فمضمض ومجّ في البئر فمكثنا غير بعيد ثم استقينا حتى روينا ورَوَتْ أو صدَرتْ ركائِبُنَا».

ومن ذلك ما جاء في «صحيح مسلم» عن معاذ بن جبل في غزوة تبوك وذكر قريباً من هذه الحادثة.

ومن ذلك ما جاء في «صحيح البخاري» عن سالم بن أبي الجعد عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: «عطش الناسُ يوم الحديبية والنبي ﷺ بين يديه ركوة فتوضأ فجهشَ الناسُ نحوه فقال: ما لكم؟ قالوا: ليس عندنا ماء نتوضأ ولا نشرب إلا ما بين يديك. فوضع يده في الركوة فجعل الماء يثور بين أصابعه كأمثال العيونِ فشربنا وتوضأنا. قلتُ: كم كنتم؟ قال: لو كنا مائة ألف لكفانا. كنا خمس عشرة مائة».

ومن ذلك ما جاء في «صحيح مسلم» عن عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت عن جابر بن عبد الله فذكر الحديث وفيه:

«وقال - أي رسول الله ﷺ -: خذ يا جابر فَصُبَّ عليَّ وقل: باسم الله، فصببتُ عليه وقلت: باسم الله فرأيتُ الماء يتفور من بين أصابع رسول الله ﷺ ثم فارت الجفنة ودارت حتى امتلأت فقال: يا جابر نادِ مَنْ كان له حاجة بماء، قال: فأتى الناس فاستقوا حتى رووا. قال: فقلت: هل بقيَ أحد له حاجة؟ فرفع رسول الله ﷺ يده من الجفنة وهي ملأى». وأخرجه البيهقي والنسائي.

ومن ذلك ما جاء في «صحيح البخاري» عن علقمة عن عبد الله قال: «كنا نعدُّ الآياتِ بركةً وأنتم تعدونها تخويفاً. كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فَقَلَّ الماءُ فقال: اطلبوا فضلةً من ماء فجاؤوا بإناء فيه ماء قليل، فأدخل يده في الإناء ثم قال: حيَّ على الطهور المبارك والبركة من الله. فلقد رأيتُ الماء ينبع من بين أصابع رسول الله ﷺ ولقد كنا نسمع تسبيحَ الطعام وهو يؤكل».

فأنت ترى أن هذا المعنى متواتر مَرويٌّ بسلاسل متعددة كلها صحيحة عن عمران وأنس والبراء بن عازب ومعاذ بن جبل وجابر بن عبد الله بأسانيد متعددة فدلَّ ذلك على صدق نبوته ﷺ.

٨- تكثير الطعام:

لقد تواتر تكثيرهُ ﷺ الطعامَ كما تواتر ذلك في الماء.

فمن ذلك ما جاء في «صحيح البخاري» عن الشعبي وكعب بن مالك ووهب بن كيسان عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: «توفي عبد الله بن عمرو بن حرام وعليه دَيْنٌ فاستعنتُ النبي ﷺ على غرمائه أن يضعوا من دَيْنِه فطلب النبي إليهم فلم يفعلوا. فقال لي النبي ﷺ: اذهب فصنِّفْ تمركَ أصنافاً: العجوةُ على حِدة، وعذق زيد على حدة، ثم أرسل إليَّ ففعلتُ ثم أرسلتُ إلى النبي ﷺ فجلس على أعلاه أو في وسطه ثم قال: كِلْ للقوم فكِلْتُهم حتى أَوفيتُهم الذي لهم وبقي تمري كأنه لم ينقصْ منه شيء».

وفي رواية للبخاري قال جابر: «فعرضت على غرمائه أن يأخذوا التمر بما عليه فأبوا ولم يروا أنَّ فيه وفاء».

وفي رواية للبخاري أيضاً قال جابر: «فأتيت النبي ﷺ فقلت: إن أبي ترك عليه دَيْناً وليس عندي إلا ما يُخْرِجُ نَخلُه، ولا يبلغ ما يخرج سنين ما عليه». وساق الحديث. أخرجه النسائي وابن سعد في «الطبقات».

ومن ذلك ما جاء في «صحيحي البخاري ومسلم» عن سلمة وأبي هريرة رضي الله عنهما - واللفظ لسلمة - قال: «خفّت أزوادُ القوم وأملقوا فأتوا النبي ﷺ في نحر إبلهم فأذن لهم. فلقيهم عمر فأخبروه فقال: ما بقاؤكم بعد إبلكم؟ فدخل على النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ما بقاؤهم بعد إبلهم؟ فقال رسول الله ﷺ: نادِ في الناس فيأتون بفضلِ أزوادهم، فَبُسِطَ لذلك نِطْعٌ وجعلوه على النطع فقام رسول الله ﷺ فدعا وبرَّكَ عليه ثم دعاهم بأوعيتهم فاحتثى الناسُ حتى فرغوا. ثم قال رسول الله ﷺ: أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله».

ومن ذلك ما جاء في «صحيحي البخاري ومسلم» عن عبد الرحمن بن أبي بكر رضي

الله عنهما قال: «كنا مع النبي ﷺ ثلاثين ومائة فقال النبي ﷺ: هل مع أحد منكم طعام؟ فإذا مع رجل صاع من طعام أو نحوه فعجن ثم جاء رجل مشرك مشعانّ طويل بغنم يسوقها فقال النبي ﷺ: بيعاً أم عَطِيّة أو قال: أم هبة؟

قال: لا، بل بيع. فاشترى منه شاة فَصُنعت وأمر النبيُّ ﷺ بسواد البطن أن يُشوْى. وايم الله ما في الثلاثين والمائة إلا قد حزَّ النبيُّ ﷺ له حزة من سواد بطنها إن كان شاهداً أعطاها إياه وإن كان غائباً خبأ له، فجعل منها قصعتين فأكلوا أجمعون وشبعنا ففضلت القصعتان فحملناه على البعير أو كما قال»، رواه البيهقي.

ومن ذلك ما جاء في «صحيح البخاري ومسلم» عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة وسعد بن سعيد وعبد الرحمن بن أبي ليلى وعن أبي يحيى وعبد الله بن عبد الله وعمرو بن عبد الله كلهم عن أنس بن مالك قال: «قال أبو طلحة لأم سُليم: لقد سمعتُ صوت رسول الله ﷺ ضعيفاً، أعرفُ فيه الجوع، فهل عندكِ من شيء؟ قالت: نعم. فأخرجتْ أقراصاً من شعير ثم أخرجت خماراً لها فلفَّت الخبزَ ببعضه ثم دَسَّته تحت يدي ولاثَتْنِي ببعضه، ثم أرسلتني إلى رسول الله ﷺ قال: فذهبت به فوجدت رسول الله ﷺ في المسجد ومعه الناس فقمتُ عليهم، فقال لي رسول الله ﷺ: أرسلك أبو طلحة؟ فقلت: نعم. قال: بطعام؟ فقلت: نعم. فقال رسول الله ﷺ لِمَنْ معه: قوموا. فانطلق وانطلقتُ بين أيديهم حتى جئت أبا طلحة فأخبرته. فقال أبو طلحة: يا أم سليم قد جاء رسولُ الله ﷺ بالناس وليس عندنا ما نُطعمهم. فقالت: الله ورسوله أعلم. فانطلق أبو طلحة حتى لقي رسولَ الله ﷺ فأقبل رسول الله ﷺ وأبو طلحة معه فقال رسول الله ﷺ: هلمي يا أم سليم ما عندكِ. فأتت بذلك الخبز فأمر به رسولُ الله ﷺ ففُتَّ وعصرت أم سليم عكة فأدّمتْهُ، ثم قال رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقول، ثم قال: ائذن لعشرةٍ فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا، ثم قال: ائذن لعشرة فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا، ثم خرجوا ثم قال: ائذن لعشرة فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا ثم قال: ائذن لعشرة فأكل القومُ كلهم وشبعوا والقوم سبعون أو ثمانون رجلاً».

وهذا الحديث متواتر عن أنس فقد ورد من ستة طرق صحيحة: ومن ذلك ما جاء في «صحيحي البخاري ومسلم» عن سعيد بن ميناء وعن أيمن عن جابر بن عبد الله

رضي الله عنهما قال: لما حُفر الخندق رأيتُ بالنبي ﷺ خَمَصاً شديداً فانكفأتُ إلى امرأتي فقلت: هل عندك شيء؟ فإني رأيت برسول الله ﷺ خَمَصاً شديداً فأخرجتْ إليَّ جِراباً فيه صاعٌ من شعير ولنا بُهَيمة داجن فذبحتها وطحنت الشعير ففرغت إلى فراغي وقطّعتها في برمتها ثم ولّيت إلى رسول الله ﷺ فقالت: لا تفضحني برسول الله ﷺ وبمن معه، فجئته فساررته فقلت: يا رسول الله ذبحنا بُهيمة لنا وطحنا صاعاً من شعير كان عندنا فتعال أنت ونفرٌ معك فصاح النبي ﷺ فقال: يا أهل الخندق إن جابراً قد صنع سُوراً فحيَّ هلاً بكم، فقال رسول الله ﷺ لا تُنْزِلُنَّ برمتكم ولا تخبزُنَّ عجينكم حتى أَجيءَ فجئت وجاء رسول الله ﷺ يقدمُ الناسَ حتى جئتُ امرأتي فقالت: بِكَ وبك. فقلتُ: قد فعلتُ الذي قلتِ، فأخرجت له عجيناً فبصقَ فيه وبارك ثم عمد إلى برمتنا فبصق وبارك ثم قال: ادعُ خابزةً فلتخبزْ معي واقدحي من برمتكم ولا تنزلوها وهم ألفٌ. فأقسمُ بالله لقد أكلوا حتى تركوه وانحرفوا وإنَّ برُمتنا لتغطُّ كما هي وإن عجيننا ليخبز كما هو». ورواه البيهقي.

ومن ذلك ما جاء في «صحيحي البخاري ومسلم» عن الجعد عن أنس بن مالك قال: «مر بنا في مسجد بني رفاعة فسمعته يقول: كان النبي ﷺ إذا مر بجنبات أم سليم دخل عليها فسلَّم عليها ثم قال: كان النبي ﷺ عروساً بزينب فقالت لي أم سليم: لو أهدينا لرسول الله ﷺ هديةً فقلتُ لها: افعلي؛ فعمدتْ إلى تمر وسمن وأقط فاتخذت حيسة في برمة فأرسلت بها معي إليه فانطلقت بها إليه، فقال لي: ضعها ثم أمرني فقال: ادعُ لي رجالاً سماهم وادع لي مَنْ لقيتَ، قال: ففعلتُ الذي أمرني فرجعتُ فإذا البيت غاصٌّ بأهله فرأيت النبي ﷺ وضع يديه على تلك الحيسة وتكلم بها ما شاء الله ثم جعل يدعو عشرة يأكلون منه ويقول لهم: اذكروا اسمَ الله وليأكلْ كُلُّ رجلٍ مما يليه. قال: حتى تصدعوا كلهم عنها. . . الحديث» ورواه النسائي.

فقد ثبت هذا بطريق التواتر ودل ذلك على نبوته ﷺ.

٩- الدعوة المستجابة:

وهي دعوات كثيرة استجابها الله تعالى لنبيه فمن ذلك ما جاء في «صحيحي البخاري ومسلم» عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة وشريك بن عبد الله بن أبي نمر وثابت وقتادة ويحيى بن سعيد وعبيد الله بن أنس كلهم عن أنس بن مالك قال: «أصابت

الناس سنةٌ على عهد النبي ﷺ فبينا النبي ﷺ يخطب في يوم جمعة قام أعرابي فقال: يا رسول الله هلكَ المالُ وجاع العيالُ فادعُ الله لنا. فرفع يديه وما نرى في السماء قَزَعةٌ فوالذي نفسي بيده ما وضعها حتى ثار السحابُ أمثال الجبال ثم لم ينزل عن منبره حتى رأيتُ المطرَ يتحادر على لحيته ﷺ فمُطرنا يومنا ذلك ومن الغد وبعد الغد والذي يليه حتى الجمعة الأخرى وقام ذلك الأعرابي أو قال غيره فقال: يا رسول الله تَهدّم البناءُ وغرق المال فادعُ الله لنا فرفع يديه فقال: اللهم حَوالينا ولا علينا فما يُشيرُ بيده إلى ناحيةٍ من السحاب إلا انفرجت وصارت المدينة مثل الجَوْبة وسال الوادي قناة شهراً ولم يجىء أحد من ناحية إلا حدّث بالجود». وأخرجه النسائي والبيهقي.

وهذا وارد بطريق متواتر عن أنس كما ترى.

ومن ذلك ما جاء في «صحيح البخاري» عن عباد بن تميم عن عمه وكان صحابياً أن النبي ﷺ خرج بالناس يستسقي لهم، فقام فدعا الله قائماً ثم توجه قِبلَ القبلة وحَوَّل رداءه فأُسْقُوا.

ومن ذلك ما جاء في «صحيح البخاري» عن مسروق في استشفاع قريش بالرسول قال: «فدعا رسول الله ﷺ فَسُقُوا الغيث فأطبقتْ عليهم سبعاً وشكا الناسُ كثرةَ المطر قال: اللهم حوالينا ولا علينا فانحدرت السحابةُ عن رأسه فسقوا الناس حولهم».

ومن ذلك ما جاء فيه عن سالم عن أبيه: «ربما ذكرتُ قولَ الشاعر وأنا أنظرُ إلى وجه النبي ﷺ يستسقي فما ينزل حتى يجيش كل ميزاب، يعني قوله:

وأبيضَ يُستسقى الغمامُ بوجهه ثمالُ اليتامى عصمةٌ للأرامل»

ومن ذلك ما جاء في «صحيحي البخاري ومسلم» بطرق متعددة عن أبي إسحاق عن عمرو بن ميمون عن عبد الله بن مسعود حدثه (حين وضع سَلَى الجزور على ظهر الرسول ﷺ وهو ساجد): «فرفع رأسه ثم قال: اللهم عليك بقريش ثلاث مرات فشقَّ عليهم إذ دعا عليهم. وكانوا يرون أن الدعوة في ذلك البلد مستجابة ثم سمَّى: اللهمَّ عليكَ بأبي جهل وعليك بعتبةَ بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة وأمية بن خلف وعقبة بن أبي مُعيطٍ وعَدَّ السابع فلم يحفظه. قال: فوالذي نفسي بيده لقد رأيتُ الذين عَدَّ رسولُ الله ﷺ صرعى في القَليب قَليبِ بدر».

وفي حديث أحمد بن إسحاق السورماري هذا ذكر السابع وهو عمارة بن الوليد.

ومن ذلك ما جاء في «صحيحي البخاري ومسلم» بطرق متعددة عن مسروق قال: «كنا عند عبد الله [بن مسعود] فقال: إن النبي ﷺ لما رأى من الناس إدباراً قال: اللهم سَبْعٌ كسبعِ يوسفَ فأخذتهم سَنةٌ حَصَّتْ كل شيء حتى أكلوا الجلود والميتة والجيف وينظر أحدهم إلى السماء فيرى الدخان من الجوع. فأتاه أبو سفيان فقال: يا محمد إنك تأمرُ بطاعةِ الله وبصِلةِ الرحم وإن قومك قد هلكوا فادعُ الله لهم.

قال تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝١٠﴾ إلى قوله: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ ۝١٦﴾ [الدخان] فالبطشة يوم بدر. وقد مضت الدخان والبطشة واللزام وآية الروم.

ومن ذلك ما جاء في «صحيح البخاري» عن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنهما يقول: «دعا رسول الله ﷺ يوم الأحزاب على المشركين فقال: اللهم مُنْزِلَ الكتاب، سريعَ الحساب اللهم اهزم الأحزاب اللهم اهزمهم وزلزلهم».

فكان كما دعا.

ومن ذلك دعاؤه لثعلبة الذي قال الله فيه: ﴿۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٧٥ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ۝٧٦ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ۝٧٧﴾ [التوبة].

قال ابن كثير: «عن أبي أُمامة الباهلي عن ثعلبة بن حاطب الأنصاري أنه قال لرسول الله ﷺ: ادعُ الله أن يرزقني مالاً، قال: فقال رسول الله ﷺ: ويحك يا ثعلبة قليلٌ تُؤدي شُكْرَهُ خيرٌ من كثير لا تُطيقه». قال: ثم قال مرة أخرى. فقال: أما ترضى أنْ تكونَ مثل نبي الله؟ فوالذي نفسي بيده لو شئتُ أن تسيرَ الجبالُ معي ذهباً وفضة لسارت.

قال: والذي بعثك بالحق لئن دعوتَ الله فرزقني مالاً لأُعطينَّ كُلَّ ذي حق حقه. فقال رسول الله ﷺ: اللهم ارزق ثعلبة مالاً. قال: فاتخذ غنماً فَنَمَتْ كما ينمي الدود فضاقت عليه المدينة فتنحى عنها فنزل وادياً من أوديتها حتى جعل يصلي الظهر والعصر في جماعة ويترك ما سواهما. ثم نمت وكثرت فتنحى حتى ترك الصلوات إلا الجمعة وهي تنمي كما ينمي الدود حتى ترك الجمعة فطفق يتلقى الركبان يوم الجمعة ليسألهم عن

الأخبار. فقال رسول الله ﷺ: ما فعلَ ثعلبة؟ فقالوا: يا رسول الله اتخذ غنماً فضاقت عليه المدينة فأخبروه بأمره فقال: يا ويح ثعلبة! يا ويح ثعلبة! يا ويح ثعلبة، وأنزل الله جل ثناؤه ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ ١٠٣﴾ [التوبة] - الآية ونزلت فرائضُ الصدقة فبعث رسول الله ﷺ رجلين على الصدقة من المسلمين رجلاً من جهينة ورجلاً من سليم وكتب لهما كيف يأخذان الصدقة من المسلمين وقال لهما:

مُرَّا بثعلبة وبفلان - رجل من بني سليم - فَخُذَا صدقاتهما.

فخرجا حتى أتيا ثعلبة فسألاه الصدقة وأقرآه كتابَ رسول الله ﷺ فقال: ما هذه إلا جزية. ما هذه إلا أُختُ الجزية ما أدري ما هذا؟ انطلقا حتى تفرغا ثم عودا إليَّ. فانطلقا وسمع بهما السلمي فنظر إلى خيار أسنانِ إبله فعزلها للصدقة ثم استقبلهما بها، فلما رأوها قالوا ما يجبُ عليك هذا وما نريد أن نأخذ هذا منك. فقال: بل فخذوها فإنَّ نفسي بذلك طيبةٌ وإنما هي له.

فأخذاها منه ومرا على الناس فأخذا الصدقات ثم رجعا إلى ثعلبة فقال: أروني كتابكما فقرأه فقال: ما هذه إلا جزية ما هذه إلا أخت الجزية انطلقا حتى أرى رأيي فانطلقا حتى أتيا النبي ﷺ فلما رآهما قال: يا ويح ثعلبة، قبل أن يُكلمهما ودعا للسلمي بالبركة فأخبراه بالذي صنع ثعلبة والذي صنع السلمي.

فأنزل الله عز وجل: ﴿۞ وَمِنۡهُم مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ ٧٥﴾ [التوبة] الآية إلى آخر الحديث....

وقوله تعالى: ﴿بِمَآ أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ ٧٧﴾ [التوبة] الآية أي: أعقبهم النفاقَ في قلوبهم بسبب إخلافِهم الوعد»(١).

أخرجها ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والعسكري في الأمثال والطبراني وابن منده والبارودي وابن مردويه والبيهقي وابن عساكر عن أبي أمامة الباهلي.

ولا يهمنا أن تكون هذه الآيات نزلت في ثعلبة هذا أو غيره ولكن ينبغي أن نعلم أن

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٣٧٣، الطبري ١٠/١٨٩، الرازي ١٦/١٣٨، القرطبي ٨/٢٠٩، فتح القدير ٢/٣٦٧، أسد الغابة ١/٢٣٧.

حادثة كهذه وقعت كما أخبر القرآن.

ومن ذلك ما جاء في «صحيحي البخاري ومسلم» عن البراء بن عازب وأنس بن مالك وعبيد الله بن عتبة عن أبي بكر وفيه [حديث الهجرة]:

«واتبعنا سراقة بن مالك فقلتُ: أتينا رسولَ الله فقال: لا تحزنْ إنَّ الله معنا، فدعا عليه النبي ﷺ فارتطمت به فرسُه إلى بطنها أرى في جلد من الأرض، شكَّ زهير، فقال: إني أراكما قد دعوتما عليَّ فادعوَا لي، فالله لكما أنْ أردَّ عنكما الطلبَ، فدعا له النبي ﷺ فنجا فجعلَ لا يَلْقَى أحداً إلا قال: كَفيتُكم ما ههنا فلا يَلْقى أحداً إلا رَدَّهُ».

وجاء في البخاري نحوه عن سراقة بن جعشم.

ومن ذلك ما جاء في «صحيح مسلم» عن أياس بن سلمة بن الأكوع أن أباه حدثه «أن رجلاً أكل عند رسول الله ﷺ بشماله فقال: كُلْ بيمينك.

قال: لا أستطيع. قال: لا استطعتَ ما منعه إلا الكِبْرُ.

قال: فما رفعها إلى فِيه».

وهي أحاديث كما نرى متواترة في المعنى.

١٠- حنين الجذع:

جاء في «صحيح البخاري» عن أيمن وعبيد الله بن أنس بن مالك عن جابر بن عبدالله وبأسانيد متعددة عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما «أن امرأة من الأنصار قالت لرسول الله ﷺ: يا رسول الله ألا أجعلُ لك شيئاً تقعد عليه فإن لي غلاماً نجاراً؟ قال: إنْ شئت. قال: فعملت له المنبر فلما كان يوم الجمعة قعد النبي ﷺ على المنبر الذي صنع فصاحت النخلةُ التي كان يخطبُ عندها حتى كادت أن تنشق فنزل النبي ﷺ حتى أخذها فضمها إليه فجعلت تَئِنُّ أنين الصبي الذي يُسكّتُ حتى استقرت. قال: بكت على ما كانتَ تسمعُ من الذِّكر». وأخرجه النسائي والبيهقي والإمام أحمد وابن الأثير في أسد الغابة.

١١- معجزات مختلفة:

فمن ذلك ما جاء في «صحيح البخاري» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «قلتُ يا

رسول الله إني سمعتُ منك حديثاً كثيراً فأنساه. قال: ابسط رداءك فبسطتُ فغرف بيده فيه ثم قال ضُمَّهُ، فضممتُه فما نسيتُ حديثاً بعد».

ومنه ما جاء في «صحيح البخاري» عن البراء قال: بعث رسول الله ﷺ إلى أبي رافع اليهودي رجالاً من الأنصار فأمَّرَ عليهم عبد الله بن عتيك... (وساق الحديث) وفيه:

«فوضعت رجلي وأنا أرى أني قد انتهيت إلى الأرض فوقعت في ليلة مقمرة فانكسرت ساقي فعصبتها بعمامة... فانتهيتُ إلى النبي ﷺ فحدثته فقال: ابسطْ رِجلكَ فبسطتُ رجلي فمسحها فكأنها لم أَشْتَكِها قط». وأخرجه البيهقي.

ومن ذلك ما جاء في «صحيح مسلم» عن عبد الله وعبيد الله ابني كعب بن مالك عن أبيهما وساق الحديث وفيه:

«فبينما هو على ذلك رأى رجلاً مبيِّضاً يزول به السرابُ فقال رسول الله ﷺ: كُنْ أبا خيثمة، فإذا هو أبو خيثمة الأنصاري». وأخرجه ابن عبد البر في «الاستيعاب» وابن الأثير في «أسد الغابة» وابن حجر في «الإصابة».

فأنت ترى أن هذه المعجزات من الكثرة بحيث تقطع القولَ في صدق نبوته ﷺ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وهذه الأخبار [المعجزات] منها ما هو في القرآن ومنها ما هو متواتر يعلمه العامة والخاصة كنبعِ الماء من أصابعه وتكثير الطعام وحنينِ الجذع ونحو ذلك فإن كلاً من ذلك تواترت به الأخبار واستفاضت ونقلته الأمةُ جيلاً بعد جيل وخلفاً عن سلف فما من طبقة من طبقات الأمة إلا وهذه الآيات منقولة مشهورة مستفيضة فيها ينقلها أكثر ممن ينقل كثيراً من القرآن، وقد نقلها وسمعها من الأمة أكثر ممن سمع ونقل كثيراً من آيات القرآن وأكثر ممن سمع ونقل أنه كان يسجدُ في الصلاة سجدتي السهو وممن سمع ونقل نُصُبَ الزكاة وفرائضها... وذلك أن آيات الرسول كان كثيرٌ منها يكون بمشهدٍ من الخَلْقِ عظيم فيشهدون تلك الآيات كما شاهد أهلُ الحديبية وهم ألف وخمسمائة نبعَ الماء من بين أصابعه... وكما شاهد العسكر في غزوة ذات الرقاع الماء اليسير لما صَبَّه جابر في الجفنة وامتلأت وملأ منها جميع العسكر... وكما شاهد أهل خيبر وهم ألف وخمسمائة الطعام الذي كان كربضة الشاة فأشبع الجيشَ كلهم... وكما شاهد أهل الخندق وهم أكثر من ألف كثرة الطعام في بيت جابر بعد أن

كان صاعاً من شعير وعناقاً فأكلوا كلهم بعد الجوع حتى شبعوا وفضلت فضلة»[1]...

ثم قال: «والمقصود هنا أن تواتر أنواع آياته المستفيضة في الأحاديث أعظم من أمور كثيرة وهي متواترة عند الأمة أو عند علمائها وعلماء أهل الحديث وهذا غير الآيات والبراهين المستفادة بالقرآن»[2].

١٢- ظهور النار في أرض الحجاز:

وهذه آية عظيمة من آيات النبوة ودلالة قاطعة على نبوة محمد ﷺ. جاء في الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تقوم الساعة حتى تخرج نارٌ من أرضِ الحجاز تُضيءُ لها أعناقُ الإبل ببصرى».

وقد ظهرت هذه النار في أرض الحجاز سنة ٦٥٤هـ بالحَرَّةِ قرب المدينة المنورة وقد ذكرها المؤرخون المعاصرون لها في كتبهم كأبي شامة المتوفى سنة ٦٦٥هـ في كتابه «تراجم رجال القرنين السادس والسابع» وذكرها ابن السباعي المتوفى سنة ٦٧٤هـ، وذكرها القطب القسطلاني وهو من المعاصرين لها، وذكرها القرطبي المتوفى سنة ٦٧١هـ في كتابه «التذكرة»، وذكرها ابن تيمية وقد ولد بعدها ببضع سنين (٦٦١-٧٣٨هـ)، وذكرها اليونيني المتوفى سنة ٧٢٦هـ في «ذيل مرآة الزمان» وذكرها ابن كثير وغيرهم من المؤرخين.

قال أبو شامة المعاصر لخروج هذه النار في كتابه «تراجم رجال القرنين السادس والسابع» في حوادث سنة ٦٥٤هـ: «وجاء إلى دمشق كتب من المدينة على ساكنها السلام بخروج نار عندهم في خامس جمادى الآخرة وكُتبت الكتبُ في خامس رجب والنار بحالها ووصلت الكتب إلينا في عاشر شعبان... بسم الله الرحمن الرحيم ورد إلى مدينة دمشق حرسها الله تعالى في أوائل شعبان من سنة أربع وخمسين وستمائة كتب من مدينة رسول الله ﷺ فيها شرحُ أمرٍ عظيم حدثَ بها، فيه تصديقٌ لما في الصحيحين من حديث أبي هريرة قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء لها أعناق الإبل ببصرى». فأخبرني بعضُ مَنْ أثقُ به ممن شاهدها

---

(١) الجواب الصحيح ٤/٢٢٧-٢٢٨.

(٢) الجواب الصحيح ٤/٢٤٩.

بالمدينة بلغهُ أنه كُتب بتيماء على ضوئها الكتب. قال: وكنا في بيوتنا تلك الليالي وكأن في دار كلِّ واحدٍ منا سراجاً ولم يكن لها ضوء بقدر عظمها وإنما كانت آية من آيات الله تعالى وهذه صورةُ ما وقفت عليه من الكتب الواردة فيها... (في أحد الكتب).

... ثم ظهرت نار عظيمة في الحرة قريباً من قريظة نُبصرها من دورنا بداخل المدينة كأنها عندنا وهي نار عظيمة أشعالها أكثر من ثلاث منائر وقد سالت أودية منها بالنار إلى وادي شظا سيل الماء. وقد سدت سبيل شظا وما عاد بسبيل. والله لقد طلعنا جماعةٌ نُبصرها فإذا الجبال، تسير نيراناً وقد سدت الحرة طريق الحاج العراقي...

وفي كتاب آخر: ظهر في أول جمعة من جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين وستمائة في شرقي المدينة نار عظيمة بينها وبين المدينة نصف يوم انفجرت من الأرض وسال منها واد من نار حتى حاذى جبلَ أُحد ثم وقفت وعادت إلى الساعة ولا ندري ماذا تفعل. ووقت ما ظهرت دخلَ أهلُ المدينة إلى نبيهم عليه الصلاة والسلام مستغفرين تائبين إلى ربهم وهذه دلائل القيامة.

وفي كتاب آخر... وقد حصل بطريق هذه النار إقلاعٌ عن المعاصي والتقرب إلى الله بالطاعات وخرج أمير المدينة عن مظالم كثيرة إلى أهلها.

ومن كتاب شمس الدين بن عبد الوهاب بن تميلة الحسني قاضي المدينة إلى بعض أصحابه... ثم طلع يوم الجمعة في طريق الحرة في رأس أجيلين نارٌ عظيمة مثل المدينة العظيمة وما بانت لنا إلا ليلة السبت وأشفقنا منها وخفنا خوفاً عظيماً وطلعتُ إلى الأمير وكلمته وقلتُ له: قد أحاط بنا العذابُ ارجعْ إلى الله. فأعتقَ كلَّ مماليكه وردَّ على جماعةٍ أموالهم فلما فعل هذا قلتُ له: اهبط الساعة معنا إلى النبي ﷺ فهبط وبتنا ليلة السبت والناس جميعهم والنسوان وأولادهم ولا بقي أحد لا في النخيل ولا في المدينة إلا عند النبي ﷺ وأشفقنا منها وظهر ضوؤها إلى أن أُبصرت من مكة ومن الفلاة جميعها... وبالله يا أخي إن عيشتنا اليوم مكدّرة والمدينة قد تاب جميع أهلها ولا بقي تسمع فيها رباب ولا دفٌّ ولا شرب. وتمت النار تسير إلى أن سدت بعض طريق الحاج وبعض بحرة الحاج وجاء في الوادي منها إلينا قتير وخفنا أنها تجيئنا، واجتمع الناس ودخلوا على النبي ﷺ وباتوا عنده جميعهم ليلة الجمعة، وأما قتيرها الذي مما يلينا فقد طَفِىء بقدرةِ الله سبحانه وتعالى وإنها إلى الساعة ما نقصت إلا ترمي

مثل الجمال حجارة من نار ولها دَوِيٌّ ما يَدَعنا نرقد ولا نأكل ولا نشرب وما أقدرُ أصفُ لك عِظَمها ولا ما فيها من الأهوال.

وفي كتاب آخر... وأيقن الناسُ بالهلاك منها أو العذاب وبات الناسُ تلك الليلة بين مُصَلٍّ وتالٍ للقرآن وراجع وساجد وداعٍ إلى الله ومتنصل من ذنبه ومستغفر وتائب... (وقد نظمت فيها أبيات وقصائد ذكر منها أبو شامة)»[(١)].

وقال ابن الساعي (٥٩٣هـ- ٦٧٤هـ) في تاريخ سنة أربع وخمسين وستمائة: «في يوم الجمعة ثامن عشر رجب - يعني من هذه السنة - كنتُ جالساً بين يدي الوزير فوردَ عليه كتابٌ من مدينة الرسول ﷺ صُحبةَ قاصدٍ يُعرف بقيماز العلوي الحسني المدني فناوله الكتاب فقرأه وهو يتضمن أن مدينة الرسول ﷺ زُلزلت يوم الثلاثاء ثاني جمادى الآخرة حتى ارتجَّ القبرُ الشريف وسُمع صريرُ الحديد وتحركت السلاسل وظهرت نارٌ على مسيرة أربع فراسخ من المدينة وكانت ترمي بزبدٍ كأنها رؤوس الجبال...

وقال ابن الساعي: وقرأت بخط العدل محمود بن يوسف بن الأمعاني شيخ حرم المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام يقول: إن هذه النار التي ظهرت بالحجاز آيةٌ عظيمة وإشارة صحيحة دالة على اقترابِ الساعة»[(٢)].

وقال القرطبي في كتابه «التذكرة»: «وذكر لي بعض أصحابي أنه رأى تلك النار صاعدة في الهواء من مسيرة خمسة أيام من المدينة المشرفة وذلك من أعلام النبوة».

وقال: «وسمعت أنها رُئيتْ من مكة ومن جبال بصرى»[(٣)].

وقال ابن تيمية: «ورأى أهل بصرى أعناق الجمال من ضوء تلك النار»[(٤)].

قال ابن كثير: «وقد أخبرني قاضي القضاة صدر الدين علي بن أبي القاسم التميمي الحنفي الحاكم بدمشق في بعض الأيام في المذاكرة وجرى ذِكْرُ هذا الحديث وما كان

---

(١) تراجم رجال القرنين السادس والسابع و١٩٠ وما بعدها.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ١٣/ ١٩٢.

(٣) مختصر التذكرة للقرطبي ١٢٣، وانظر كتاب وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى للسمهودي ١/ ١٠٠.

(٤) الجواب الصحيح لابن تيمية ٢/ ٨١، ٤/ ١٣٦.

من أمرِ هذه النار في هذه السنة فقال: سمعتُ رجلاً من الأعراب يخبر والدي ببصرى في تلك الليالي أنهم رأوا أعناق الإبل في ضوء هذه النار التي ظهرت في الحجاز»(١).

فأنت ترى أن هذه دلالة عظيمة على نبوة محمد ﷺ فقد خرجت هذه النار بعد وفاة البخاري ومسلم بأربعمائة سنة فأي دلالة هذه؟!

١٣- مقاتلة الترك:

جاء في «صحيحي البخاري ومسلم» متواتراً عن أبي هريرة وجاء فيهما أيضاً عن عمرو بن تغلب - واللفظ ههنا لأبي هريرة - قال: «قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا التُّركَ صغار الأعين حُمر الوجوه ذُلف الأنوف كأن وجوههم المجانّ المُطرّقة، ولا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوماً نعالهم الشعر» وأخرجه النسائي.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «قلتُ: وهؤلاء الطوائف كلهم قاتلهم المسلمون كما أخبر ﷺ وأمرُ هذه الطوائف معروف. فإن قتال الترك من التتار وغيرهم الذي هذه صفتهم معروفٌ مشهور وحديثه في أكثر من عشرةِ آلافِ نسخةٍ كبار وصغار من كتب المسلمين. قبل قتال هؤلاء الذين ظهروا من ناحية المشرق الذين هذ، صفتهم التي لو كُلِّفَ مَنْ رآهم بعينه أن يَصِفَهم لم يُحْسِنْ مثلَ هذه الصفة»(٢).

وقال: «فمن رأى هؤلاء الترك الذين قاتلهم المسلمون من حين خرج جنكيز خان ملكهم الأكبر وأولاده وأولاد أولاده مثل هولاكو وغيره من الترك الكفار الذين قاتلهم المسلمون لم يحسن أن يصفهم بأحسن من هذه الصفة»(٣).

وقال النووي: «هذه الأحاديث كلها معجزة لرسول الله ﷺ فقد عرف حال هؤلاء الترك بجميع صفاتهم التي ذكرها النبي ﷺ وقاتلهم المسلمون مرات»(٤)

ومما أخبر به ﷺ وشاهدناه في عصرنا هذا ما جاء في «صحيح مسلم» عن أبي هريرة

---

(١) البداية والنهاية ١٣/ ١٩١، وانظر ذيل مرآة الزمان، ج١/ ٤-١٠.

(٢) الجواب الصحيح ٤/ ١٣٥-١٣٦.

(٣) الجواب الصحيح ٢/ ٨١.

(٤) انظر الإذاعة لما كان وما يكون بين يدي الساعة لمحمد صديق حسن خان ٨٢.

قال قال رسول الله ﷺ: «صِنفان من أهل النار لم أرهما، قومٌ معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناسَ، ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات رؤوسهن كأسنمة البُخت المائلة لا يدخُلْنَ الجنةَ ولا يَجِدنَ رِيحها وإنَّ ريحها ليوجدُ من مسيرة كذا وكذا».

فهذان الصنفان لم يكونا في عهد رسول الله ولكنا شاهدناهما في عصرنا هذا فقد شاهدنا الذين بأيديهم سياطٌ مثل أذناب البقر يضربون بها الناسَ، وشاهدنا النساء الكاسيات العاريات اللاتي رؤوسهن كأسنمة البخت وهو ما يسمى بـ(التسريحة) التي تشبه سنامَ الجملِ وهو ما لم يكن في عصر مسلم. وهذا الحديث تحقق بشطريه بعد أكثر من ألف عام من موت مسلم الذي رواه في صحيحه. وهو آية من آيات النبوة.

ومن ذلك ما جاء في «صحيح مسلم» عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «بادروا بالأعمال فِتناً كقِطَعِ الليلِ المظلم يصبحُ الرجلُ مؤمناً ويمسي كافراً أو يمسي مؤمناً ويصبح كافراً يبيع دينه بعَرَضٍ من الدنيا».

ومن ذلك ما رواه أبو داود والبيهقي في «الدلائل» عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «توشكُ الأممُ أن تَداعى عليكم كما تَداعى الأكلةُ إلى قصعتها، فقال قائل: أَمِنْ قلةٍ نحنُ يومئذٍ؟ قال: بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاءٌ كغثاء السيل ولينزعنَّ اللهُ من صدورِ عدوكم المَهابةَ منكم وليقذفنَّ في قلوبكم الوَهْنَ. قال قائل يا رسول الله: وما الوهن؟ قال: الوهنُ حبُّ الدنيا وكراهة الموت».

وهذا أيضاً مما شاهدنا في عصرنا الحالي فإن المسلمين ذوو عدد كثير ولكنهم غثاء كغثاء السيل نزع الله من قلوب أعدائهم المهابةَ منهم وقذف في قلوبهم الوهن. وقد دوّن هذا الحديث في يوم عز الإسلام والمسلمين.

وهل دليل أوضح من هذا على نبوته ﷺ؟

ولا نزال ننتظر فتناً وأموراً تقع بين يدي الساعة أخبر بها الصادق المصدوق ﷺ كمحاربة اليهود حتى يقول الحجر والشجر: يا مسلم يا عبد الله هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله، كما جاء في «صحيحي البخاري ومسلم» وكهدم الكعبة وظهور الدجال وغيرها من الآيات.

فهذه الأحاديث التي ذكرناها تدل دلالة قاطعة على صحة نبوة محمد ﷺ. وهي منقولة نقلاً صحيحاً بل في أعلى درجات الصحة، وأكثرها - كما رأيتَ - مَرويٌّ بسلاسلَ متعددة كلها صحيحة. فثبت ما قلنا والحمد لله.

موافقات!!

نحب قبل أن ننتقل إلى البحث التالي أن نذكر طرفاً من الموافقات التي كانت بجانب الرسول واجتماعها في خدمته.

١- في وقعة بدر أرسل الله المطر كما أخبر القرآن ليثبت به أقدام المؤمنين. وكان إنزاله على حالةٍ كانت نعمةً للمؤمنين نقمة على جيش قريش، قال تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾﴾ [الأنفال].

قال ابن كثير: «يذكِّرهم الله تعالى بما أنعم عليهم من إلقائه النعاسَ عليهم أماناً أمَّنهم به من خوفهم الذي حصل لهم من كثرة عدوهم وقلة عددهم وكذلك فَعلَ تعالى بهم يوم أُحد كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ ﴿١٥٤﴾﴾ [آل عمران] الآية... قال أبو طلحة: كنت ممن أصابه النعاس يوم أُحد ولقد سقط السيف من يدي مراراً يسقطُ وآخذه ويسقط وآخذه ولقد نظرت إليهم يَميدون وهم تحت الجحف... عن علي رضي الله عنه قال: ما كان فينا فارسٌ يومَ بدر غير المقداد ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله ﷺ يصلي تحت شجرة ويبكي حتى أصبح...

عن عروة بن الزبير قال: «بعث الله السماء وكان الوادي دهساً فأصاب رسولَ الله ﷺ وأصحابه ما لبَّدَ لهم الأرض ولم يمنعهم عن المسير، وأصاب قريشاً ما لم يقدروا على أنْ يرحلوا معه»[1].

فلماذا كان الجو مع محمد في المعركة؟ أهو من قبيلِ الموافقات أم هو تدبير رباني؟!

٢- في وقعة الأحزاب أرسل الله ريحاً قوية على الأحزاب المجتمعة لمحاربة الرسول

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٢٩١-٢٩٢.

زلزلتهم حتى اضطروا إلى الرحيل وهم خائبون، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾﴾ [الأحزاب].

قال ابن كثير: «ثم أرسل الله عز وجل على الأحزاب ريحاً شديدة الهبوب قوية حتى لم يبقَ لهم خيمةٌ ولا شيء، ولا تُوقَدُ لهم نار ولا يَقرُّ لهم قرار حتى ارتحلوا خائبين خاسرين»[1].

وجاء في «تثبيت دلائل النبوة»: «فلو كانت هذه الريح وغيرها من الأمور التي جرت العادة مثلها لما امتنَّ اللهُ به ولا احتجَّ والعدوُّ والوليُّ يسمعه»[2].

فلماذا كان الجو هنا في خدمة محمد أيضاً كما كان في بدر؟ أَفهذا من قبيل الموافقات أيضاً أم هو تدبيرٌ رباني؟

٣- رمى محمد في وقعة بدر قبضةً من حَصباء الوادي في وجوه المشركين فأصابت كل واحد منهم ودخلت في عينيه، قال تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [الأنفال].

جاء في «أسباب نزول القرآن» للواحدي: «وأكثرُ أهلِ التفسير على أن الآيةَ نزلت في رمي النبي عليه السلام القبضةَ من حصباء الوادي يوم بدر حين قال للمشركين: شاهت الوجوه ورماهم بتلك القبضة فلم تبقَ عينُ مشركٍ إلا دخلها منه شيء»[3].

وجاء في «فتح القدير»: والصحيح كما قال ابن إسحاق وغيره أن المراد بالرمي المذكور في هذه الآية ما كان منه ﷺ في يوم بدر فإنه أخذ قبضةً من تراب فرمى بها في وجوه المشركين فأصابت كل واحد منهم ودخلت في عينيه ومنخريه وأنفه.

وقيل: «المعنى أن تلك القبضة من التراب التي رميتَها لم تَرْمِهَا أنتَ على الحقيقة لأنك لو رميتها ما بلغَ أثرها إلا ما يبلغُه رميُ البشر ولكنها كانت رميةَ الله حيث أثَّرتْ

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٤٧٠.

(٢) تثبيت دلائل النبوة ٢/ ٤٥١.

(٣) أسباب نزول القرآن ٢٣٠.

ذلك الأثرَ العظيم»[1].

وعلى أي حال فهي رمية خاصة بلغت خارقاً ولولا ذاك ما ذَكرها القرآن. فهل هذا أيضاً من قبيل الموافقات؟

٤- عند خروج محمد مهاجراً كانت مجموعة من فتيان قريش يَتربَّصون به ليقتلوه فخرج من بينهم ولم يروه، ثم اختفى في غار وصل إليه القَافةُ ووقفوا عليه وقفةً لو نظر أحدهم أسفلَ قدميه لرآه وكان أبو بكر مضطرباً فقال له رسول الله: لا تحزن إن الله معنا. قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة].

فما الذي صرفهم عن النظر في الغار وقد وصلوا إليه؟ ولماذا لم يدركهم الطلب؟ فهل هذا أيضاً من قبيل الموافقات.

٥- عند البعثة المحمدية كثر الرمي بالشهب - كما ذكرنا - كثرة هائلة امتلأت بها السماء وادعى محمد أن هذا بسبب الرسالة التي جاء بها لئلا يتسمع الجن قال تعالى على لسان الجن: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْءَانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾﴾ [الجن].

فلماذا كانت الشهب في خدمة محمد، أفهذا من قبيل الموافقات.

٦- ذكرنا أن محمداً تحدى اليهود في تمني الموت وقال إنهم لن يتمنوه فما تمنَّاه أحدٌ منهم.

لماذا لم يَتمنَّهُ أحدٌ منهم؟ لماذا لم يتقدم واحد منهم متحدياً محمداً كما تحداهم؟ أفهذا أيضاً من قبيل الموافقات؟

٧- ذكرنا أن قسماً من نصارى نجران جاؤوا إلى رسول الله ﷺ فدعاهم إلى المباهلة وهي الدعاءُ على الكاذبِ فوافقوا ثم أحجموا وامتنعوا وأدوا الخراج كما ذكر القرآن.

فلماذا أحجموا واستسهلوا الخَراجَ على أنفسهم يدفعونه كل عام؟ أَهُمْ يرون أنه نبي أم يرون أنه كاذب؟ أم هو من قبيل الموافقات العجيبة التي تكون دائماً في خدمة

(١) فتح القدير ٢/٢٨١، وانظر تفسير القرطبي ٧/ ٣٨٤، ابن كثير ٢/ ٢٩٥.

محمد؟

٨- في معركة حنين أعجبت المسلمين كثرتُهم ثم انهزموا وثَبتَ الرسولُ ونادى في أصحابه فجمعهم ثم انتصر المسلمون. قال تعالى: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ﴿٢٦﴾ ﴾ [التوبة].

أفهذا أيضاً من قبيل الموافقات؟

٩- قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾ [المائدة].

قال القرطبي: ... وهذا من إعجاز القرآن والنبي ﷺ إذ أخبر عن ارتدادهم ولم يكن ذلك في عهده وكان ذلك غيباً فكان على ما أخبرَ بعد مدة، وأهلُ الردة كانوا بعد موته ﷺ»[١].

وقال الحسن البصري: نزلت في أهل الردة أيام أبي بكر[٢].

وهذا أمر عجيب إذ كيف يخبر عن الارتداد قبل حصوله؟ أفهذا من وحي السماء أم من قبيل الموافقات الغريبة؟!

١٠- وردت تعبيرات قرآنية في غاية الدقة مثل تسمية (العزيز) في قصة يوسف وهو أدقُّ ترجمةٍ للاسم المصري القديم. قال الأستاذ مالك بن نبي: «ولقد تعرضت الثروة اللفظية التي جاء بها القرآن في جميع تفاصيلها تمثل هذا التكييف الرائع كما حدث لذلك الاسم الخاص "Putiphare" وهو اسم الشخصية الكتابية التي أطلقت عليها رواية القرآن لقب «العزيز» في قصة يوسف. ولنا أن نتساءل عما إذا كانت هناك صلة في المعنى بين الاسم الإسرائيلي واللقب القرآني. فالتفسير العبري يبدو أنه يقصد بكلمة

---

(١) تفسير القرطبي ٦/ ٢١٩.

(٢) تفسير ابن كثير ٢/ ٧٠.

Putiphare اشتقاقاً مصرياً يبدأ من الأصل Puti' Favori «عزيز». والأصل Phave مستشار أو ناصح.

ونقلاً عن بحث القسيس فيجور Vigoureux نعرف أن هذه الكلمة مصرية مركَّبة معناها «عزيز الإله شمس».

وعلى أيٍّ من الرأيين نرى أن التكييف الاشتقاقي القرآني قد حذف اللفظ المكمل - الإضافي أو الوصفي - ليتمثله في صورة أكثر تطابقاً مع روح التوحيد الإسلامية - فإذا به يكتفي بلفظ «العزيز»[1].

فهل هذا أيضاً من قبيل الموافقات؟!

ولا نريد أنْ نستطرد في ذكر الموافقات فهي في غاية الكثرة ولكنا أردنا أن نضع طرفاً منها أمام أي مرتاب لعلها تدعوه إلى التأمل والخروج بنتيجة تطمئن إليها نفسه في أن هذا الرجل لا يمكن أن يكون مُدَّعياً ولا كاذباً وإنما هو نبي مُؤَيَّدٌ منصور.

---

(١) الظاهرة القرآنية ١٨٠.

جَولة في الكتبِ القدِيمَة

أعلن محمد في القرآن أن اسمه وصفته مكتوبان عند أهل الكتاب بحيث يعرفه علماؤهم معرفة تامة كاملة كمعرفتهم أبناءهم. وهذا التشبيهُ يقتضي أن يكون موضّحاً توضيحاً كاملاً لا شُبهةَ فيه ولذا قال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ [البقرة].

وتكررَ هذا القولُ في مكان آخر من القرآن الكريم. قال في سورة الأنعام ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ﴿٢٠﴾﴾.

وقال في سورة الأعراف: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ ﴿١٥٧﴾﴾.

وكان يقول: إنَّ أهل الكتاب يعلمون أن هذا الدين وهذا الكتاب حق وإنه مُدوَّنٌ في زُبُرهم قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾﴾ [الشعراء]، وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [العنكبوت].

وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [الأنعام]، وقال: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ ﴿١٠٩﴾﴾ [البقرة].

وأعلن أن عيسى ذكرَ اسمَهُ صراحةً فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾ [الصف].

ومعنى هذا أن محمداً واثقٌ من أن ذِكْرَهُ وصفتَهُ موجودان عندهم. ولا شك أن

العاقلَ لا يسعى إلى تكذيبِ نفسه فيقول لهم إن اسمي وصفتي موجودان عندكم في كتبكم وأنتم تعرفونني كما تعرفون أبناءكم وليس في كتبهم شيءٌ من هذا لأن معنى ذلك أنه يسعى بنفسهِ إلى إظهارِ كذبه، وإنَّ أي مُطَّلعٍ على الكتب سيكذِّبهُ ويقول هذه هي كتبنا فأين صفتك التي تدعي؟

جاء في «الجواب الفسيح»: (إن رسول الله ﷺ كان أحرصَ الناس على تصديقه واتباعه وإقامة الحجة على مَنْ خالف وجحد نبوته ولا سيما أهل العلم والكتاب فإن الاستدلالَ عليهم بما يعلمون بُطلانَهُ قطعاً لا يفعله عاقل وهو بمنزلة مَنْ يقولُ لرجل: علامةُ صدقي أنك فلان ابن فلان وصنعتك كيت وكيت وتعرف كيت وكيت، ولم يكن الأمرُ كذلك بل بضدِه فهذا لا يصدُر مِمَّنْ له مسكةٌ عقل ولا يصدق أحد على ذلك ولا يتبعه بل ينفر العقلاءُ كلهم عن تصديقهِ واتباعه)[١].

وقال ابن القيم: «ومن المعلوم بالضرورة أن محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه نادى معلناً في هاتين الأمتين اللتين هما أعلم الأمم في الأرض قبل مبعثه بأنَّ ذِكْرَهُ ونعته وصفته بعينه عندهم في كتبهم وهو يتلو ذلك عليهم ليلاً ونهاراً سراً وجهاراً في كل مَجْمع وكل نادٍ يدعوهم بذلك إلى تصديقه والإيمان به ويخبر بما في كتبهم من نعته وصفته وذكره... وغايةُ المكذِّبِ الجاحد أن يقول: هذا النعتُ والوصف حَقٌّ ولكن لستَ أنتَ المراد به بل نبيٌّ آخر وهذا غاية ما يمكنه من المكابرة... فالصفاتُ والنعوت والعلامات المذكورة عندهم منطبقةٌ عليه حَذْوَ القُذَّةِ بالقذة بحيث لا يشك مَنْ عرفها ورآه أنه هو...

ومعلوم أن هذه المعرفة إنما هي بالنعت والصفة المكتوبة عندهم التي هي منطبقة عليه كما قال بعض المؤمنين منهم: «والله لأحدنا أعرفُ به من ابنه إن أحدنا ليخرجُ من عند امرأته وما يدري ما يحدثُ بعده»[٢].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «والأخبار بمعرفة أهل الكتاب بصفة محمد ﷺ عندهم

---

(١) الجواب الفسيح ٧٤-٧٥.

(٢) هداية الحيارى ٣٤٢-٣٤٤.

في الكتب المتقدمة متواترة عنهم»(١). وقال: «ثم العلم بأن الأنبياء قبله بَشَّروا به يُعلَمُ من وجوه:

أحدها: ما في الكتب الموجودة اليوم بأيدي أهل الكتاب.

الثاني: إخبارُ مَنْ وقف على تلك الكتب وغيرها من كتب أهل الكتاب ممن أسلم وممن لم يُسْلِمْ بما وجدوه من ذِكْرِه بها. وهذا مثل ما تواتر عن الأنصار أن جيرانهم من أهل الكتاب كانوا يخبرون بمبعثه وإنه رسول الله وإنه موجود عندهم وكانوا ينتظرونه وكان هذا من أعظم ما دعا الأنصارَ إلى الإيمان به لما دعاهم إلى الإسلام حتى آمن الأنصارُ به وبايعوه...

وقد أخبر الله بذلك عن أهل الكتاب في القرآن قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [البقرة]... ومثل ما تواتر عن إخبار النصارى بوجوده في كتبهم مثل إخبار هرقل ملك الروم والمقوقس ملك مصر صاحب الاسكندرية والنجاشي ملك الحبشة والذين جاؤوه بمكة...

والوجه الثالث: نفس إخباره بذلك في القرآن مرة بعد مرة واستشهاده بأهل الكتاب وإخباره بأنه مذكور في كتبهم مما يدل العاقل على أنه كان موجوداً في كتبهم...

فلو لم يعلم [محمد] أنه مكتوب عندهم بل عَلِمَ انتفاءَ ذلك لامتنعَ أنْ يُخبرَ بذلك مرة بعد مرة ويستشهد به ويُظْهِر ذلك لموافقيه ومخالفيه وأوليائه وأعدائه فإنَّ هذا لا يفعله إلا مَنْ هو أَقلُّ الناس عقلاً لأن فيه إظهار كذبه عند مَنْ آمن به منهم وعند من يَخبرونَهُ»(٢).

وقال شهاب الدين القرافي: «وقد نصت الأنبياء عليهم السلام من إبراهيم عليه السلام إلى المسيح عليه السلام على نبوة محمد عليه الصلاة والسلام ورسالته وأنه أفضلُ النبيين والمرسلين ونصوا على اسمه ونَعْتِه وحليته وأرضه وبلده وجميل سيرته وصلاح أمته

---

(١) الجواب الصحيح ١/ ٣٤٠.

(٢) الجواب الصحيح ٣/ ٢٨٢-٢٨٣، ٢٩٢.

وسعادة مِلَّتِهِ وإنه من ولد إسماعيل عليهما السلام وإن دعوته تدوم إلى قيام الساعة»(١).

وجاء في «دلائل النبوة» لأبي نعيم: «عن صفية بنت حيي إنها قالت: كنت أَحبَّ ولد أبي إليه وإلى عمي أبي ياسر لم أَلْقَهما فهما قط مع ولدهما إلا أخذاني دونه قال: فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة ونزلَ فناءَ بني عمر وبني عوف غدا عليه أبي حيي بن أخطب وعمي أبو ياسر بن أخطب مُغْلسين، قالت: فلم يرجعا حتى كان مع غروب الشمس قالت: فأتيا كالَّيْنِ كسلانين ساقطين يمشيان الهُوَيْنى قالت: فهششتُ إليهما كما كنتُ أصنع فوالله ما التفت إليَّ واحدٌ منهما مع ما بهما من الهمِّ، قالت: فسمعت عمي أبا ياسر وهو يقول لأبي حيي بن أخطب: أَهو هو؟ قال: نعم والله. قال: أتعرفه وتثبته؟ قال: نعم. قال: فما في نفسك منه؟ قال: عداوته والله ما بقيت أبداً»(٢).

وقد آمن به وصدَّقه كثير من علماء أهل الكتاب وأحبارهم ورهبانهم وأثبتوا صفته وأيدوا فِعله كعبد الله بن سلام وعدي بن حاتم والنجاشي وغيرهم.

قال ابن إسحاق: «وقَدِمَ على رسول الله ﷺ وهو بمكة عشرون رجلاً أو قريباً من ذلك من النصارى حين بلغهم خبره من الحبشة فوجدوه في المسجد فجلسوا إليه وكلَّموه وقبالتهم رجالٌ من قريش في أنديتهم حول الكعبة. فلما فرغوا من مسألة رسول الله ﷺ عما أرادوا دعاهم رسول الله ﷺ إلى الله وتلا عليهم القرآن، فلما سمعوه فاضت أعينهم من الدمع ثم استجابوا له وآمنوا به وصَدَّقوه وعرفوا منه ما كان يُوصَفُ لهم في كتبهم من أمره»(٣).

وأخبر القرآن بأنَّ من أهلِ الكتاب مَنْ آمن به تصديقاً لما جاء في كتبهم قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [الأحقاف].

وقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [القصص].

---

(١) الأجوبة الفاخرة ٢٣٥.

(٢) دلائل النبوة ١/١٧، وانظر هداية الحيارى ٢٩٧-٢٩٨.

(٣) هداية الحيارى ٣١٠.

ومن الثابت تاريخياً أن أهل الكتاب كانوا يستفتحون به على أعدائهم، أي: يستنصرون به، وقد ذكر القرآن عنهم ذلك. قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [البقرة].

(والاستفتاح: الاستنصار، أي: كانوا من قَبْلُ يطلبون من الله النصرَ على أعدائهم بالنبيِّ المبعوثِ في آخر الزمان الذي يجدون صفته عندهم في التوراة)[١].

وقال ابن كثير: «أي وقد كانوا من قبل مجيء هذا الرسول بهذا الكتاب يستنصرون بمجيئه على أعدائهم من المشركين إذا قاتلوهم»[٢].

وقال ابن عباس: «كانوا يهود خيبر تقاتل غطفان فكلما التقوا هُزمت يهودُ خيبر فعاذتِ اليهودُ بهذا الدعاء وقالت: اللهم إنَّا نسألك بحقِّ النبيِّ الأمي الذي وعدتنا أنْ تُخرجه لنا في آخر الزمان إلا نصرتنا عليهم. قال: فكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا لهم: إن نبياً مبعوث الآن قد أظلَّ زمانه نَتَّبعهُ فنقتلكم معه قتلَ عادٍ وإرم».

فلما كلَّم رسولُ الله ﷺ أولئك النفر ودعاهم إلى الله قال بعضهم لبعض تَعلّموا والله أنه للنبيُّ الذي تَوعَّدكم به يهود فلا يَسْبِقُنَّكم إليه. فأجابوه فيما دعاهم إليه)[٣].

فهذا أمر ثابت تاريخياً ذكره القرآن ولو لم يكن ذلك ما كان لِذِكْرِه معنى ولأنكره أهلُ الكتاب وكذبوه.

فأهلُ الكتاب كانوا ينتظرون نبياً يجيء وكانوا يستفتحون به في الحرب وأن هذا النبيّ عندهم صفتهُ ونعته واسمه وأن محمداً ادعى أنه هو المقصود وأنَّ أهلَ الكتاب يعلمون ذلك فآمن من علمائهم مَنْ آمن وجحدَ من جحد.

ونحن بدورنا سنحاول استخراج ما بقي من البشارات التي تنادي بظهور هذا النبي في كتبهم وسنرى إنْ كانت تنطبقُ على محمد مع كل التحريفات التي أصابت كتبهم.

---

(١) فتح القدير ١/ ٩٥، وانظر تفسير الطبري ١/ ٤١٠-٤١١، تفسير الرازي ٣/ ١٨٠.

(٢) تفسير ابن كثير ١/ ١٢٤.

(٣) سيرة ابن هشام ٢/ ٢٩٢.

وقد ذهب بعضُ الباحثين إلى أن محمداً لم يكن ذكره مقصوراً على كتب بني إسرائيل وإنما ورد ذكره وصفته في الأسفار الدينية العالمية الأخرى ككتب البراهمة والزرادشتية وغيرها من الكتب.

«ونحن نورد هنا بعض الأمثلة التي يستدعيها المقام... من هذه الكتب كتاب باللغة الإنجليزية ألفه (مولانا عبد الحق فديارتي) وسماه (محمد في الأسفار العالمية) واستفاد في مقارناته ومناقضاته بمعرفته للفارسية والهندية والعبرية والعربية وبعض اللغات الأوروبية، ولم يقنع فيه بكتب التوراة والإنجيل بل عَمَّمَ البحثَ في كتب فارس والهند وبابل القديمة، وكانت له في بعض أقواله توفيقات تُضارع أقوى ما ورد من نظائرها في شواهد المتدينين كافة...

يقول الأستاذ عبد الحق أن اسم الرسول العربي (أحمد) مكتوب بلفظه العربي في السامافيدا Samavida من كتب البراهمة وقد ورد في الفقرة السادسة والفقرة الثامنة من الجزء الثاني ونصها: (إن أحمد تلقى الشريعة من ربه وهي مملوءة بالحكمة وقد قبست منه النور كما يقبس من الشمس)... وفي مواضع كثيرة من كتب البراهمة يرى المؤلف أن النبي محمداً مذكور بوصفه الذي يعني الحمد الكثير والسمعة البعيدة ومن أسمائه الوصفية اسم سشرافا Sushrava الذي ورد في كتب الآثار فافيدا Atharphavida. كذلك صنع بكتب زرادشت التي اشتهرت باسم الكتب المجوسية فاستخرج من كتاب زندافستا Zend Avesta نبوءة عن الرسول يوصف بأنه رحمة للعالمين «سوشيانت Soeshyant». ويتصدى له عدو يسمى بالفارسية القديمة أبا لهب Angra Mainyu ويدعو إلى إلهٍ واحد لم يكن له كفواً أحد (هيج جيز باونمار) وليس له أول ولا آخر ولا ضريع ولا قريع ولا صاحب ولا أب ولا أم ولا صاحبة ولا ولد ولا ابن ولا مسكن ولا جسد ولا شكل ولا لون ولا رائحة «جز أخاز وانباز ودشمن ومانند ويار وبدر ومادر وزن وفرزند وحاي سوي وتن آسا وتناني ورنك وبوي است».

وهذه هي جملة الصفات التي يوصف بها الله سبحانه في الإسلام: أَحَدٌ صمدٌ ليس كمثله شيء، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، ولم يتخذ صاحبة ولا ولداً.

ويُشفع ذلك بمقتبسات كثيرة من كتب الزرادشتية تُنبىء عن دعوة الحق التي يجيء بها النبيُّ الموعود وفيها إشارةٌ إلى البادية العربية ويترجم نبذة منها إلى اللغة الإنجليزية

معناها بغير تصرف: «إن أمة زردشت حين ينبذون دينهم يتضعضعون وينهض رجلٌ في بلاد العرب يهزم أتباعهُ فارسَ ويخضع الفُرسَ المتكبرين، وبعد عبادة النار في هياكلهم يُولُّون وجوههم نحو كعبة إبراهيم التي تطهرت من الأصنام ويومئذ يصبحون وهم أتباع للنبي رحمة للعالمين وسادة لفارس ومديان وطوس وبلخ وهي الأماكن المقدسة للزرادشتيين ومَنْ جاورهم وأن نبيهم ليكونن فصيحاً يتحدث بالمعجزات»(١).

ونحن سنقصر استخراج البشارات التي تدل على نبوة محمد على أسفار بني إسرائيل من العهدين القديم والجديد، أما الأسفار الدينية الأخرى فليست بين أيدينا وحسبنا ما نقلناه آنفاً.

---

(١) ص٤٧ من كتاب Mohammed in World Scriptures نقلاً من كتاب (مطلع النور) للأستاذ عباس محمود العقاد ١٤-١٧.

تحرِيف التوراة والإنجيل

إن التوراة وأسفار العهد القديم وهي كتبٌ يجب الإيمانُ بها والعمل بموجبها عند اليهود والنصارى لأن عيسى عليه السلام - كما جاء في الإنجيل - لم يجىء ناقضاً للناموس - أي التوراة - وإنما جاء مكملاً له وإنه إلى أن تزول السماء والأرض لا يزولُ حرفٌ من الناموس أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل (متى - الإصحاح ١٧، ١٨).

ولذا فإنَّ كلَّ ما في العهد القديم معمولٌ به عند اليهود والنصارى. وأما العهد الجديد أي الأناجيل والرسائل الأخرى فهي واجبةُ التسليم والعمل بها عند النصارى، وأما اليهود فهم ينكرونها ويرون أن عيسى عليه السلام كذابٌ دَعِيٌّ ولو لم يكن كذلك - في اعتقادهم - لآمنوا به وصدقوه.

ويرى النصارى أن كتب العهدين (القديم والجديد) سالمة من التحريف والتغيير والتبديل وكل ما فيها مُلْزِمٌ لهم. وأما اليهود فهم يرون أن كتب العهد القديم هي الصحيحةُ السالمة من التحريف ولا شأن لهم بالعهد الجديد.

والحق أن الناظر في التوراة والإنجيل وأسفار العهد القديم نظرة أولية يقطعُ بالتحريفِ والتغيير فيها كما أقرَّ بذلك كثيرٌ من مجتهديهم ومتحرِّريهم وسنضرب الأمثلة التي تثبت ذلك وتقطع القول به وتُظْهِرُ صِدْقَ ادعاء القرآن الذي أعلن منذ أكثر من ألف وأربعمائة عام أن أهل الكتاب حَرَّفُوا كتبهم ﴿ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴿٤٦﴾ ﴾ [النساء]. وربما كان قولُ مَنْ قال إنَّ عملية التحريف مستمرة ولم تقتصر على زمن دون زمن صحيحاً.

جاء في «الجواب الفسيح»: (وأنت تعلم إذا نظرت أيضاً إلى التوراة التي طبعها الكاثوليك تراها أيضاً متخالفة متغايرة وكل نسخةٍ لا تُوافقُ الأخرى، وكذا أناجيلهم وعهدهم الجديد لا توافقَ بين نسخها وطبعها وهذا الحالُ مستمرٌّ في جميع فرقهم وسائر

الأزمان وظاهر ظهور الشمس للعيان»[1].

تحريف التوراة وأسفار العهد القديم:

إن التوراة - كما هو معلوم - ثلاث نسخ رئيسة:

١- التوراة العبرانية.

٢- التوراة اليونانية.

٣- التوراة السامرية.

وهذه النسخ الثلاث يخالفُ بعضُها بعضاً في كثير من الأمور وكلها موجودة الآن وأظن أن هذا الأمر وحده يثبت تحريفَ التوراة. فالتوراةُ كتابٌ أُنزل على موسى فما الذي جعله ثلاث نسخ متغايرة؟

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «والتوراةُ هي أَصحُّ الكتبِ وأشهرها عند اليهود والنصارى ومع هذا فنسخةُ السامرة مخالفة لنسخة اليهود والنصارى حتى في نفس الكلمات العشر، ذكر في نسخة السامرة منها - من أمر استقبال الطور - ما ليس في نسخة اليهود والنصارى، وهذا مما يبين أن التبديلَ وقع في كثير من نسخ هذه الكتب... وكذلك رأينا في الزبور نسخاً متعددة يخالفُ بعضُها بعضاً مخالفة كثيرة في كثير من الألفاظ والمعاني يقطع مَنْ رآها أن كثيراً منها كذبٌ على زبورِ داود عليه السلام.

وأما الأناجيل فالاضطرابُ فيها أعظم منه في التوراة»[2].

وقال: «بل وجدنا النسخ المُعَرَّبة يخالفُ بعضُها بعضاً في الترجمة مخالفةً شديدة تمنع الثقة ببعضها. وقد رأيت أنا بالزبور عدة نسخ معربة بينها من الاختلاف ما لا يكاد ينضبط وما يشهد بأنها مُبدَّلة مغيَّرة لا يُوثَقُ بها. ورأيت من التوراة المعربة من النسخ ما يكذب بكثير من ترجمتها طائفة من أهل الكتاب»[3].

---

(١) الجواب الفسيح ص٥.

(٢) الجواب الصحيح ١/ ٣٨٠.

(٣) الجواب الصحيح ١/ ٢٠٦.

وقال أيضاً: «وقد رأيت أنا من نسخ الزبور ما فيه تصريح بنبوة محمد ﷺ باسمه ورأيت نسخة أخرى بالزبور فلم أر ذلك فيها وحينئذ فلا يمتنع أن يكون في بعض النسخ من صفات النبي ﷺ ما ليس في أخرى»[1].

وضرب الشيخ رحمه الله الهندي أمثلة من هذه الاختلافات بين نسخ التوراة الثلاث، فمن ذلك:

«(الاختلاف الأول): أن الزمان من خلق آدم إلى زمن الطوفان باعتبار العبرانية ألف وستمائة وست وخمسون سنة (١٦٥٦)، وباعتبار اليونانية ألفان ومائتان واثنتان وستون سنة (٢٢٦٢)، وعلى وفق السامرية ألف وثلاثمائة وسبع سنين (١٣٠٧).

(الاختلاف الثاني): أن الزمان من الطوفان إلى ولادة إبراهيم عليه السلام باعتبار العبرانية مائتان واثنتان وتسعون سنة (٢٩٢)، وباعتبار اليونانية ألف واثنتان وسبعون سنة (١٠٧٢)، وباعتبار السامرية تسعمائة واثنتان وأربعون سنة (٩٤٢)...

(الاختلاف الرابع): أن موضع بناء الهيكل أعني المسجد باعتبار العبرانية جبل عيبال وباعتبار السامرية جبل جرزيم...

(الاختلاف الخامس): إن الزمان من خلق آدم إلى ميلاد المسيح باعتبار العبرانية (٤٠٠٤) وباعتبار اليونانية (٥٨٧٢) وباعتبار السامرية (٤٧٠٠)»[2].

«وقال هارسلي المفسر في الصفحة ٨٣ من المجلد الأول من تفسيره ذيل الآية الخامسة من الباب الرابع والأربعين من سفر التكوين: تُزاد في أول هذه الآية من الترجمة اليونانية هذه الجملة: «لِمَ سرقتم صواعي» فهذا على اعترافه ساقطة من العبرانية»[3].

وقال أيضاً: (سقط من آخر الآية الثالثة عشرة وأول الآية الرابعة عشرة من الباب السادس عشر من كتاب القضاة شيء فيؤخذ من الترجمة اليونانية وتزاد هذه العبارة «فقال

---

(١) الجواب الصحيح ٢/ ٢٧.

(٢) إظهار الحق ٢/ ٧٩-٨٠.

(٣) إظهار الحق ١/ ٢٧٢.

لها لو أخذت سبع قنزعات من رأسي ونسجتها مع سدى وربطت بالمسمار في الجدار فأصير خفيفاً كسائر الناس فنومته وأخذت سبع قنزعات ونسجت مع السدى وربطته)[١].

«ووقع في الآية الثامنة والعشرين من الزبور المائة والخامس في العبرانية (هُمْ ما عَصَوْا قولَه) وفي اليونانية: (هم عَصَوْا قولَه) ففي الأولى نفي والثانية إثبات فأحدهما غلط يقيناً»[٢].

والجدير بالذكر أن اليهود والنصارى يعترفون بصحة النسختين العبرانية واليونانية ويقرون بما جاء فيهما، وأنت ترى أن بينهما من الاختلاف ما يقطع بتحريف أحدهما فأصبح الشكُّ في كلتا النسختين لأنه لا يقطع بصحة أحدهما.

وقد جاء في أسفارهم ما يدينهم ويثبت تحريفهم لكتاب الله.

جاء في (أرميا) الإصحاح ٢٣:

«٣٦ أما وحي الرب فلا تذكروه بعد الآن لأن كلمة كل إنسان تكون وحيه إذ قد حرفتم كلام الإله الحي رب الجنود إلهنا».

وجاء في (أرميا) الإصحاح الثامن:

«٨ كيف تقولون نحن حكماء وشريعة الرب معنا. حقاً إنه إلى الكذب حوّلها قَلَمُ الكَتَبَةِ الكاذب».

وفي نسخة أخرى بدل (وشريعة الرب معنا) (وتوراة الله معنا)[٣].

فهذا وحده يقطع بتحريفهم لكلام الله وأن التوراة حوّلها قلم الكتبة الكاذب إلى الكذب. وهم - أي اليهود والنصارى - إما أن يؤمنوا بهذا القول أو يكذبوه، فإن آمنوا به لزمهم الاعتراف بالتحريف، وإن كَذَّبوه لزمهم الاعترافُ بالتحريف أيضاً إذ من الذي أدخل هذه (الآية) في كتابهم؟! وكلا الأمرين لا يُحمدُ عُقباه.

---

(١) إظهار الحق ١/ ٢٧٣.
(٢) إظهار الحق ١/ ٢٢٥.
(٣) انظر الرحلة المدرسية ١٢٣.

ومما يدل على تحريف العهد القديم:

١- نسبتهم إلى الله سبحانه ما لا يَليقُ به: فقد نسبوا إليه الكذب - سبحانه - وجعلوا الحيةَ أصدق منه - كما أسلفنا في قصة آدم (سفر التكوين الإصحاح ٢، ٣) وأنه جسم تراه العين رآه إبراهيم (سفر التكوين الإصحاح ١٨) ورآه موسى وسبعون شيخاً من بني إسرائيل (سفر الخروج الإصحاح ٢٤) وأنه صارع يعقوب إلى طلوع الفجر فلم يقدر على صرعه وتعلق به يعقوب فلم يطلقه ولم يتمكن الرب من الخلاص منه حتى باركه (سفر التكوين الإصحاح ٣٢) وأنه تَعِبَ من خلق السماوات والأرض فاحتاج إلى الراحة والتنفس، جاء في (سفر التكوين الإصحاح الثاني):

«٢ وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل. فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمله. ٣ وباركَ اللهُ اليوم السابعَ وقدَّسه لأن فيه استراح من جميع عمله الذي عمل الله خالقاً».

وجاء في (سفر الخروج ٣١): (١٧ لأنه في ستة أيام صنعَ الربُّ السماء والأرض وفي اليوم السابع استراح وتنفس).

فانظر إلى هذه الصورة وما قاله الله في القرآن الكريم: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ [ق].

ونسبوا إليه القصور عن الإدراك والندم والحزن - تَعالى اللهُ عما يقولون علواً كبيراً - جاء في (سفر التكوين ٦): «٥ ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر في الأرض وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم. ٦ فحزنَ الربُّ أنه عَمِلَ الإنسانَ في الأرض وتأسَّفَ في قلبه».

وجاء في (يونان ٣): (١٠ فلما رأى الله أعمالهم أنهم [يعني أهل نينوى] رجعوا عن طريقهم الرديئة نَدِمَ اللهُ على الشر الذي تكلم أنْ يصنعه بهم فلم يصنعه).

إلى غير ذلك من الأمور التي لا تليقُ بذاتِ الله وجلاله مما يقطعُ القولَ بتحريفها.

٢- نسبتهم إلى الأنبياء ما لا يليق بهم فقد نسبوا إليه الانحدار في حمأة الرذائل والسقوط في الزنى والكذب والضلال وغيرها من الأعمال التي لا تليق بآحاد الناس فضلاً عن الأنبياء.

فقد نسبوا إلى داود - كما أسلفنا - أنه زنى بامرأة أوريا وأنه أرسل زوجها إلى الحرب الشديدة ليموت ليستأثر بزوجته (صموئيل الثاني ١١)، وأنه احتقر كلام الرب وعمل الشر في عينيه (صموئيل الثاني ١٢) وعَطَّلَ الحدود فلم يقم الحد على ابنه (امنون) الذي زنى بأخته ثامار (صموئيل الثاني ١٣) ولا على ابنه (أبشالوم) الذي زنى بسراري أبيه على السطح أمام جميع إسرائيل (صموئيل الثاني ١٦).

وهذا كذب فاضح على نبي الله داود إضافة إلى أنه يناقض ما جاء في أسفارهم، فقد جاء في (صموئيل الثاني ٢٢) من كلام داود:

«٢١ يكافئني الربُّ حسبَ برِّي، حسب طهارة يدي يرد علي. ٢٢ لأني حفظتُ طرقَ الرب ولم أَعْصِ إلهي، ٢٣ لأن جميع أحكامه أمامي وفرائضه لا أَحيدُ عنها. ٢٤ وأكون كاملاً لديه وأتحفظ من إثمي. ٢٥ فيرد الرب عليَّ كَبِرِّي وكطهارتي أمام عينيه».

قال الأستاذ عبد الوهاب النجار: «وهذا السِّفْرُ يقرّون أنه كُتب بإلهام وهو واجب التسليم وكل ما فيه صدق عندهم. ومحالٌ أن يكون الزنى من البِرِّ واتباع وصايا الله والمحافظة على شريعته»[1].

وجاء في (سفر الملوك الأول ٣):

«٦ فقال سليمان إنك قد فعلت مع عبدك داود أبي رحمةً عظيمة حسبما سار أمامك بأمانة وبِرّ واستقامة قلب معك. فحفظت له هذه الرحمة العظيمة وأعطيته ابناً يجلس على كرسيه كهذا اليوم».

وجاء في (سفر الملوك ١١):

«٣٤ لأجل داود عبدي الذي اخترته الذي حفظ وصاياي».

فأنت ترى أن هذين الأمرين متناقضان، فأيهما هو الصحيح؟ أَعصى داود ربه واحتقر كلامه وحاد عن فرائضه أم حفظ طرق الرب ولم يَعْصِ إلهه وسار أمامه بأمانة وبر ولم يَحدْ عن فريضةٍ من فرائضه؟

ما الصورةُ الصحيحة لنبي الله داود أهي الأولى أم الثانية؟ ولا شك أن القول بأحدهما

(١) قصص الأنبياء ٣١٣.

يكذب الأخرى.

ونسبوا إلى يعقوب الخِداعَ والكذب (سفر التكوين ٢٧).

وأن بنتي لوط أسكرتا أباهم واضطجعتا معه فأولَدَهُمَا (التكوين ١٩).

وأن نبيَّ الله هرون صنع عجل الذهب ودعا بني إسرائيل إلى عبادته (سفر الخروج ٣٢).

وأن سليمان عليه السلام عصى كلامَ الله وأصبح زِيرَ نساءٍ يركضُ وراءهن فأمَلْنَ قلبه وراء آلهة أخرى وأصبح مشركاً ضالاً حتى عبد عشتورت وملكوم وعمل الشر في عيني الرب. (الملوك الأول ١١).

فهل هذه صورةُ الأنبياء؟

حقاً، إنه حَوَّلها قلمُ الكتبة الكاذبِ إلى الكذب.

أين هذا مما جاء في القرآن الكريم من تنزيه الأنبياء عليهم السلام وتكريمهم ورسم الصورة المشرقة الصحيحة، لهم؟ كيف لا وهم خيرُ البشر وأتقاهم لله اصطنعهم لنفسه واصطفاهم على العالمين؟!

٣- التناقض الموجود في كتبهم:

وهذه الظاهرة بارزة في كتبهم وهو مما يقطعُ بالتحريف والتبديل:

من ذلك ما جاء في (صموئيل الثاني ٢٤):

«١٣ وأتى جاد إلى داود وأخبره قائلاً: إما أن يكون سبع سنين جوعاً لك في أرضك...» وفي (أخبار الأيام الأول ٢١): (١٢ أما ثلاث سنين جوعاً) إلخ.

«ففي الأول (سبع سنين) وفي الثاني (ثلاث سنين) وقد أَقرَّ مفسروهم أن الأول غلط»[1].

وجاء في (سفر العدد ٣٣): (٣٨ فصعد هرون الكاهن إلى جبل هور حسب قول

---

(١) إظهار الحق ٨٨/١.

الرب ومات هناك في السنة الأربعين لخروج بني إسرائيل من أرض مصر في الشهر الخامس في الأول من الشهر ٣٩ وكان هرون ابن مائة وثلاث وعشرين سنة حين مات في جبل هور».

وفي (سفر التثنية ١٠): (٦ وبنو إسرائيل، ارتحلوا من آبار بني يعفان إلى موسير. هناك مات هرون وهناك دفن).

فمرة تذكر التوراة أنه مات في جبل هور ومرة في موسير وهو تناقض فإنَّ «جبل هور بعد موسير بمنازل كما ترى في التوراة العدد ٣٣»[١].

وجاء في (أخبار الأيام الثاني والإصحاح ٣٦): «٩ وكان يهوياكين ابن ثمان سنين حين صار سلطاناً» ولفظ (ثماني سنين) غلط ومخالف لما وقع في الآية الثامنة من الباب الرابع والعشرين من سفر الملوك الثاني: «وكان يهوياكين حين جلس على سرير السلطنة ابن ثماني عشرة سنة».

قال آدم كلارك في المجلد الثاني من تفسيره ذيل عبارة سفر الملوك: «وقع في الآية التاسعة من الباب السادس والثلاثين من السفر الثاني من أخبار الأيام لفظ ثمانية، وهو غلط البتة»[٢].

وجاء في (سفر الملوك الثاني ٨): «٢٦ كان اخَزْيا ابن اثنتين وعشرين سنة، حين ملك، وملك سنة واحدة في أورشليم واسم أمه عَثَلْيا بنت عَمْري ملك إسرائيل».

وفي (أخبار الأيام الثاني ٢٢): «٢ كان اخزيا ابن اثنتين وأربعين سنة حين ملك وملك سنة واحدة في أورشليم واسم أمه عثليا بنت عمري».

«والثاني غلط يقيناً كما أقر به مفسروهم وكيف لا يكون غلطاً وإن أباه (يهورام) حين موته كان ابن أربعين سنة وجلس هو على سرير السلطنة بعد موت أبيه متصلاً... فلو لم يكن غلطاً يلزم أن يكون أكبر من أبيه بسنتين...»[٣].

---

(١) الرحلة المدرسية ٧٤.

(٢) إظهار الحق ١/ ٢٣٢.

(٣) إظهار الحق ١/ ٨٨.

وجاء في (يشوع ١٣): «٢٤ وأعطى موسى سبط جاد وبنيه لقبائلهم ميراثاً هذا تقسيمه، ٢٥ حد يعزير وجميع قرى جلعاد ونصف أراضي بني عمون إلى عرواعير التي هي حيال ربا».

«في (الباب الثاني من سفر الاستثناء) هكذا ١٧-١٩: قال لي الرب إنك تدنو إلى قرب بني عمون احذر تقاتلهم ومحاربتهم فإني لا أعطيك شيئاً من أرض بني عمون لأني أعطيتها بني لوط ميراثاً». انتهى ملخصاً. ثم في هذا الباب: «أسلم الرب إلهنا الجميع سوى أرض بني عمون التي لم تَدْنُ منها».

فبين الكتابين تَخالفٌ وتناقض فلو كانت هذه التوراة المشهورة تصنيف موسى عليه السلام كما هو مزعومهم فلا يتصور أن يخالفها يوشع ويغلط في المعاملة التي كانت في حضوره»[1].

وجاء في (سفر التثنية ٢٣): (٢ لا يدخل ابنُ زنى في جماعة الرب حتى الجيل العاشر لا يدخل منه أحدٌ في جماعة الرب).

«وهذا غلط ويلزم أن لا يدخل داود عليه السلام ولا آباؤه إلى فارض بن يهودا في جماعة الرب لأن فارض ولد الزنى كما هو مصرح في الباب الثامن والثلاثين من سفر التكوين وداود عليه السلام البطن العاشر منه كما يظهر من نسب المسيح المذكور في إنجيل متى ولوقا، مع أن داود رئيس الجماعة والولد البكر لله على وفق الزبور، ومثل ما وقع في الآية الأربعين من الباب الثاني عشر من سفر الخروج)[2].

ومن ذلك ما جاء في (سفر التثنية ٣٣) في الطبعة العربية للكتاب المقدس في بريطانيا بمطبعة كامبردج سنة ١٩٥٢ وطبعة بيروت سنة ١٩٦١:

«٢ جاء الرب من سينا، وأشرق (لهم) من ساعير، وتلألأ من جبال فاران، وأتى من ربوات القدس وعن يمينه نار شريعة لهم».

وفي طبعة الموصل - مطبعة الآباء الدومنيكيين سنة ١٨٧٥:

---

(١) إظهار الحق ١/٦٧-٦٨.

(٢) إظهار الحق ١/٦٣.

«جاء الرب من سينا وأشرق (لنا) من ساعير واستعلن من جبال فاران».

ففي النص الأول (لهم) وفي النص الثاني (لنا) ولا شك أن أحدهما هو الصحيح.

وفي طبعة رجارد واطس في لندن سنة ١٨٢٢م:

«جاء الرب من سينا وأشرق (لنا) من ساعير استعلن من جبل فاران ومعه ألوف الأطهار في يمينه سنة نار».

فأنت ترى أن في هذا النص (لنا) مكان (لهم) و(جبل) بدل (جبال) وفيه زيادة (ومعه ألوف الأطهار) التي لم تَرِدْ في الطبعات الأخرى. فأي النصوص هذه هو الصحيح؟ فإنه ليس من الممكن أن تكون جميعها صحيحة لأن التوراة واحدة.

فدلَّ ذلك دلالةً ظاهرة على التحريفِ والتبديل وأن التحريف - كما رأيت - لا يزال مستمراً.

٤- فساد الترجمة وتصرف المترجمين حسب أهوائهم: جاء في (إظهار الحق):

«إن أهل الكتاب سَلَفاً وخَلفاً عادتهم جارية بأنهم يترجمون غالباً الأسماء في تراجمهم ويوردون بدلها معانيها، وهذا خَبْطٌ عظيم ومنشأ للفساد وأنهم يزيدون تارة شيئاً بطريق التفسير في الكلام الذي هو كلام الله في زعمهم ولا يشيرون إلى الامتياز... وأنا أورد أيضاً بطريق الأنموذج بعضاً منها...

٢- وفي الآية الرابعة عشرة من الباب الثاني والعشرين من سفر التكوين في الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١١ هكذا: «سمى إبراهيم اسم الموضع مكان يرحم الله زائره». وفي الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٤٤ (دعا اسم ذلك: الرب يرى) فترجم المترجم الأول الاسم العبراني بمكان (يرحم الله زائره) والمترجم الثاني بـ(الرب يرى).

٣- وفي الآية العشرين من الباب الحادي والثلاثين من سفر التكوين في الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٦٢٥ وسنة ١٨٤٤ هكذا (فكتم يعقوب أمره عن حميه) وفي ترجمة أردو المطبوعة سنة ١٨٢٥ لفظ (لابان) موضع حميه، فوضع مترجمو العربية لفظ الحمي موضع الاسم...

٦- وفي الآية الحادية عشرة من الباب الثامن من سفر الخروج في الترجمة العربية

المطبوعة سنة ١٦٢٥ وسنة ١٨٤٤ هكذا: (تبقى في النهر فقط) وفي الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١١ هكذا: (تبقى في النيل فقط)[١].

وسترى هذا الشيء بعينه في العهد الجديد.

فأنت ترى أن المترجمين يتصرفون كما يشاؤون فمرة يذكرون اسم العلم ومرة معناه ومرة قريباً منه وهكذا.

فإذا كان التحريف في الترجمة حصل في هذه الأمور كإبدال (لابان) بـ(حميه) و(النيل) بالنهر وغير ذلك أفلا ترى أن التحريف يحصل في اسم سيدنا محمد ونعته من بابِ أَوْلى وأنهم يبدلون اسمه إلى معناه أو إلى قريب منه فيبدلون (محمداً) بـ(رجل) كما أبدلوا النيل بالنهر؟

وهذا أحد أسباب ما ذكره شيخ الإسلام الذي نقلناه آنفاً «وقد رأيت أنا من نسخ الزبور ما فيه تصريح بنبوة محمد ﷺ باسمه ورأيت نسخة بالزبور فلم أرَ ذلك».

٥- جاء في (سفر التثنية ٣٤): «٥ فمات هناك موسى عبد الرب في أرض موآب حسب قول الرب، ٦ ودفنه في الجواء في أرض موآب مقابل بيت فغور ولم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم. ٧ وكان موسى ابن مائة وعشرين سنة حين مات ولم تكل عينه ولا ذهبت نضارته. ٨ فبكى بنو إسرائيل موسى في عربات موآب ثلاثين يوماً».

هذا سفر من التوراة أُنزلَ على موسى فكيف يقول «فمات هناك موسى...» أفترى أنه نزل عليه بعد موته واندراسِ قبره أم أن هذه العبارة مَزيدة في التوراة، وترى بعد كم من السنين دُوِّنَتْ هذه التوراة؟

ونحوه ما جاء في الآية الحادية والثلاثين من الباب السادس والثلاثين من سفر الخليقة هكذا: «وهؤلاء الملوك الذين ملكوا في أرض أدوم قبل أن يملك لبني إسرائيل» (ولا يمكن أن تكون هذه الآية من كلام موسى عليه السلام لأنها تدل على أن المتكلم بها بعد زمان قامت فيه سلطنة بني إسرائيل. وأول ملوكهم شاول وكان بعد موسى عليه السلام بثلثمائة وست وخمسين سنة).

---

(١) إظهار الحق ٢/٢٢٨-٢٣٠.

قال آدم كلارك في المجلد الأول من تفسيره ذيل هذه الآية: (غالبُ ظني أنَّ موسى عليه السلام ما كتبَ هذه الآية، والآيات التي بعدها إلى الآية التاسعة والثلاثين)[1] وأظن أن ما ذهب إليه الدكتور إسكندر كيدس من أن التوراة أُلِّفَتْ بعد خمسمائة سنة من وفاة موسى[2] محتمل.

ونحوه ما جاء في (يشوع ٢٤): (٢٧ ثم قال يشوع لجميع هذا الشعب أن هذا الحجر يكون شاهداً علينا.. ٢٩ وكان بعد هذا الكلام أنه مات يشوع بن نون عبد الرب ابن مائة وعشر سنين فدفنوه في تخم ملكه في تمنة سارَح التي في جبل أفرايم شماليّ جبل جاعش».

وهذا السِّفْر نزل على يشوع فكيف يذكر موته ودفنه؟

ونحوه ما جاء في (صموئيل الثاني ٢٥): «١٢ ومات صموئيل فاجتمع جميع إسرائيل وندبوه ودفنوه في بيته بالرامة».

ونحوه ما جاء في (سفر أيوب ٤٢): (١٥ ولم توجد نساء جميلات كبنات أيوب في كل الأرض وأعطاهن أبوهن ميراثاً بين إخوتهن. ١٦ وعاش أيوب بعد هذا مائة وأربعين سنة ورأى بنيه إلى أربعة أجيال. ١٧ ثم مات أيوب شيخاً وشبعان الأيام».

ويقال فيه ما قيل في سابقه.

أفهناك أوضح من هذه الأدلة على التحريف والتغيير؟

تحريف الإنجيل:

الأناجيل المعترف بها عند المسيحيين أربعة: متى ومرقس ولوقا ويوحنا، وقد تَمَّ اختيارُ هذه الأناجيل في القرن الرابع الميلادي في مؤتمر (نيقية)، أما قبل هذا التاريخ فلم تكن هناك أناجيل بعينها معتمدة يقرها العالمُ المسيحي وينكر ما عداها وإنما كانت أناجيل كثيرة «فعند كلٍّ من أصحاب مرقيون وأصحاب ديصان إنجيل يخالف بعضُه هذه الأناجيل، ولأصحابِ ماني إنجيل يخالف هذه الأربعة وهو الصحيح في زعمهم، وهناك

(١) إظهار الحق ١/٢٣٩.

(٢) انظر إظهار الحق ١/٦١.

إنجيل يقال له إنجيل السبعين ينسب إلى تلامس والنصارى ينكرونه، وهناك إنجيل برنابا وهناك إنجيل اشتهر باسم التذكرة (إنجيل سرن تهس)[1] إلى غير ذلك من الأناجيل. ولم تعتمد هذه الأناجيل إلا في القرن الرابع المسيحي.

قال الأب عبد الأحد داود: «إن هذه السبعة والعشرين سفراً أو رسالة الموضوعة من قبل ثمانية كتب لم تدخل في عداد الكتب المقدسة باعتبار مجموع هيئتها بصورة رسمية إلا في القرن الرابع بإقرار مجمع نيقية العام وحكمه. لذلك لم تكن إحدى هذه الرسائل مقبولة ومصدَّقة لدى الكنيسة وجميع العالم العيسوي قبل التاريخ المذكور. ثم جاء من الجماعات العيسوية في الأقسام المختلفة من كرة الأرض ما يزيد على ألف مبعوث روحاني يشكلون المجمع العام بمئات من الأناجيل والرسائل المختلفة كلٌّ منهم يحمل نسخة إنجيل أو رسالة على الوجه الذي هو لديها إلى (نيقية) لأجل التدقيق وهناك تم انتخاب الأربعة الأناجيل مما يربو عدده على الأربعين أو الخمسين من الأناجيل المختلفة والمتضادة مع إحدى وعشرين رسالة من رسائل لا تُعد ولا تحصى. فَصُودِقَ عليها. وهكذا ثبت العهدُ الجديد من قبل هيئة عددها ٣١٨ شخصاً من القائلين بألوهية المسيح وهم زهاء ثلث أعضاء المجمع المذكور. وهكذا كان العالم المسيحي محروماً من العهد الجديد مدة ٣٢٥ سنة أي أنه كان بغير كتاب»[2].

وقال: «يجبُ التفكير في دينٍ بقيَ من تاريخ نشأته إلى ٣٢٥ عاماً بغير كتاب كم يتأثرُ بالعقائدِ المتولّدة من المنابع الخارجية وكيف يختلُّ نظامه ويكدر صفاؤه الأصلي بالخرافات والروايات الكاذبة؟»[3].

وقال «سير آرثر فندلاي» في كتابه «صخرة الحق» ٥٩:

«إن الأناجيل الحالية لم تستقر إلا في القرن الرابع الميلادي عقب مجمع قرطاجنة عندما تقرر أيُّ الكتابات يُحتفَظُ بها، وأيها يُرفَضُ ويُستبعد. وقبل ذلك التاريخ سنة

---

(١) محاضرات في النصرانية ٣٩.

(٢) الإنجيل والصليب ١٤.

(٣) الإنجيل والصليب ١٩.

٣٩٧م لم يكن هناك شيء اسمه العهد الجديد الذي نعرفه اليوم»[١].

ومما يؤكد هذا الرأي ما ذكره القسيس إبراهيم خليل فيلبس الذي أعلن إسلامه قال: «والنسَّاخُ المسيحيون الذين عاشوا قبل نهاية القرن الأول لا ينقلون شيئاً قط عن العهد الجديد بل كل ما ينقلونه مأخوذ من العهد القديم ولسنا نجد إشارة لإنجيل مسيحي قبل عام ١٥٠م»[٢].

وجاء في كتاب (الإنجيل والصليب): «يتحقق لدى مَنْ أنعم النظر في مطالعة الرسائل السبع والعشرين أن كاتبي الثلاث والعشرين منها لم يكونوا على علم بوجود الأناجيل الأربعة وإن كل ما تحكيه الاناجيل من الأمثال والنصوص والوقائع والحكايات والمعجزات تكاد تكون كلها مجهولة لدى كاتبي الثلاث والعشرين رسالة. إذن فالأناجيل الأربعة لم تكن موجودة في زمن الحواريين الخمسة أو الستة الذين كتبوا تلك الرسائل لأنها لا تبحث عن محتويات هذه الأناجيل قطعاً. . .

ولكن لا نجد في رسائل بولص العبارة الواجب ذِكْرُها كقولِه «على الوجه الذي كُتبَ في الإنجيل الفلاني أو إنجيل فلان، فلو وُجِدَ كتابُ إنجيل في زمن كتابة بولص وبطرس رسائلهما لكان من البديهي أن يبحثا عنه أو يقتبسا منه.

إذن فلا شُبهةَ في أن الزمن الذي كتب فيه حضرات بولص وبطرس ويوحنا ويعقوب ويهوذا رسائلهم لم يكن يوجد فيه الأربعة الأناجيل المَعْزوَّة إلى متى ومرقس ولوقا ويوحنا التي في أيدينا»[٣].

بل الظاهر أن أصحاب الأناجيل لا يعلم بعضُهم بما كتبَ الآخرُ ولذلك حصل كثيرٌ من التناقض بينهم.

جاء في كتاب (الإنجيل والصليب): «لا عِلْمَ لمؤلفي بعض هذه الرسائل بما كتبه البعضُ الآخر:

---

(١) انظر كتاب محمد في التوراة والإنجيل والقرآن ٨٠.

(٢) محمد في التوراة والإنجيل والقرآن ١٣٧.

(٣) الإنجيل والصليب ١٤-١٥.

من الظاهر أنه لم يكن لكتّاب الرسائل الإنجيلية عِلْمٌ بوجود الأناجيل الأربعة كما أنه لم يكن بعضهم على علم من كتابات البعض الآخر. فإن في هذه الرسائل بعض العقائد والبيانات الغريبة التي يتفرد بها كاتب تلك الرسالة ومن هذا القبيل قول بطرس: إن المسيح قضى عقب موته ثلاثة أيام في جهنم بين الأرواح المحبوسة في السجن. ولكن هذه المسألة العجيبة لم تذكرها بقية الرسائل الست والعشرين الأخرى التي تألف منها كتاب العهد الجديد. فكيف يمكن أن يكون الخمسة الحواريون غير واقفٍ أحدٌ منهم على ما كتبه الآخرون مع القول بأنهم كتبوا رسائلهم بتلقي الوحي مُلهمين من الروح القدس؟ كيف لا يكون لبطرس الذي كشف الغطاء عن دخول المسيح الجحيم ثلاثة أيام خَبرٌ ولا عِلم له برسالة يعقوب الذي يدعي أن دعاء الكاهن للمريض المحتضر مع دلكه بالزيت يشفيه وكذلك يغفر ذنوبه بهذه المداواة...

هل من عالم يستطيع أن يبين أية حكمة وعدالة استندت إليها هذه الإلهامات من الروح القدس أعني كتمان حقيقة عظيمة عند النصارى الساكنين في بعض الأقطار وإظهارها والإفضاء بها إلى سكنة ديارٍ أخرى ثم كَشْفِها وإلقائها إلى ٣١٨ راهباً بعد ٣٢٥ سنة؟[١].

وجاء في (إظهار الحق): «إنجيل متى هذا لم يكن مشهوراً معتبراً في عهد لوقا وإلا فكيف يتصور أن يكتب لوقا نَسبَ المسيح بحيث يخالف تحرير متَّى في بادىء الرأي مخالفة تحيّر فيها المحققون من القدماء والمتأخرين سلفاً وخلفاً؟»[٢].

«وفي عام ١٧٩٦ أشار هردر Herder إلى ما بين مسيح متى ومرقس ولوقا والمسيح في إنجيل يوحنا من فوارقَ لا يمكنُ التوفيق بينها.

وفي إنجلترا أدلى و.ب.سميث W.B.Smith وج.م.روبرتسن J.M.Roberston بحجج من هذا النوع أنكرا فيها وجود المسيح»[٣].

وقال القسيس إبراهيم خليل في إنجيل يوحنا: «وهو يناقض الأناجيل الأخرى

---

(١) الإنجيل والصليب ١٧-١٨.

(٢) إظهار الحق ١/ ١٠٠.

(٣) محمد في التوراة والإنجيل والقرآن ٦١-٦٢.

Synoptic Gospels في مئات من التفاصيل، وفي الصورة العامة التي يرسمها عن المسيح. . .

وخلاصة القول أن ثمة تناقضاً كثيراً بين بعض الأناجيل وبعضها الآخر وأن فيها نقطاً تاريخية مشكوكاً في صحتها، وفيها من القصص الباعثة على الشبهة والريبة تماثل مماثلة واضحة ما يروى عن آلهة الوثنيين»[(١)].

أما اختيار الكتب المقدسة فقد تمّ عن طريق المجامع الدينية، وأول مجمع عقد هو مجمع نيقية سنة ٣٢٥ وسبب انعقاد هذا المجمع أنه «حدث خلاف جوهري بين اثنين من رجال الكنيسة بالاسكندرية حول تحديد العلاقة بين المسيح الابن والإله الأب.

فقال آريوس - وهو أسقف اسكندري - أن المنطق يحتم وجودَ الأب قبل الابن ولما كان المسيح الابن مخلوقاً للإله الأب فهو إذن دونه، ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن يعادل الابنُ الإلهَ الأبَ في المستوى والقدرة وبعبارة أخرى فإن المسيحَ مخلوقٌ لا إله. . .

وقال أثناسيوس - وهو شمَّاس اسكندري - إن فكرة الثالوث المقدس تحتم أن يكون الابن مساوياً للإله الأب تماماً في كل شيء بحكم أنهما من عنصر واحد بعينه وإن كانا شخصين متميزين. . .

وحسماً للموقف دعا الامبراطور قسطنطين إلى عقد مجمع نيقيه سنة ٣٢٥م وفيه صدر قرار بإدانة آريوس أسقف الاسكندرية، وتوالت بعدئذ الدعوة إلى عقد مجامع يحضرها أساقفة المعمورة ليتدارسوا فيها شؤون الكنيسة وما يرتبط بها من نظام كهنوتي وعقيدة ولاهوت»[(٢)].

والغريب في هذا المجمع أن المجتمعين كانوا أكثر من ألف مبعوث من علماء النصارى اتفق على التثليث ٣١٨ أسقفاً منهم فقط وناصر آريوس الموحِّد أكثر من سبعمائة ومع ذلك أخذ بمبدأ التثليث تلبية لرغبة الامبراطور قسطنطين الذي لا يزال مشركاً آنذاك ولم يتنصَّرْ إلا قبيل وفاته.

---

(١) محمد في التوراة والإنجيل والقرآن ١٣٩-١٤٠.

(٢) محمد في التوراة والإنجيل والقرآن ١٥٥.

جاء في كتاب (الإنجيل والصليب): «إن الجهة المستغربة الماثلة للعينين فوق جميع مقررات المجمع الكبير وأعماله هي أن يعلم كيف انتحل الامبراطور قسطنطينيوس لنفسه قبل الاعتماد بالنصرانية - أي في حالةِ كونه مشركاً - ذلك المقامَ الأعلى الخاص بنفخ الروح القدس وتعليمه وتصرفه في أثناء انعقاد مجمع رسمي له الصلاحية التامة لحلِّ مشكلات العقائد الدينية والفصل فيها.

إن (أبوسيبوس) بسقبوس قيصرية الذي تُقدِّسه الكنيسةُ وتمنحه لقب (سلطان المؤرخين) كان صديقَ الامبراطور فلا يمكن أن يكتب في حقه ما يغاير الحقيقة أو ما هو عبارة عن مفتريات. وهذا المؤرخ يقول: إن قسطنطين اعتمد حين كان أسيرَ الفراش قبيل وفاته وأن الذي عَمَّده (أي نصّره) صديقه الحميم (أبوسيبوس) بسقبوس نيقوميديا»[(١)].

وقد تمّ في هذا المجمع وعدة مجامع أخرى اختيار الكتب المقدسة بحسب رغبة المجتمعين.

جاء في (إظهار الحق): «ينقسم كُلٌّ من العهدين إلى قسمين: قسم اتفق على صحته جمهورُ القدماء من المسيحيين وقسم اختلفوا فيه...

(القسم المختلف فيه على صحته من العهد العتيق) تسعة كتب:

١- كتاب أستير ٢- كتاب باروخ ٣- جزء من كتاب دانيال ٤- كتاب طوبيا ٥- كتاب يهوديت ٦- كتاب وزدم ٧- كتاب إيكليزياستيكس ٨- كتاب المقابيين الأول ٩- كتاب المقابيين الثاني.

(القسم المختلف على صحته من العهد الجديد):

١- رسالة بولس إلى العبرانيين ٢- الرسالة الثانية لبطرس ٣- الرسالة الثانية ليوحنا ٤- الرسالة الثالثة ليوحنا ٥- رسالة يعقوب ٦- رسالة يهوذا ٧- مشاهدات يوحنا.

انعقد مجلس العلماء المسيحيين، بحكم السلطان قسطنطين في بلدة نائس في سنة ٣٢٥ ثلثمائة وخمسة وعشرين من ميلاد المسيح ليشاوروا في باب هذه الكتب المشكوكة

---

(١) الإنجيل والصليب ٢١-٢٢.

ويحققوا الأمر، فحكمَ هؤلاء العلماءُ بعد المشاورة والتحقيق في هذه الكتب أن كتاب يهوديت واجبُ التسليم وأبقوا سائر الكتب المختلفة مشكوكة، كما كانت... ثم بعد ذلك انعقد مجلس آخر يسمى بمجلس لوديسيا في سنة ثلثمائة وأربع وستين فأبقى علماء ذلك المجلس حكم علماء المجلس الأول في باب كتاب يهوديت على حاله وزادوا على حكمهم سبعة كتب أخرى وجعلوها واجبة التسليم وهي هذه:

١- كتاب أستير ٢- رسالة يعقوب ٣- الرسالة الثانية لبطرس ٤،٥- الرسالة الثانية والثالثة لوحنا ٦- رسالة يهوذا ٧- رسالة بولس إلى العبرانيين.

وأكَّدوا ذلك الحكم بالرسالة العامة وبقي كتاب مشاهدات يوحنا في هذين المجلسين خارجاً مشكوكاً كما كان. ثم انعقد بعد ذلك مجلس آخر في سنة ثلثمائة وسبع وتسعين. وتسمى هذا المجلس مجلس (كارنهيج)[1] وكان أهلُ هذا المجلس الفاضل المشتهر عندهم (اكتسائن) ومائة وستة وعشرين شخصاً غيره من العلماء المشهورين فأهل هذا المجلس أبقوا حكم المجلسين الأولين بحاله وزادوا على حكمهما هذه الكتب:

١- كتاب وزدم ٢- كتاب طوبيا ٣- كتاب باروخ ٤- كتاب إيكليزياستيكس ٥،٦- كتابا المقابيين ٧- كتاب مشاهدات يوحنا.

لكن أهل هذا المجلس جعلوا كتاب باروخ بمنزلةِ جزءٍ من كتاب أرميا فلذلك ما كتبوا اسم كتاب باروخ في فهرست أسماء الكتب على حِدة، فبعد انعقاد هذه المجالس صارت هذه الكتب المشكوكة مسلَّمة بين جمهور المسيحيين وبقيت هكذا إلى مدة ألف ومائتين إلى أن ظهرت فرقة البروتستنت فردُّوا حكم هؤلاء الأسلاف في باب كتاب باروخ وكتاب طوبيا وكتاب يهوديت وكتاب وزدم وكتاب إيكليزياستيكس وكتابي المقابيين وقالوا: إن هذه الكتب واجبة الردِّ وغير مسلَّمة، وردوا حكمهم في بعض أبواب كتب أستير وسلموا في البعض لأن هذا الكتاب كان ستة عشر باباً فقالوا: إن الأبوابَ التسعة

---

(١) في ص٢٣٦ من هذا الكتاب: «وكان أهل ذلك المجلس مائة وسبعة وعشرين عالماً من العلماء المشهورين ومنهم الفاضل المشهور المقبول عندهم اكستائن فهؤلاء العلماء سلموا أحكام المجلسين الأولين.

من الأول وثلاثة آيات من الباب العاشر واجبة التسليم وستة أبواب باقية واجبة الرد»[1].

إن العالم المسيحي يولي المجامع سلطة دينية واسعة في التحريم والتحليل والتشريع ولما كانت العقول مختلفة والرغبات متناقضة تناقضت كثير من الأحكام التي أصدرتها المجامع فكان يُلغي مجمعٌ متأخِّر أحكامَ مجمعٍ سابق وهكذا، ومن ذلك على سبيل المثال:

«١- مجمع صور سنة ٣٣٤م:

في هذا المجمع الذي عقده الامبراطور قسطنطين صدر قرار بإلغاء قرارات مجمع نيقية سنة ٣٢٥م وصدر قرار بالعفو عن آريوس وأتباعه وبقبول تعاليمه...

٢- مجمع خلقدونيا سنة ٤٥١م:

أصبح رابع مجمع مسكوني ديني بإغفال مجمع صور سنة ٣٣٤م وفيه اتخذ قرار بأن للمسيح طبيعتين: طبيعة إلهية وطبيعة إنسانية متحدتين اتحاداً وثيقاً...

٣- مجمع القسطنطينية الثاني سنة ٥٥٣م:

في هذا المجمع استصدر قرار بتأييد مذهب الطبيعة الواحدة، وساند هذا التأييد الامبراطور جستنيان إرضاء لزوجته تيودورا وتنكيلاً للبابا فجيلوس.

٤- مجمع القسطنطينية الثالث سنة ٦٨٠م:

وقد اتخذ هذا المجمع قراراً بإدانة مذهب الطبيعة الواحدة فكان هذا نقضاً لقرار سنة ٥٥٣م.... إلخ»[2].

«وقد جاء مجمع غير عام بإقرار الجميع انعقد بأمر قسطنطين الخامس سنة ٧٥٤م وفيه جمهور من الأساقفة وفدوا إليه من جهات مختلفة وقد قرر تحريم اتخاذ الصور والتماثيل في أماكن العبادة وحرم طلب الشفاعة من العذراء، ولأجل هذا انعقد المجمع السابع بأمر الملكة إيريني بمدينة نيقية ويسمى المجمع النيقاوي الثاني سنة ٧٨٧ وكان

---

(١) إظهار الحق ١/٥١ وما بعدها.

(٢) محمد في التوراة والإنجيل والقرآن ١٥٥ وما بعدها.

أعضاؤه ٣٧٧ أسقف وأصدروا القرار بتقديس صور المسيح والقديسين لا بعبادتها وجاء في هذا القرار: «إننا نحكم أن توضع الصور ليس في الكنائس والأبنية المقدسة والملابس الكهنوتية فقط بل في البيوت وعلى الجدران والطرقات...»(١).

ومن ذلك المجمع الثاني عشر في روما سنة ١٢١٥م وأهم ما جاء في قراراته أن الكنيسة البابوية تملك الغفران وتمنحه لمن تشاء(٢).

«وختام هذه المجامع هو المجمع المتمم للعشرين المنعقد في رومة سنة ١٨٦٩ وفيه أثبتوا العصمة للبابا»(٣).

أما هذه الأناجيل الأربعة التي تمّ اختيارها في مجمع نيقية والتي لا يعرفُ مصنِّفُ كلِّ واحدٍ منها ما كتبَ الآخرُ، فهي مشكوكة الصحة في نسبتها إلى أصحابها، ثم إن النسخ التي كتبت باللغة التي أُلِّفَتْ فيها مفقودة فأول ما ظهرت النسخ مترجمة ولا يُعلَمُ مترجموها.

جاء في «إظهار الحق»: «ولذلك طلبنا مراراً من علمائهم الفحول السندَ المتصل فما قدروا عليه، واعتذر بعض القسيسين في محفل المناظرة التي كانت بيني وبينهم فقال: إن سبب فقدان السند عندنا وقوع المصائب والفتن إلى مدة ثلثمائة وثلاث عشرة سنة»(٤).

فمتَّى مثلاً «اتفق جمهورهم على أنه كتب إنجيله بالعبرية أو السريانية كما اتفقوا على أن أقدم نسخة عرفت شائعة رائجة كانت باليونانية، ولكن موضع الخلاف تاريخ تدوينه ومَن الذي ترجمه إلى اليونانية...

يقول هورن: أُلِّفَ الإنجيلُ الأول سنة ٣٧ أو سنة ٣٨ أو سنة ٤١ أو سنة ٤٣ أو سنة ٤٨ أو سنة ٦١ أو ٦٢ أو سنة ٦٣ أو سنة ٦٤ من الميلاد»(٥).

---

(١) محاضرات في النصرانية لأبي زهرة ١٤٣.
(٢) أضواء على المسيحية ١١٥.
(٣) محاضرات في النصرانية ١٤٦.
(٤) إظهار الحق ١/٥٧، وانظر الفارق بين المخلوق والخالق ٩ طبعة دار عمار/ الأردن.
(٥) محاضرات في النصرانية ٤١-٤٣.

وقال استادلن: «إن كافة إنجيل يوحنا تصنيف طالب من طلبة مدرسة الاسكندرية، ولقد كانت فرقة الوجين في القرن الثاني تنكر هذا الإنجيل وجميع ما أُسند إلى يوحنا».

ولقد جاء في دائرة المعارف البريطانية التي اشترك في تاليفها خمسمائة من علماء النصارى ما نصه: (أما إنجيل يوحنا فإنه لا مِرْيَةَ ولا شكَّ كتابٌ مزور)... ولقد اختلف المسيحيون في تاريخ تدوين هذا الإنجيل اختلافاً بيناً فالدكتور بوست يرجح أنه كتب سنة ٩٥، أو سنة ٩٨ وقبل سنة ٩٦ ويقول هورن في تاريخ تدوين ذلك الإنجيل: ألف الإنجيل الرابع سنة ٦٨ أو سنة ٦٩ أو سنة ٧٠ أو سنة ٨٩ أو سنة ٩٨ من الميلاد»[١].

وكذلك شأن بقية الأناجيل ولذلك قال بعض علماء النصارى: إن هذه الأناجيل من تأليف بولس قال القسيس إبراهيم خليل فيلبس: «ولعل في سيطرة تعاليم بولس في الكنائس وسيطرة شخصيته على التلاميذ ما دفع بعض علماء الغرب إلى القول بأن إنجيل يوحنا وإنجيل مرقص من تأليف بولس كما تحققه دائرةُ المعارف الفرنسية وكما يحققه قاموس الكتاب المقدس»[٢].

فأنت ترى أن رسائل أهل الكتاب كافة لا ترقى إلى درجة أيِّ حديثٍ ضعيف معلوم السند عند المسلمين بَلْه الأحاديث الصحيحة.

تحول عقيدة النصارى عن التوحيد:

بعد انتصار الثلث على الثلثين في مجمع نيقية الأول بدأت عقيدة التثليث تستأصل شيئاً فشيئاً عقيدة التوحيد حتى تمكنت بمرور الزمن من ذاك، وتتلخص هذه العقيدة في أن الله ثلاثة أقانيم: الأب والابن وروح القدس، وهي كلها إله واحد وطبيعة واحدة فطبيعة الابن هي طبيعة الإله الأب، فالمسيح ابنُ الله وهو الله الذي خلق الخالق ودبر الأمر وهو أزليٌّ غير أنه اتحد بالناسوت لينقذ العالم عن طريق الصلب من الخطيئة التي ارتكبها أبونا آدم. فإن الصلب إنما كان لإنقاذ البشر من الخطيئة الأولى ولم تكن هناك وسيلة أخرى لإنقاذ البشر. ولستُ أدري لماذا يتمكن البشر من العفو والمغفرة ولا

---

(١) محاضرات في النصرانية ٤٩-٥٢.

(٢) محمد في التوراة والإنجيل والقرآن ١٤٤.

يتمكن الله من ذلك إلا أن يصلب ابنه أو نفسه؟!

ونحن لا نريد وليس من موضوعنا أن نناقش هذه العقيدة وإنما نريد أن نمسَّها مساً خفيفاً.

إن الناظر في الأناجيل يجد فيها ما يدفع هذا الاعتقاد ويبطله، أما النصوص القليلة التي تشير إلى ربوبية المسيح فهي مُقحمةٌ إقحاماً، ونحن إزاء هذه النصوص المتضاربة مضطرون إلى أن نأخذ بأحد النصين أو أن نتركهما جميعاً وكلا الأمرين لا يرضي النصارى لأنه يؤدي إلى القول بتحريف النصوص لا محالة.

جاء في (إنجيل متى) ١٩: قول المسيح عندما قالوا له (أيها المعلم الصالح): «١٦ لماذا تَدْعُونَني صالحاً ليس أحدٌ صالحاً إلا واحدٌ وهو الله» فاعتراضه عليهم بأنه ليس صالحاً إلا الله فلماذا تدعونني صالحاً يدل على أنه غير الله.

وجاء في (يوحنا: ٧): (٢٨ فنادى يسوع وهو يعلِّمُ في الهيكل قائلاً: تعرفونني وتعرفون من أين أنا؟ ومن نفسي لم آتِ بل الذي أرسلني هو حق الذي أنتم لستم تعرفونه».

فإذا كان هو إلهاً فكيف يقول: إنه لم يأتِ من نفسه وإنما جاء بمشيئةِ الذي أرسله؟ فهو إذن مُرسَلٌ من غيره.

ونحوه ما جاء في (يوحنا ٤): «٣٤ قال لهم يسوع طعامي أن أعمل مشيئةَ الذي أرسلني وأتمم عمله».

فهو إذن يعمل مشيئة الذي أرسله وليس إلهاً.

وجاء في (مرقس ١٣): (٣٢ وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلمُ بهما أحدٌ ولا الملائكة الذين في السماء ولا الابن إلا الأب).

وهذا كلام حول القيامة: فهنا يذكر عيسى أن علم الأب غير علم الابن وأن الأب يعلم ما لا يعلمه الابن، فدلَّ على تغايرهما وأن المسيحَ يجهلُ بعض الأمور فدلّ ذلك على أنه ليس هو الله.

وأما تسمية الله بالأب - إن لم تكن من تحريفات أهل الإنجيل - فلا تدل على

الأبوة الحقيقية وإنما هي أبوة مجازية بمعنى أن الله سبحانه هو يهديهم وَيُربُّهم ويعلِّمهم ويقوم بأمرهم كما يقوم الأبُ بأمرِ ولده. وهي هكذا في الإنجيل، فالإنجيلُ يسمى الله أباً للبشر ويسمي الصالحين أبناء الله فهل معنى ذلك أن البشر أبناء الله حقيقة وهو أبوهم؟ فإنْ كان كذلك فلا فضلَ لعيسى عليهم فهو أبوهم جميعاً وهم أبناؤه.

جاء في (إنجيل متى) الإصحاح ٥: ٩ طوبى لصانعي السلام لأنهم أبناء الله يُدعون.

وجاء فيه ٥: ١٦ فليضيءْ نوركم هكذا قُدَّامَ الناس لكي يروا أعمالكم الحسنة ويُمَجِّدوا أباكم الذي في السماوات.

وجاء فيه ٥: ٤٨ فكونوا أنتم كاملين كما أن أباكم الذي في السموات هو كامل.

وجاء فيه ٦: ١ احترزوا من أن تصنعوا صدقتكم قدام الناس لكي ينظروكم وإلا فليس لكم أجر عند أبيكم الذي في السموات.

وجاء فيه ٦: ٩ فصلوا أنتم هكذا: أبانا الذي في السماوات ليتقدَّس اسمك.

وجاء فيه ٦: ١٤ فإنه غفرتم للناس زلاتهم يغفر لكم أيضاً أبوكم السماوي.

وجاء فيه ٢٣: ٩ ولا تدعوا لكم أباً على الأرض لأن أباكم واحد الذي في السموات.

وهذا الأمر واضح، كما ترى.

وجاء في (يوحنا: ١): (٢٩ وفي الغد نظر يوحنا يسوع مقبلاً إليه فقال: هوذا حَمَلُ[1] الله الذي يرفع خطيئةَ العالم).

فهو إذن حَمَلُ الله وليس هو الله فكيف يكون حَمَلُ الله هو الله؟ أليس هذا تناقضاً؟

وجاء في (يوحنا: ٨): «٤٠ ولكنكم الآن تطلبون أن تقتلوني وأنا إنسان قد كلَّمكم بالحق الذي سمعه من الله».

فهو قد صرح بأنه إنسان كلمهم بالحق الذي سمعه من الله أفهناك أصرح من هذا النص على بطلان ألوهيته؟!

---

(١) الحمل: الخروف الصغير.

وجاء في (متى ٥: ٢٧): عن صلبه: (٤٦ ونحو الساعة التاسعة صرخ يسوع بصوت عظيم قائلاً: إيلي إيلي لما شبقتني أي: إلهي إلهي لماذا تركتني؟) فهو ينادي ويستغيث إلهه فكيف يكون هو إلهاً؟

وفي (لوقا: ٢٣) «ونادى يسوع بصوت عظيم وقال: يا أبتاه في يديك أَستودعُ روحي» فهو إذن يستودعُ روحَهُ عند الله فكيف يكون هو الله، وعند مَنْ يستودع روحه إذن؟! ثم إن الأناجيل وصفت المسيح بأنه يتعبُ ويجوع وينام ويضطرب فكيف يَصحُّ أن يكون هذا وصفاً لله؟

جاء في (يوحنا: ٤): (٦ فإذ كان يسوع قد تعب من السفر جلس هكذا على البئر).

وجاء في (متى: ٢١): (١٨ وفي الصبح إذ كان راجعاً جاع).

وجاء في (مرقس: ٤): (٢٨ وكان هو في المؤخر على وسادة نائماً فأيقظوه).

وجاء في (يوحنا: ١٢): (٢٧ الآن نفسي قد اضطربت. وماذا أقول؟ أيها الأب نَجِّني من هذه الساعة).

فدلَّ ذلك أوضحَ دلالة على أن المسيحَ الإنسان - كما قال هو نفسه - يجوعُ ويتعب وينام ويضطرب ويجهل وأنه مرسل من الله.

فهو إذن بشر رسول كسائر الرسل.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أليس في وسع الله أن يغفر الخطايا فلماذا يكون الصلب؟

إن الإنجيل يقول: بلى في وُسْعِه ذاك، جاء في (لوقا: ١١): (٢ فقال لهم متى صليتم فقولوا: أبانا الذي في السموات ليتقدَّس اسمك.. ٤ واغفر لنا خطايانا لأننا نحن أيضاً نغفر لكل مَنْ يذنب إلينا).

فنحن نطلب من الله مغفرة الخطايا كما يغفر الناس لمن يذنب إليهم.

وجاء في (لوقا ١٧): (٣ وإن أخطأ أخوك فوبِّخْهُ وإنْ تاب فاغفرْ له).

فإذا كان في وسعنا أن نغفر لإخواننا أفلا يكون ذلك في وسع رب السموات

والأرض؟

والقول بالمغفرة يفضي قطعاً إلى إبطال عقيدة الصلب.

بل في الإنجيلِ نفسهِ ما ينفي الصلبَ. جاء في (متى ٢٣): (٣٩ لأني أقول لكم إنكم لا ترونني من الآن حتى تقولوا مبارك الآتي باسم الرب... ٢٤: ١ «ثم خرج يسوع ومضى في الهيكل».

وهذا يدل على أنه فارقهم منذ أن كلمهم «وذلك أنه في عبارته هذه يشير إلى وداعهم حين قال: إنكم لا ترونني من الآن، أي: من تلك الساعة. فإنْ صح هذا فهو دليلٌ قطعي على أن اليهود لما أرادوا أخذه لم يروا ذاته بل رأوا مَنْ يشبهه فأخذوه وعملوا به ما عملوا وأما هو فقد ارتفع من بينهم في تلك الساعة ليقضي الله أمراً كان مفعولاً»[١].

شواهد التحريف:

من المعلوم أن المسيح هو الذي جاء بالإنجيل فأين هذا الإنجيل، إنجيل المسيح؟

نحن نعلم أن النصارى يؤمنون بإنجيل متَّى وإنجيل مرقس وإنجيل لوقا وإنجيل يوحنا فأين إنجيل المسيح؟

جاء في إنجيل مرقص ١: «١٤ وبعدما أسلم يوحنا جاء يسوع إلى الجليل يكرز[٢] ببشارة ملكوت الله ١٥ ويقول قد كمل الزمان واقترب ملكوت الله فتوبوا وآمنوا بالإنجيل».

وجاء فيه في الإصحاح ١٣: من وصايا يسوع (١٠ وينبغي أن تكرز أولاً بالإنجيل في جميع الأمم).

وجاء فيه ١٦: (١٥ وقال لهم اذهبوا إلى العالم أجمع واكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها).

وجاء فيه أيضاً ١٤: (٩ الحق أقول لكم حيثما يُكرز بهذا الإنجيل في كل العالم

---

(١) الفارق ١٧٧.

(٢) يكرز: يبشر.

يخبر أيضاً بما فعلته تذكاراً لها).

أين هذا الإنجيل الذي دعا به المسيح وطلب التبشير به؟ إنه قال - كما أسلفنا -: (الحق أقول لكم حيثما يكرز بهذا الإنجيل في كل العالم...) واسم الإشارة يقتضي مشاراً إليه فأين الإنجيل الذي أشار إليه عيسى؟

إن هذا وحده يدل على فقدان إنجيل عيسى، وإضافة إلى ذلك سنقيمُ الدليل على تحريف الأناجيل بصورة قاطعة. ومما يدل على ذلك:

١- التناقض بين الأناجيل بل ومناقضة الإنجيل الواحد لنفسه وللعهد القديم: فمن ذلك على سبيل المثال اختلاف إنجيل متى وإنجيل لوقا في نسب المسيح اختلافاً أعيا علماء النصارى وحَيَّرهم وعجزوا عن تفسيره ولا تفسيرَ له سوى أن أحدهما لا يعلمُ بما يكتب الآخر. وتصحيحُ أحدهما يُفضي إلى تكذيب الآخر.

جاء في إنجيل متى الإصحاح الأول من ١-٧ أن المسيح ابن يوسف[١] بن يعقوب بن متّان بن اليعازر بن اليود بن أخيم... بن سليمان بن داود.

وجاء في إنجيل لوقا الإصحاح الثالث من ٢٣-٣٨ أنه ابن يوسف بن هالي بن منثات بن لاوي بن ملكي بن ينا... بن ناثان بن داود.

هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية أن الأجيال ما بين المسيح وداود ثمانية وعشرون جيلاً على ما ذكر متى - الإصحاح الأول، وعلى ما ذكر لوقا في الإصحاح الثالث واحد وأربعون جيلاً.

وإن (شألتئيل) هو ابن (يكنيا) على ما جاء في إنجيل متى - الإصحاح الأول ١٢، وفي إنجيل لوقا - الإصحاح الثالث الفقرة ٢٧ هو ابن (نيري).

وفي إنجيل متى - الإصحاح الأول الفقرة ١١ أن (يكنيا) الذي هو من أجداد المسيح هو ابن (يوشيّا).

وفي (أخبار الأيام الأول ٣) - الفقرة ١٥، ١٦ و(أرميا) الإصحاح ٣٤ الفقرة الأولى

---

(١) العجيب أن الأناجيل تذكر في نسب المسيح أن المسيح ابن يوسف وهي مع ذلك تزعم أنه ابن الله ولا أب له على الأرض.

أن (يكنيا) إنما هو ابن (يهوياقيم) و(يهويا قيم) هو ابن يوشيّا فيكون يوشيّا جد (يكنيا) لا أباه. وهذا الحذف له سبب سنذكره إن شاء الله. فهنا تناقضَ إنجيلُ متى ولوقا وتناقض إنجيل متى والعهد القديم وهو مما يقطعُ بالتحريف. ومن التناقضات ما جاء في إنجيل مرقس ١ : ٦ أن يحيى كان يأكل جراداً وعسلاً برياً».

وفي إنجيل متى ١١ : «١٨ أنه كان لا يأكل ولا يشرب»[1].

وهو تناقض.

ومن ذلك ما جاء في إنجيل متى ١٤ : «٥ ولما أراد أن يقتله (يوحنا المعمدان) خاف من الشعب لأنه كان عندهم مثل نبي».

وفي إنجيل لوقا ٢٠ : «٦ فجميع الشعب يرجموننا لأنهم واثقون بأن يوحنا نبي» وهو تناقض.

ومن ذلك ما جاء في مرقس ٩ : «٤٠ لأن مَنْ ليس علينا فهو معنا».

وفي لوقا ١٩ : «٤٩ لأن من ليس علينا فهو معنا».

بينما جاء في متى ١٢ : «٣٠ من ليس معي فهو عليَّ».

وهو يناقض ما جاء في مرقس ولوقا.

ومن ذلك ما جاء في يوحنا ٥ : «٣١ إن كنتُ أشهد لنفسي فشهادتي ليست حقاً».

وجاء فيه في مكان آخر ٨ : «١٤ وإن كنتُ أشهد لنفسي فشهادتي حق».

وكلاهما قول المسيح وهذا تناقضٌ في الإنجيل الواحد.

ومن ذلك ما جاء في متى: ١٧ «١ وبعد ستة أيام أخذ يسوع بطرس ويعقوب يوحنا أخاه وصعد بهم إلى جبل عال منفردين».

وفي مرقس ٩ : «٢ وبعد ستة أيام أخذ يسوع بطرس ويعقوب ويوحنا».

وفي لوقا ٩ : «٢٨ وبعد هذا الكلام بنحو ثمانية أيام أخذ بطرس ويوحنا ويعقوب

---

(١) انظر إظهار الحق ١٠٦/١.

وصعد إلى جبل ليصلي».

وهذا تناقض في حادثة واحدة فمتى ومرقس يقولان بعد ستة أيام ولوقا يقول بعد ثمانية أيام.

ومن ذلك ما جاء في متى ٥: «٩ طوبى لصانعي السلام لأنهم يُدْعَوْنَ أبناء الله».

وفي الباب العاشر من إنجيل متى: «٣٤ ولا تظنوا أني جئت لألقي سلاماً على الأرض ما جئت لألقي سلاماً بل سيفاً».

«فبين الكلامين اختلاف ويلزم أن لا يكون عيسى عليه السلام من الذين قيل في حقهم (طوبى) ولا يدعى ابن الله»[1].

ويناقضه قوله في متى ٣: ١٧ «هذا هو ابني الحبيب الذي به سُرِرت».

وانظر إلى خطبة واحدة ألقاها المسيح كيف يرويها كل من متى ولوقا:

متى - الإصحاح الخامس	**إنجيل لوقا - الإصحاح السادس**
١- ولما رأى الجموع صعد إلى الجبل فلما جلس تقدم إليه تلاميذه	٢٠ ورفع عينيه إلى تلاميذه وقال: طوباكم أيها المساكين لأن لكم ملكوت الله.
٢- ففتح فاه وعلمهم قائلاً.	
٣ طوبى للمساكين بالروح لأن لهم ملكوت السماوات.	٢١ طوباكم أيها الجياع الآن لأنكم تُشبَعُون.
٤ طوبى للحزانى لأنهم يتعزون.	طوباكم أيها الباكون الآن لأنكم ستضحكون.
٥ طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض.	٢٢ طوباكم إذا أبغضكم الناس وإذا أفرزوكم وعيروكم وأخرجوا اسمكم كشرير من أجل ابن الإنسان .
٦ طوبى للجياع والعطاش إلى البِرِّ لأنهم يُشبعون.	

(١) إظهار الحق ١/١١٥.

٧ طوبى للرحماء لأنهم يُرحمون.
٨ طوبى للأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله.
٩ طوبى لصانعي السلام لأنهم أبناء الله يُدْعَون.
١٠ طوبى للمطرودين من أجل البر لأن لهم ملكوت السموات.
١١ طوبى لكم إذا عيَّروكم وطردوكم وقالوا عليكم كل كلمة شريرة من أجلي كاذبين.
١٢ افرحوا وتهللوا، لأن أجركم عظيم في السماوات فإنهم هكذا طردوا الأنبياء الذين قبلكم.
١٣ أنتم ملح الأرض ولكن إن فسد الملح فبماذا يُملَّح لا يصلحُ بعدُ لشيء إلا لأنْ يُطرح خارجاً ويداس من الناس.

٢٣ افرحوا في ذلك اليوم وتهللوا فهو ذا أجركم عظيم في السماء لأن آباءهم هكذا يفعلون بالأنبياء.
٢٤ ولكن ويل لكم أيها الأغنياء لأنكم قد نلتم عزاءكم.
٢٥ ويل لكم أيها الشباعى لأنكم ستجوعون. ويل لكم أيها الضاحكون الآن لأنكم ستحزنون وتبكون.
٢٦ ويل لكم إذا قال فيكم جميع الناس حسناً لأنه هكذا كان آباؤهم يفعلون بالأنبياء الكذبة.

فأنت ترى أن ثمة فروقاً غير قليلة بين النصين ففي (متى) الكلام على الغائبين وفي (لوقا) الكلام للمخاطبين وفي كلا النصين زيادةٌ من جهة ونقصٌ من جهة واختلاف من جهة أخرى مما يقطع بالتحريف.

وانظر إلى طائفة من الفروق بين النصين:

متى	لوقا
١- الكلام في متى على الغائبين	الكلام للمخاطبين
٢-	رفع عينيه
٣- للمساكين (بالروح).	عدم وجود (بالروح)
٤- ملكوت السماوات	ملكوت الله
٥- طوبى للحزانى لأنهم يتعزون	طوباكم أيها الباكون (الآن) لأنكم ستضحكون.
٦- طوبى للودعاء	-

٧- طوبى للجياع والعطاش إلى البر	طوباكم أيها الجياع (عدم وجود: والعطاش إلى البر).
٨- طوبى للرحماء... الفقرة	-
٩- طوبى للأتقياء القلب... الفقرة	-
١٠- طوبى لصانعي السلام... الفقرة	-
١١- طوبى للمطرودين... الفقرة	-
١٢- -	ويل لكم أيها الأغنياء... الفقرة
١٣- -	ويل لكم أيها الشباعى... الفقرة
١٤- -	ويل لكم أيها الضاحكون... الفقرة
١٥- -	ويل لكم إذا قال فيكم... الفقرة
١٦- من أجلي	من أجل ابن الإنسان
١٧- أنتم ملح الأرض... الفقرة	-
● (وردت كلمة طوبى ٩ مرات)	(وردت أربع مرات)
● (لم ترد كلمة ويل)	(وردت أربع مرات)

جاء في الفارق: «وهكذا جميع الخطبة لا توافقَ فيها بين الكلامين، والمترجم ذكر لفظ طوبى عشر مرات ولوقا ذكرها أربع مرات فقال (طوبى لكم) وزاد على المترجم قوله: ويل لكم ذكرها أربع مرات أيضاً والمترجم لم يذكر الويل مطلقاً». وقال المترجم خطاباً للتلاميذ ١٥ (أنتم ملح الأرض ولكن إن فسد الملح فبماذا يملَّح لا يصلح بعد لشيء إلا لأن يطرح خارجاً ويداس من الناس).

وخالفه لوقا فذكر ذلك في (الإصحاح ١٤ ف٣٤) بقوله: (الملح جيد ولكن إذا فسد الملح فبماذا يُصْلَحُ. لا يصلح لأرض ولا لمزبلة فيطرحونه خارجاً. مَنْ له أذنان للسمع فليسمع)[١].

ومن تناقض الأناجيل ما جاء في متى ٢١: (١ ولما قربوا من أورشليم وجاء إلى بيت فاجي عند جبل الزيتون حينئذ أرسل يسوع تلميذين قائلاً لهما اذهبا إلى القرية التي

(١) الفارق ٤٣-٤٤.

أمامكما فللوقتِ تجدان أتاناً مربوطة وجحشاً معها فحلّاهما وائتياني بهما وإن قال لكما أحد شيئاً فقولا: الربُّ محتاجٌ إليهما فللوقت يرسلهما فكان هذا كله لكي يتم ما قيل بالنبي القائل: (قولوا لابنة صهيون هوذا ملكك يأتيك وديعاً راكباً على أتان وجحش ابن أتان» فذهب التلميذان وفعلا كما أمرهما يسوع وأتيا بالأتان والجحش ووضعا عليهما ثيابهما فجلس عليهما».

قال الأستاذ عبد الوهاب النجار: (وأنا لا أدري ولا مؤلف الإنجيل المذكور يدري ولا المنجم يدري كيف يركب المسيح الأتان والجحش معاً وينتظمهما في جلسة واحدة؟)[1].

وعلى أي حال فهو مخالف لما جاء في إنجيلي مرقس ولوقا.

جاء في إنجيل مرقس ١١: (١ ولما قربوا من أورشليم إلى بيت فاجي وبيت عنيا عند جبل الزيتون أرسل اثنين ٢ وقال لهما اذهبا إلى القرية التي أمامكما فللوقت وأنتما داخلان إليها تجدان جحشاً مربوطاً لم يجلس عليه أحد فحلاه وأتيا به).

فهو هنا أخبر أنهما يجدان جحشاً فقط وليس جحشاً وأتاناً.

ونحوه جاء في إنجيل لوقا الإصحاح التاسع عشر الفقرة ٢٨ وما بعدها.

أما يوحنا فقد خالفهم أجمعين فلم يذكر أن يسوع أرسل أحداً وإنما هو وجد جحشاً فجلس عليه.

جاء في (يوحنا ١٢): «١٢ وفي الغد سمع الجمع الكثير الذي جاء إلى العيد أن يسوع آت إلى أورشليم ١٣ فأخذوا سعوف النخل وخرجوا للقائه وكانوا يصرخون أَوْصِنَا مباركٌ الآتي باسم الرب ملك إسرائيل. ووجد يسوع جحشاً فجلس عليه كما هو مكتوب: لا تخافي يا ابنة صهيون هوذا ملكك يأتي جالساً على جحشٍ أتان».

فيا ترى أي هذه النصوص هو الصحيح؟

أما النص الذي أشار إليه مصنفو الأناجيل: لكي يتم ما قيل بالنبي القائل: قولوا لابنة صهيون... فهو في سفر زكريا الإصحاح التاسع ونصه:

«٩ ابتهجي جداً يا ابنة صهيون اهتفي يا بنت أورشليم هوذا ملكك يأتي إليك هو عادل ومنصور وديع وراكب على حمار وعلى جحش ابن أتان».

وهذا لا ينطبق على المسيح لأنه قال هو ملك ومنصور والمسيح لم يكن ملكاً في يوم من الأيام ولا انتصر على أعدائه وإنما هو بالعكس كما تذكر الأناجيل أُخذ وأُهين ووضع عليه إكليلٌ من الشوك وسُحب وبُصق عليه، فكيف ينطبق عليه هذا النص؟

جاء في إنجيل متى الإصحاح السابع والعشرين:

«٢٧ فأخذ عسكر الوالي يسوع إلى دار الولاية وجمعوا عليه كل الكتيبة، ٢٨ فعرّوه وألبسوه رداء قرمزياً، ٢٩ وضفروا إكليلاً من شوك ووضعوه على رأسه وقصبة في يمينه وكانوا يجثون قدامه ويستهزئون به قائلين: السلام يا ملك اليهود. ٣٠ وبصقوا عليه وأخذوا القصبة وضربوه على رأسه. ٣١ وبعدما استهزؤوا به نزعوا عنه الرداء وألبسوه ثيابه ومضوا به للصلب».

وانظر إنجيل مرقس ١٥: ١٦-٢٠.

«وبعد ذلك كله فمن هو الملك الذي جاء إلى أورشليم ودخلها منصوراً وكان عادلاً ومتواضعاً وراكباً على جحش ابن أتان؟ وهل بدخولِ المسيح ابن أرشليم على الوجه الذي ذكرته الأناجيل تكون النبوة قد تحققت؟

والجواب أن النبوة لا تتحقق إلا بوجود رجل له صفة الإمرةِ قد قهر أعداءه ودانوا له بالطاعة. وعلى إثر ذلك أتى إلى أورشليم بهيئة المتواضع راكباً حماراً لا كالملوك الجبارين.

والمسيح لم يدخل أورشليم على هذا الوجه...

وأما الشخص الذي تحققت به هذه النبوة بالفعل فهو «عمر بن الخطاب» رضي الله عنه إذ خرج من المدينة راكباً على حمار حتى وصل إلى معسكر الإسلام بالجابية فخرج إليه أهل أورشليم وعقدوا معه صلحاً وبعد تمام الصلح دخل إلى أورشليم راكباً حماره الذي أتى عليه من المدينة وهو صاحب الأمر والنهي في صهيون وأورشليم... وأما وداعة عمر وعدله وتواضعه فهو مضرب المثل إلى اليوم، وبدخوله تحققت نبوة زكريا عليه السلام.

جاء في الطبري في أنباء سنة ١٥ هجرية بصفحة ١٥٨ من الجزء السابع ما نصه: «وجميع ما خرج عمر إلى الشام أربع مرات فأما الأولى فعلى فرس، وأما الثانية فعلى بعير، وأما الثالثة فقصر عنها أن الطاعون مستعر. وأما الرابعة فدخلها على حمار فاستخلف عايها وخرج.

ومعلوم أن عمر لم يكن يدري ما قاله زكرياء ولا عِلْمَ له به»[1].

ومما يشهد بالتناقض والتحريف ما جاء في الأناجيل عن قيام المسيح من القبر فإنها تختلف في رواية ذلك اختلافا كبيراً.

جاء في إنجيل متى الإصحاح الثامن والعشرين:

«١ وبعد السبت عند فجر أول الأسبوع جاءت مريم المجدلية ومريم الأخرى لتنظرا القبر ٢ وإذا زلزلةٌ عظيمة حدثت لأن ملاك الرب نزل من السماء وجاء ودحرج الحجر عن الباب وجلس عليه».

وجاء في مرقس ١٦:

«وبعدما مضى السبت اشترت مريم المجدلية ومريم أم يعقوب وسالومة حنوطاً ليأتين ويَدْهنه ٢ وباكراً جداً في أول الأسبوع أَتَيْنَ إلى القبر إذ طلعت الشمس. ٣ وكن يقلن فيما بينهن مَنْ يُدحرج لنا الحجر عن باب القبر؟ ٤ فتطلعن ورأين أن الحجر قد دُحرج لأنه كان عظيماً جداً. ٥ ولما دخلن القبر رأين شاباً جالساً عن اليمين...».

وجاء في لوقا ٢٣:

«٥٥ وتبعته نساء كُنَّ قد أتين معه من الجليل ونظرن القبر وكيف وضع جسده. ٥٦ فرجعن وأعددن حنوطاً وأطياباً. وفي السبت استرحن حسب الوصية.

الإصحاح الرابع والعشرين:

«١ ثم في أول الأسبوع أول الفجر أتين إلى القبر حاملات الحنوط الذي أعددته ومعهن أناس ٢ فوجدن الحجر مدحرجاً عن القبر ٣ فدخلن ولم يَجِدْنَ جسدَ الرب

---

(١) قصص الأنبياء ٤٦٥.

يسوع ٤ وفيما هن محتارات في ذلك إذا رجلان وقفا بهن بثياب براقة... ١٠ وكانت مريم المجدلية ويونا ومريم أم يعقوب والباقيات معهن اللواتي قلن هذا للرسل».

وجاء في يوحنا ٢٠:

«١ وفي أول الأسبوع جاءت مريم المجدلية إلى القبر باكراً والظلام باقٍ فنظرت الحجر مرفوعاً عن القبر ٢ فركضت وجاءت إلى سمعان بطرس وإلى التلميذ الآخر الذي كان يسوع يحبه وقالت لهما أخذوا السيد من القبر ولسنا نعلم أين وضعوه... ١١ أما مريم فكانت واقفة عند القبر خارجاً تبكي. وفيما هي تبكي انحنت إلى القبر ١٢ فنظرت ملاكين بثياب بيض جالسين واحداً عند الرأس والآخر عند الرجلين حيث كان جسد يسوع موضوعاً... ١٧ قال لها يسوع لا تلمسيني لأني لم أصعد بعد إلى أبي. ولكن اذهبي إلى إخوتي وقولي لهم إني أصعد إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم».

فأنت ترى كم من الفروق بين هذه النصوص، ومن تلك الفروق:

١- في إنجيل متى: امرأتان ذهبتا إلى القبر هما مريم المجدلية والأخرى. وفي (مرقس) ثلاث نسوة معلومات. وفي (لوقا) نساء غير معلومات العدد ولا الأسماء أتين معه من الجليل مع مريم المجدلية ويونا وأم يعقوب، وفي (يوحنا) مريم المجدلية وحدها.

٢- في (متى) إن زمن الذهاب إلى القبر كان فجر أول الأسبوع. وفي (لوقا) أول الفجر. وفي (مرقس) إن زمن الذهاب إلى القبر كان فجر أول الأسبوع. وفي (لوقا) أول الفجر. وفي (مرقس) عند طلوع الفجر، وفي (يوحنا) إن الظلام باق.

٣- في (متى) إن الحجر لم يكن مدحرجاً وبحضورهما تمت الزلزلة وجاء ملاك الرب ودحرج الحجر، وفي (مرقس) و(لوقا) و(يوحنا) إن الحجر كان مدحرجاً.

٤- في (متى) إن ملاك الرب نزل ودحرج الحجر وجلس عليه ولم يذكر أن أحداً دخل إلى القبر وفي (لوقا) و(يوحنا) أنهما رأتا ملاكين لا واحداً.

٥- في (لوقا) إنهن دخلن ولم يجدن جسد يسوع وفي (يوحنا) إن مريم دخلت ووجدت جسد يسوع وكلمها.

إلى غير ذلك من الفروق.

وهذا مما يقطع بالتحريف.

ومما يقطع بالتحريف ما جاء في الأناجيل أن المسيح أخبر بأنه سيبقى في قلب الأرض ثلاثة أيام وثلاث ليال بعد موته مع أن الأناجيل الأربعة مجمعة أنه دفن قرب مغيب الشمس يوم الجمعة وقام أول الأحد فلم يبق إلا ليلة السبت ويوم السبت وليلة الأحد.

ومعنى هذا إما أن يكون المسيح كاذباً أو يكون الرواة كاذبين ولا مفرَّ من أحدهما.

جاء في إنجيل (متى) ١٢ (٤٠ لأنه كما كان يونان في بطن الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليال هكذا يكون ابن الإنسان في قلب الأرض ثلاثة أيام وثلاث ليال).

وانظر مرقس ٨: ٣١، ٩: ٣١، ١٠: ٣٤، لوقا ٩: ٢٢، ١٨: ٣٢، ٣٣.

قال الإمام ابن حزم: «وهذه كذبةٌ شنيعة لا حيلةَ فيها لأنهم مُجْمِعون وفي جميع أناجيلهم أنه دفن قرب مغيب الشمس من يوم الجمعة مع دخول ليلة السبت وقام من القبر قبل الفجر من ليلة الأحد فلم يبق في جوف الأرض إلا ليلة وبعض أخرى ويوماً يسيراً من يوم ثانٍ فقط، وهذه كذبةٌ لا خفاء بها فيما أخبر به المسيح لا بد منها أو كذب أصحاب الأناجيل وهم أهل الكذب»[1].

ومما يدل على التحريف والكذب ما جاء في لوقا ١:

«٣١ وها أنتِ ستحبلين وتلدين ابناً وتسميه يسوع. ٣٢ هذا يكون عظيماً وابنَ العليِّ يُدعى ويعطيه الرب الإله كرسي داود أبيه ٣٣ ويملك على بيت يعقوب إلى الأبد ولا يكون لملكه نهاية».

وهذا قول الملاك لمريم:

«أما قول لوقا («وابن العلي يدعى» وكذا قوله (المولود منك يدعى ابن الله) (إصحاح

---

(١) الفصل في الملل ٢/٤٣-٤٤، وانظر ٢/٤٨-٤٩، الفارق ٢٦١-٢٦٢، إظهار الحق ٢/١٥٣، الرحلة المدرسية ٧٦.

١ ف٣٥) وقوله (يعطيه الإله كرسي داود أبيه) فإن هذه العبارات تَفرَّدَ بها لوقا ولم يذكرها أحدٌ من كُتَّابِ الأناجيل سواه»[١].

ثم متى تم هذا؟ متى ملك يسوع بيت يعقوب؟ إنه أُهين وبُصق عليه وصُلب كما تقول الأناجيل فكيف يتفق مع هذا القول؟ ثم يقول النص: إنه ليس لملكه نهاية على بيت يعقوب بل يملكه إلى الأبد، وهذا منقوضٌ بفتح المسلمين لبيت المقدس منذ زهاء ألف وأربعمائة عام فكيف يتفق هذا مع هذه البشارة؟

إضافة إلى هذا أن المسيح هو ابن يهوياقيم بن يوشيّا بحسب النسب المندرج في إنجيل (متى) - الإصحاح الأول: ومَنْ كان من أولاد يهوياقيم لا يصلح أن يجلس على كرسي داود كما جاء في (أرميا) الإصحاح السادس والثلاثين.

وذلك أن يهوياقيم بن يوشيّا ملك يهوذا لما أحرق الصحيفة التي كتبها باروخ من فم أرميا نزل الوحي إلى أرميا هكذا:

«٣٠ لذلك هكذا قال الرب عن يهوياقيم ملك يهوذا: لا يكون له جالس على كرسي داود وتكون جثته مطروحة للحر نهاراً وللبرد ليلاً وأعاقبه ونسله وعبيده على إثمهم».

وفي نسخة أخرى: «إنه لا يكون منه جالس على كرسي داود»[٢].

وعلى هذا فالمسيح لا تنطبقُ عليه بشاراتُ الجلوس على كرسي داود كما أنه لم يحصل ذاك فتبين كذبُ هذا النص.

وأظنك الآن عرفت سبب حذف (يهوياقيم) من نسب المسيح في إنجيل (متى) الذي ذكرناه في أول هذا البحث وذلك لإيهام القارىء أن نص أرميا لا ينطبق عليه.

جاء في (إظهار الحق): «ظني أن بعض القسيسين المسيحية من أهل الدين والديانة، أسقط لفظ (يواقيم) قصداً لئلا يراد أن المسيح إذا كان من أولاد (يواقيم) لا يكون قابلاً لأن يجلس على كرسي داود فلا يكون مسيحاً»[٣].

---

(١) قصص الأنبياء ٣٧٧.

(٢) إظهار الحق ١/١٠٢، الفارق ٣٢٩.

(٣) إظهار الحق ١/١٤٤.

ومما يدل على الكذب ما جاء في (متى ٢): «٢٣ أتى وسكن في مدينة تدعى ناصرة لكي يتم ما قيل بالأنبياء إنه سيدعى ناصرياً».

وهذا كذبٌ فإن الأناجيل الثلاثة لم تنقل مثل هذا النص ولم يوجد لهذا النص أساس في سائر كتب الأنبياء لا صراحة ولا إشارة واليهود ينكرون ذلك أشد الإنكار[١]. وهو إما أن يكون مزيداً في الإنجيل أو محذوفاً من العهد القديم وكلاهما يدل على التحريف بالزيادة أو بالنقص فليختاروا أهونَ الشرين.

مما مضى تبين بما لا يُشَكُّ فيه تحريفُ الأناجيل.

٢- تَصرُّفُ المترجمين حسب أهوائهم: وهذا مما زاد الطين بلة فإنهم لم يكتفوا بالتحريف فأضافوا إلى ذلك سوء الترجمة والتصرف فيها بحسب أهواء المترجم. من ذلك على سبيل المثال ما جاء في الآية الرابعة عشرة من الباب الحادي عشر من إنجيل متى في الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١١ وسنة ١٨٤٤ هكذا (فإن أردتم أن تقبلوه فهذا هو إيلياء المزمع أن يأتي) وفي الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١٦ (فإن أردتم أن تقبلوه فهذا هو المزمع بالإتيان) فالمترجم الأخير بدَّل لفظ (إيلياء) بهذا، فأمثال هؤلاء لو بدلوا اسماً من أسماء النبي ﷺ في البشارة فلا عجب.

وفي الآية الأولى من الباب الرابع من إنجيل يوحنا في الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١١ وسنة ١٨٣١ وسنة ١٨٤٤ هكذا «لما علم يسوع» وفي الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١٦ وسنة ١٨٦٠ (لما علم الرب) فبدَّلَ المترجمان الأخيران لفظ يسوع الذي كان علم عيسى عليه السلام بالرب الذي هو من الألفاظ التعظيمية. فلو بدلوا اسماً من أسماء النبي ﷺ بالألفاظ التحقيرية لأجل عادتهم وعنادهم فلا عجب...

وفي الآية الثانية من الباب الخامس من إنجيل يوحنا في حق البركة في الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٤٤ (تسمى بالعبرانية بيت صيدا). وفي الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٦٠ (يقال لها بيت حسدا) وفي الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١١ (يسمى بالعبرانية بيت حصدا أي: بيت الرحمة). فالاختلاف بين صيدا وحسدا وحصدا وإن كان ثمرة من ثمرات تصحيحهم الكتب السماوية لكني أقطع النظر عنه وأقول: المترجم

---

(١) الفارق ١٢.

الأخير زاد التفسير من جانب نفسه في الكلام الذي هو كلام الله في زعمه. فلو زادوا شيئاً بطريق التفسير من جانب أنفسهم في البشارات المحمدية فلا بعد منهم»[1].

وحسبنا هذا فإن فيه الكفاية إذ قد تبين لنا بصورة قاطعة تحريف العهد القديم بما فيه التوراة كما تبين تحريفُ الإنجيل، وصدقَ قولُ الله فيهم ﴿ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴾ [النساء]، وقوله: ﴿ ۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [البقرة].

(١) إظهار الحق ٢/ ٢٣٢-٢٣٥.

بشارَات الكتب السماوية[1]

ذكرنا أن محمداً ﷺ أعلن أن أهل الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وأن كتبهم ذكرت اسمه ونعته وأوضحت ذلك إيضاحاً كاملاً.

وتُظهر لنا كتب الدلائل والكتب التي جادلت أهل الكتاب أن اسم محمد كان مذكوراً بصراحة في كتب أهل الكتاب إلى عصر متأخر.

فقد نقل ابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦هـ والماوردي المتوفى سنة ٤٥٠هـ والفخر الرازي المتوفى سنة ٦٠٦هـ والقرافي المتوفى سنة ٦٨٤هـ وابن تيمية المتوفى سنة ٧٢٨هـ وابن قيم الجوزية المتوفى سنة ٧٥١هـ وغيرهم نصوصاً كثيرة من كتب أهل الكتاب في عصرهم فيها صريحُ اسم (محمد) وجادلوهم بها. ولكن بمرور الزمن بدأوا يُخْفُونَ ذلك ويَمحونَهُ من كتبهم حتى لم يُبقوا له اسماً وذلك من عادتهم كما رأينا.

قال ابن تيمية المتوفى سنة ٧٢٨هـ «قد رأيت أنا من نسخ الزبور ما فيه تصريح بنبوة محمد ﷺ باسمه ورأيت نسخة أخرى بالزبور فلم أر ذلك فيها وحينئذ فلا يمتنع أن يكون فيها بعض النسخ من صفات النبي ﷺ ما ليس في أخرى»[2].

ونقل ابن تيمية نصاً من سفر دانيال في نعت النبي ﷺ قال: «وقال دانيال النبي أيضاً: فلا يزال ملعونين (بني إسرائيل) عليهم الذلة والمسكنة حتى أبعث نبيَّ بني إسماعيل الذي بشَّرت به هاجر وأرسلت إليها ملاكي وبشرها، وأُوحي إلى ذلك النبي وأعلمه الأسماء وأزينه بالتقوى وأجعل البر شعاره والتقوى ضميره... أُسري به إليّ وأُرقيه من سماء إلى سماء حتى يعلو فأُدنيه وأسلم عليه وأوحي إليه ثم أرده إلى عبادي بالسرور والغبطة... فيدعو قومه إلى توحيدي وعبادتي ويخبرهم بما رأى من آياتي

---

(١) النصوص التي أخذناها من الكتاب المقدس هي من الطبعة الرابعة في بريطانيا بمطبعة كامبردج سنة ١٩٥٢؛ إلا إذا أشرنا إلى نسخة أخرى.

(٢) الجواب الصحيح ٢/٢٧.

فيكذبونه ويؤذونه ثم سرد دانيال قصة رسول الله ﷺ بما أملاه عليه الملك حتى أوصل آخر أيام أمته النفخة وانقضاء الدنيا.

وهذه البشارة الآن عند اليهود والنصارى يقرأونها ويقولون: لم يظهر صاحبها بعد»[(١)].

ومن النصوص التي ورد فيها اسم الرسول صراحة في سفر أشعيا: «أنا سمعنا في أطراف الجبال صوت محمد» فصرح باسمه عليه السلام ومكانه تصريحاً لا يحتمل التأويل»[(٢)].

وقال دانيال عليه السلام: «ستنزع في قسيّك إغراقاً وترتوي السهام بأمرك يا محمد ارتواء».

ونقل هذا النص الفخر الرازي والإمام القرافي وشيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم[(٣)] «وقال أشعيا عليه السلام في نبوته معلناً باسمه عليه السلام: إني جعلت اسمك محمداً يا محمد يا قدوس اسمك موجود من الأبد»[(٤)].

وقال إشعيا: «قال إبراهيم خليل الله الذي قويته ودعوته من أقاصي الأرض لا يخاف ولا يرهب... وأنت تبتهج وترتاح ويكون محمداً».

«فصرح عليه السلام باسمه... ولا يكاد إشعيا عليه السلام يهمل ذكر اسمه كأنه عليه ضربةُ لازبٍ وحتمٌ واجب»[(٥)].

«وقال إشعيا عليه السلام مخاطباً للناس عن محمد عليه السلام في نبواته: افهمي أيتها الأمم أن الرب أهاب من بعيد وذكر اسمي وأنا في الرحم وجعل لساني كالسيف

---

(١) الجواب الصحيح ٤/٤-٥.

(٢) الأجوبة الفاخرة للإمام القرافي ٢٥٥، وانظر الجواب الصحيح ٣/٣٣٠، هداية الحيارى بهامش ذيل الفارق ص٦.

(٣) تفسير الرازي ٣/٣٧، الأجوبة الفاخرة ٢٥٩، الجواب الصحيح ٤/٣، هداية الحيارى بهامش ذيل الفارق ص٨.

(٤) الأجوبة الفاخرة ٢٥٤، الجواب الصحيح ٣/٣٢٦، هداية الحيارى ٤٠٣.

(٥) الأجوبة الفاخرة ٢٥٤.

الصارم وأنا في البطن وخاضني بظل يمينه وجعلني كالسهم المختار من كنانته وحزنني لمسرة وقال لي: أنت عبدي فصرفي عدلي حق قدام الرب وأعمالي بين يدي إلهي فصرت محمداً عبد الرب وبإلهي حولي وقوّتي»[١].

وهذا النص مذكور في سفر إشعيا الآن في الإصحاح التاسع والأربعين إلا أنه حذف منه اسم الرسول. جاء فيه: «اسمعي لي أيتها الجزائر واصغوا أيها الأمم من بعيد: الرب من البطن دعاني، من أحشاء أمي ذكر اسمي، وجعل فمي كسيف حاد في ظل يده خبأني وجعلني سهماً مبرياً في كنانته أخفاني. وقال لي أنت عبدي إسرائيل الذي به أتمجد».

وهذا شأنهم وديدنهم.

وقال إشعيا: «لتفرح البادية العطشى وتبتهج البراري والفلوات ولتزهو فإنه ستعطى بأحمد مجلس لبنان... وسيرون جلال الله إلهنا».

وقد نقل هذا النص من كتبهم الماوردي والقرافي وابن القيم[٢].

وانظر هذا النص في سفر إشعيا في الإصحاح الخامس والثلاثين وقد حذف منه اسم الرسول.

«وقال داود عليه السلام في مزمور له: إن ربنا عظيم محمود جداً وفي قرية إلهنا قدوس ومحمد قد عَمَّ الأرض كلها فرحاً».

«فنص على اسم محمد وبلده وسماها قرية الله تعالى وأخبر أن كلمته تعم أهل الأرض وكان ذلك»...[٣].

وهذا النص مذكور في المزمور الثامن والأربعين من مزامير داود وقد حذف منه اسم الرسول.

إلى غير ذلك من النصوص الكثيرة التي أوردها المُستدِلُّون.

---

(١) الأجوبة الفاخرة ٢٥٠.

(٢) أعلام النبوة ٩٢، الأجوبة الفاخرة ٢٥٣، هداية الحيارى بهامش ذيل الفارق ١٣.

(٣) الأجوبة الفاخرة ٢٤٦، وانظر الجواب الصحيح ٣/٣١٩، هداية الحيارى ٣٩٩-٤٠٠.

والذي يبدو أن اسم الرسول ﷺ كان في بعض النسخ إلى عصر متأخر جداً «قال الفاضل حيدر علي القرشي في كتابه المسمى خلاصة سيف المسلمين الذي هو في لسان الأوردو، أي: الهندي في الصحيفة الثالثة والستين أن القسيس أوسكان الأرمني ترجم كتاب إشعيا باللسان الأرمني في سنة ألف وستمائة وست وستين وطبعت في سنة ١٧٣٣ وفيه في الباب الثاني والأربعين هذه الفقرة ونصها:

«١١ سبحوا الله تسبيحاً جديداً وأثر سلطنته على ظهره واسمه أحمد». انتهت. وهذه الترجمة موجودة عند الأرمن فانظروا فيها. انتهى كلامه»[١].

(١) الجواب الفسيح ٩٧.

طائفة من بشارات أهل الكِتاب

البشارة الأولى

جاء في (سفر التكوين) في الإصحاح الحادي والعشرين:

«١٧ ونادى ملاك الله هاجر من السماء وقال لها: ما لك يا هاجر؟ لا تخافي لأن الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو. ١٨ قومي احملي الغلام وشدي يدك به لأني سأجعله أمة عظيمة... ٢٠ وكان الله مع الغلام فكبر وسكن في البرية وكان ينمو رامي قوس. ٢١ وسكن في برية (فاران). وأخذت له أمه زوجة من أرض مصر».

والغلام المذكور هو إسماعيل عليه السلام كما جاء في (سفر التكوين) في الإصحاح السادس عشر:

«١٥ فولدت هاجر لإبرام ابناً ودعا إبرام اسم ابنه الذي ولدته هاجر إسماعيل» وإبراهم هو إبراهيم عليه السلام كما جاء في (سفر التكوين) في الإصحاح السابع عشر: «٥ فلا يدعى اسمك بعد (إبرام) بل يكون اسمك (إبراهيم)».

وإسماعيل عليه السلام هو أبو سيدنا محمد وأبو العرب فسمى أمة محمد أمة عظيمة وجاء في (سفر التكوين) في الإصحاح السابع عشر:

«٢٠ وأما إسماعيل فقد سمعتُ لك منه ها أنا أباركه وأكثره كثيراً جداً».

والنص العبري لهذه العبارة هو:

«هِنّي بيرَخْتيي اوتُو وهِفْرِيتي اوتُو وهِربيتي اوتُو بماد ماد» بإمالة (بماد ماد) إلى واو.

ومن عادة العبرانيين الاعتماد في الوقائع والأسماء على قيمة حروف الكلمة من جهة الحساب فلو حسبنا لفظ (بماد ماد) بالجمل لكانت جمل (محمد) بلا زيادة ولا نقصان

٩٢ وهو من أبناء إسماعيل الموعود بالبركة والإثمار في إنباته»[١].

وجاء في (هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى) لابن القيم «وفي بعض نسخ التوراة القديمة ما ترجمته بالعربية.. وأما في إسماعيل فقد قبلتُ دعاك قد باركت فيه وأثمره وأكثره بماد ماد»... وقد اختلف علماء أهل الكتاب فطائفة يقولون معناه: جداً جداً أي كثيراً كثيراً... وقالت طائفة أخرى بل هي صريحُ اسم محمد قالوا: ويدل عليه أن ألفاظ العبرانية قريبة من ألفاظ العربية فهي أقرب اللغات إلى العربية فإنهم يقولون لإسماعيل شماعيل ولموسى موشى وقدسك قدشخا.

وتأمل في قوله في التوراة: «نابي أقيم لاهيم مقارب آخهم كاموخاء الأؤه يشماعون» وأن معناه: نبياً أقيم لهم من وسط إخوتهم مثلك له يسمعون. ونظائر ذلك أكثر من أن يذكر فإذا أخذت لفظ (مؤدمؤد) وجدتها أقرب شيء إلى لفظ (محمد) وإذا أردت تحقيق ذلك فطابق بين ألفاظ العبرانية والعربية... ويدل على ذلك أداة الباء في قوله (بمؤد مؤد) ولا يقال عظمه بجداً جداً بخلاف أعظمه بمحمد»[٢].

وقال: «وقد قال لي ولغيري بعض من أسلم من علمائهم أن (مئذ مئذ) هو محمد وهو بكسر الميم والهمزة وبعضهم بفتح الميم ويُدنيها من الضمة.

قال: ولا يشك العلماء منهم بأنه محمد»[٣].

والإمام ابن القيم - فيما أرى - مصيب في أن معنى (بماد ماد) (بمحمد) أي: (وأثمره وأكثره بمحمد) فإن الباء تمنع ما ذكره المترجمون فإنه لا يقال: عظمه بجداً جداً وإنما يقال: عظمه جداً جداً بخلاف: أعظمه بمحمد.

و(ماد ماد) أقرب شيء إلى اسم (محمد).

(١) قصص الأنبياء ٢٩٣.

(٢) هداية الحيارى ٣٧٨-٣٧٩، وانظر الجواب الفسيح ٨٥.

(٣) هداية الحيارى بهامش ذيل الفارق ص٥.

البشارة الثانية

جاء في سفر (التثنية) في الإصحاح الثاني عشر:

«١٨ أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك وأجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به. ١٩ ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطالبه. ٢٠ وأما النبي الذي يطغى فيتكلم باسمي كلاماً لم أُوصِه أن يتكلم به أو يتكلم باسم آلهةٍ أخرى فيموت ذلك النبي. ٢١ وإن قلت في قلبك كيف نعرف الكلام الذي لم يتكلم به الرب؟ فما تكلم به النبي باسم الرب ولم يحدث ولم يصر فهو الكلامُ الذي لم يتكلم به الرب بل بطغيان تكلم به النبي فلا تَخفْ منه».

☆ ☆ ☆

في هذا النص أمارات توضح هذا النبي المبشر به فقد جاء فيه:

١- قوله: (أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم) أي: ليس من بني إسرائيل لأنه لو كان من بني إسرائيل لقال (منهم) لا من إخوتهم كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران].

وإخوة بني إسرائيل هم العرب لأن بني إسرائيل هم أولاد إسحاق بن إبراهيم والعرب أولاد إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام. فهو قال: من وسط إخوتهم، أي: من أبناء إسماعيل.

ثم قوله: (من وسط إخوتهم) ينطبق على الرسول لأنه من أوسط العرب، أي من أحسنهم نسباً كما قال المغيرة بن شعبة للمقوقس حين سأله: كيف نسبهُ في قومه؟

فقال: هو أوسطهم نسباً[(١)].

٢- قوله: (مثلك) أي صاحب شريعة مثل موسى، ولم يقم في بني إسرائيل نبي مثل

---

(١) الجواب الصحيح ١/٩٩.

موسى كما جاء في (سفر التثنية) في الإصحاح الرابع والثلاثين: «١٠ - ولم يقم بعد ذلك من بني إسرائيل مثل موسى».

٣- قوله (أجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به) أي يكون أمياً يقرأ كتاب الله قراءة في فمه لا من الصحف، ولا ينزل عليه ألواحاً كما أنزل التوراة على موسى فإنها نزلت مكتوبة في الألواح كما جاء في (التوراة) (سفر الخروج) في الإصحاح الحادي والثلاثين:

«١٨ ثم أعطى موسى عند فراغه من الكلام معه في جبل سيناء لوحي حجر مكتوبين بأصبع الله».

وكما جاء في القرآن: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴿١٤٥﴾ ﴾ [الأعراف].

وهذا النص مصداق قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [الأعراف].

٤- قوله (ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطالبه). ومعنى (أطالبه): أنتقم منه. وقد ورد في ترجمة أخرى (أنا أنتقم منه) وهو كذلك في الترجمات القديمة (انظر الأجوبة الفاخرة ص٢٧٣).

وهذه علامة من علامات صدق الرسول محمد فقد انتقم الله من الذين حاربوا رسول الله ولم يسمعوا لكلام الله الذي تكلم به من المشركين ومن اليهود والنصارى فتحققت هذه النبوءة.

٥- قوله (وأما النبي الذي يطغى فيتكلم باسمي كلاماً لم أُوصِه أنْ يتكلم به أو الذي يتكلم باسم آلهة أخرى فيموت ذلك النبي).

ومعنى (فيموت ذلك النبي) يقتل وإلا فالموتُ لا مَفرَّ منه وهو النص الأصلي للعبارة: «فأما النبي الذي يجترىء بالكبرياء ويتكلم في اسمي ما لم آمره بأنه يقول أم باسم آلهة أخرى فليقتل»[١].

---

(١) إظهار الحق ٢/٢٣٩، الجواب الفسيح ٧٥.

وقد بدلها النصارى إلى (يموت) لسبب سنذكره.

وهذه آية من آيات صدق محمد فإن محمداً لم يقتل على كثرة المحاولات وهذه الفقرة مصداق قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الحاقة].

جاء في (إظهار الحق): «أنه صرح في هذه البشارة بأن النبي الذي ينسب إلى الله ما لم يأمره يقتل فلو لم يكن محمد ﷺ نبياً حقاً لكان يقتل. وقد قال الله في القرآن المجيد أيضاً ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ وما قتل بل قال الله في حقه ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴿٦٧﴾﴾ [المائدة] وأوفى بوعده»[١].

ثم ذكر أن علامة النبي الكاذب أن يذكر أموراً فلا تحدث ولا تتحقق، ورسول الله - كما أسلفنا - كان يخبر بالأمور فتقع كما هي كما قال حسان:

وإنْ قال في يوم مقالةَ غائب فتصديقُها في اليوم أو في ضُحى الغدِ

ويزعم أحبار اليهود الآن أن هذه البشارة في يوشع بن نون فتى موسى وهذا لا يصح لأمور:

١- يوشع من بني إسرائيل لا من إخوتهم.

٢- ليس يوشع ذا شريعة مثل موسى بل هو مُتَّبعٌ لموسى.

٣- إن قوله «(أجعل كلامي في فمه) إشارة أن ذلك المبشر به نبيٌّ ينزل عليه كتابٌ وإلى كونه أمياً حافظاً للكلام واعياً له في صدره ضابطاً له في قلبه لا بواسطة لوح وأقلام وهذا لا يصدق على يوشع لانتفاء كلا الأمرين فيه عليه السلام»[٢].

٤- جاء في (سفر التثنية) أنه لم يقم نبي من بني إسرائيل مثل موسى.

٥- وقع في هذه البشارة لفظ (سوف أقيم) كما جاء في (سفر الأعمال) الباب السابع الفقرة ٣٧ ويوشع عليه السلام كان حاضراً عند موسى داخلاً في بني إسرائيل نبياً في

---

(١) إظهار الحق ٢/ ٢٤٤-٢٤٥.

(٢) الجواب الفسيح ٧٦.

هذا الوقت[1].

فلا ينطبق عليه هذا النص.

ويزعم النصارى أن هذه بشارة بعيسى عليه السلام وهو مردود بأمورٍ منها:

١- إن عيسى من بني إسرائيل لا من إخوتهم.

٢- يزعم النصارى أن عيسى إله وليس نبياً وهذه البشارة تخبر عن ظهور نبي، كما جاء فيها (أقيم لهم نبياً) فلا تنطبق على عيسى. ثم إن موسى وغيره على حد زعم النصارى إنما هم عباد للمسيح فكيف يصح أن يكون (مثل موسى)؟ والبشارة تقول (أقيم لهم نبياً مثلك).

٣- ثم إن هذا لا ينطبق على عيسى لأن عيسى قُتلَ وصلب كما يزعم النصارى[2]. بل لو جارينا النصارى لوجدنا أن عيسى - برّأه الله - إنما قُتل لأنه أخبر بأمورٍ كاذبة وهذه علامةُ النبي الكاذب كما جاء في هذا النص.

فقد أخبر عيسى - كما ذكرنا سابقاً - أنه سيبقى ثلاثة أيام وثلاث ليال في باطن الأرض ولكنه لم يبقَ إلا ليلةَ السبت ويومه وليلة الأحد كما تذكر الأناجيل.

ومن ذلك ما جاء في إنجيل متى في الإصحاح التاسع:

«١٨ وفيما هو يكلمهم بهذا إذا رئيس قد جاء فسجد له قائلاً: إن ابنتي الآن ماتت لكن تعال وضَعْ يدكَ عليها فتحيا. ١٩ فقام يسوع وتبعه هو وتلاميذه... ٢٣ ولما جاء يسوع إلى بيت الرئيس ونظر المزمّرين والجميع يضجّون ٢٤ قال لهم: تنحّوا فإن الصبية لم تمت لكنها نائمة فضحكوا عليه. ٢٥ فلما أخرج الجمع دخل وأمسك بيدها فقامت الصبيّة. ٢٦ فخرج ذلك الخبر إلى تلك الأرض كلها».

وانظر مرقس ٥: ٣٥ - ولوقا ٨: ٤٩ -

فإن الصبية كانت قد ماتت وقال: هي لم تمت لكنها نائمة، وهذا كذب.

---

(١) انظر إظهار الحق ٢/ ٢٣٩-٢٤٥.

(٢) انظر إظهار الحق ٢/ ٢٣٩-٢٤٥.

ولما كان عيسى أخبر بأمور لم تحدث قتل تطبيقاً للبشارة. أفيرغب النصارى في ذلك؟ ولذلك بدلوا في كثير من طبعاتهم عبارة (فيقتل) إلى (فيموت) حتى لا تنطبق على عيسى.

وقد تقول إذا كان عيسى كاذباً فكيف أحدث مثل هذه المعجزة؟

فنقول: إن الإنجيل أجاب عن مثل هذا فقد جاء في إنجيل متى ٢٤: «٢٤ لأنه سيقوم مُسحاء كَذَبة وأنبياء كذبة ويعطون آيات عظيمة وعجائب حتى يضلوا لو أمكن المختارين أيضاً».

وقد يقال: لعل القصد بقول البشارة (فيموت ذلك النبي) أن تعاليمه تموت ولا تنتشر دعوته، فنقول إن دعوة محمد ﷺ طبقت الأرض وعمت العالم كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴿٣٣﴾﴾ [التوبة] فكان هو المقصود.

البشارة الثالثة

جاء في (سفر التثنية) في الإصحاح الثالث والثلاثين:

«٢ جاء الرب من سيناء وأشرق لهم من سعير وتلألأ من جبل فاران وأتى من ربوات القدس وعن يمينه نارُ شريعةٍ لهم».

وفي طبعة رجارد واطس في لندن سنة ١٨٢٢م:

«جاء الرب من سيناء وأشرق لنا من ساعير استعلن من جبل فاران ومعه ألوف الأطهار في يمينه سنة نار».

وبين النصين بعض الاختلاف. ففي طبعة لندن ١٩٥٢ وطبعة بيروت (وأشرق لهم) وفي طبعة الموصل سنة ١٨٧٥ وطبعة رجارد واطس (واشرق لنا).

وفي طبعة لندن سنة ١٨٢٢ عبارة (ومعه ألوف الأطهار) وكذلك في طبعة لندن سنة ١٨٤٨ . وأسقط هذه العبارةَ بعض المترجمين لغرضٍ في نفوسهم.

وهذا النص ينطبق انطباقاً تاماً على سيدنا محمد فقد ذكرت هذه البشارة مواطن الرسالات الثلاث فقد ذكرت (سيناء) وهو الجبل الذي كلم الله تعالى عليه موسى و(ساعير) في أرض الخليل وهو موطن عيسى و(فاران) وهي مكة كما هو معلوم من كتب اللغة وكتب أهل الكتاب (انظر تاج العروس شرح القاموس مادة: فرن).

فذكر النص أن الرب استعلن من جبل فاران أي من جبل مكة وهذا ما حصل فقد نزل الوحي على سيدنا محمد في أعلى جبال فاران وهو جبل حراء الذي فيه غار حراء.

ثم قال: (ومعه ألوف الأطهار) وهذا ينطبق على محمد وصحبه فقد كانوا ألوف الأطهار كما قال تعالى في وصف أصحاب محمد ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [التوبة].

وأسقط بعض المترجمين هذه العبارة ليطمسوا شيئاً من نور البشارة ولكن هيهات.

جاء في (الأجوبة الفاخرة): سينا هو الجبل الذي كلم الله تعالى فيه موسى. وساعير هو جبل الخليل وبالشام وكان المسيح عليه السلام يتعبد فيه ويناجي ربه، وفاران جبل بني هاشم الذي كان محمد عليه السلام يتحنث فيه ويتعبد...

وفاران مكة باتفاق أهل الكتاب»(١).

وقال ابن القيم: «وكان المسيح من ساعير أرض الخليل بقرية تدعى الناصرة... وجبال فاران هي جبال مكة قال [محمد بن قتيبة]: ليس بين المسلمين وأهل الكتاب خلاف في أن فاران هي مكة فإن ادعوا أنها غير مكة... قلنا: أليس في التوراة أنَّ إبراهيم أسكنَ هاجرَ وإسماعيل فاران، وقلنا: دلونا على الموضع الذي استعلن اللهُ منه واسمه فاران...

قال شيخ الإسلام: وعلى هذا فيكون قد ذكر الجبال الثلاثة حراء الذي ليس حول مكة أعلى منه وفيه ابتدىء رسول الله ﷺ بنزول الوحي عليه وحوله جبال كثيرة وذلك المكان يسمى فاران إلى هذا اليوم والبرية التي بين مكة وطور سينا تسمى برية فاران ولا يمكن أحداً أن يدعي أنه بعد المسيح نزل كتابٌ في شيء من تلك الأرض ولا بُعِثَ نبي فعلم أنه ليس المراد باستعلانه من جبال فاران إلا إرسال محمد ﷺ...

وقد علم بالتواتر واتفاق الأمم أن إسماعيل إنما رُبِّيَ بمكة وهو وأبوه إبراهيم بنيا البيت فَعُلِمَ قطعاً أن فاران هي أرض مكة»(٢).

وقال الماوردي: «وإشراقه من ساعير إنزاله الإنجيل على عيسى لأنه كان سكن ساعير أرض الخليل في قرية ناصرة واستعلانه من جبال فاران إنزاله القرآن على محمد ﷺ. وفاران هي جبال مكة في قول الجميع»(٣).

وهذا ما ذكرته التوراة أيضاً فقد جاء في (سفر التكوين) في الإصحاح الحادي والعشرين عن إسماعيل عليه السلام - كما ذكرنا في البشارة الأولى -: «٢١ وسكن في

---

(١) الأجوبة الفاخرة ٢٣٨-٢٣٩.

(٢) هداية الحيارى ٣٨٩-٣٩٢، وانظر الجواب الصحيح لابن تيمية ٣/٣٠٠ وما بعدها، الفصل في الملل لابن حزم ١/٨٨.

(٣) أعلام النبوة ٩١، وانظر الجواب الفسيح ٦١، وانظر ص٧٧، تفسير الرازي ٣/٣٧.

برية فاران وأخذت له أمه زوجة من أرض مصر». ومعلوم أن إسماعيل سكن مكة بالإجماع.

والنص في التوراة السامرية التي صدرت في سنة ١٨٥١ أن إسماعيل «سكن برية فاران بالحجاز وأخذت له أمه امرأة من أرض مصر»[١].

وهذا لا يحتاج إلى إيضاح فهو مجمعٌ عليه وقد بقي اسم فاران يطلق على الجبال المحيطة بمكة إلى القرن الثامن الهجري كما ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية قال: «وذلك يسمى فاران إلى هذا اليوم» وربما كان يطلق إلى فترة طويلة بعد هذا القرن.

وهذا نَصٌّ في موطن الرسالة، ويشبه هذا النص قوله تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣﴾ [الزيتون] فقد ذكر (التين والزيتون) وهما موطن عيسى وكثيراً ما تردد في الإنجيل اسم جبل الزيتون، وذكر طور سينا وهو الجبل الذي كلم الله عليه موسى، وذكر مكة فقال (وهذا البلد الأمين) فجمع مواطن الرسالات الثلاث كما في نص التوراة[٢].

---

(١) مطلع النور ١٨.

(٢) انظر الجواب الصحيح ٣/٣٠٠ وما بعدها.

البشارة الرابعة

جاء في (سفر حبقوق) في الإصحاح الثالث:

«الله جاء من تيمان والقدوس من جبل فاران. جلالهُ غَطَّى السماوات، والأرضُ امتلأت من تسبيحه، وكان لمعانٌ كالنور... قدامه ذهب الوباء وعند رجليه خرجت الحمى. وقف وقاس الأرض. نظر فرجف الأمم ودكت الجبال الدهرية وخسفت آكام القدم. مسالك الأزل له».

وهذا النص فيه شيء من التغيير فقد ذكرت المصادر القديمة هذا النص هكذا:

«إن الله تعالى جاء من التيمن والقدوس من جبل فاران. لقد أضاءت السماء من بهاء محمد وامتلأت الأرض من حمده... قام فمسح على الأرض فتضعضعت له الجبال القديمة... يا محمد ادنو لقد رأتك الجبال فارتاعت...»[١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وقد ذكر فيها مجيء نور الله من التيمن وهي ناحية مكة والحجاز فإن أنبياء بني إسرائيل كانوا يكونون من ناحية الشام ومحمد ﷺ جاء من ناحية اليمن»[٢].

وفي أعلام النبوة للماوردي والتفسير الكبير للفخر الرازي هكذا: «جاء الله من طور سيناء وانكسفت لبهاء محمد وانخسفت من شعاع المحمود[٣].

فقد ذكر في هذه البشارة اسمه وبلده. ويقرأ اليهود والنصارى هذه النصوص ويقولون إن صاحبها لم يظهر بعد.

---

(١) الأجوبة الفاخرة ٢٥٧، وانظر الجواب الصحيح ٣/٣١٣، وهداية الحيارى ٣٩٣، ص٦ بهامش ذيل الفارق.

(٢) الجواب الصحيح ٣/٣٣١.

(٣) أعلام النبوة للماوردي ٩٣، تفسير الرازي ٣/٣٧.

البشارة الخامسة

جاء في (أشعيا) في الإصحاح الحادي والعشرين:

«١٣ وحي من جهة بلاد العرب في الوعر في بلاد العرب تبيتين يا قوافلَ الددانيين «١٤ هاتوا ماء لملاقاة العطشان يا سكان أرض تيماء وافوا الهارب بخبزه «١٥ فإنهم من أمام السيوف قد هربوا. من أمام السيف المسلول ومن أمام القوس المشدودة ومن أمام شدة الحرب.

«١٦ فإنه هكذا قال لي السيّد في مدة سنة كسنة الأجير يفنى كل مجد قيدار وبقية عدد قسي أبطال بني قيدار تَقِلُّ لأن الرب إله إسرائيل قد تكلم».

وفي طبعة الموصل (وحيٌ على العرب).

☆ ☆ ☆

هذا النص فيه دلالة صريحة على نبوة محمد فقد نزل الوحي على محمد في الوعر في بلاد العرب في غار حراء وهو جبل وعر ولم ينزل في السهل.

وقد ذكرت البشارة هجرة محمد ﷺ فقالت: (هاتوا ماء لملاقاة العطشان يا سكان أرض تيماء وافوا الهارب بخبزه) و(تيماء) من أعمال المدينة.

وقوله (فإنهم من أمام السيوف قد هربوا، من أمام السيف المسلول ومن أمام القوس المشدودة ومن أمام شدة (الحرب) ينطبق على محمد ﷺ فقد اجتمع عليه رجال من قريش لقتله ﷺ فأنجاه الله منهم. وقد حاربته قريش حرباً شديدة لا هوادة فيها مدة ثلاثة عشر عاماً.

ثم أشار هذا النص إلى وقعة بدر التي وقعت بعد سنة واحدة من الهجرة وذكر انتصار الرسول فيها قال النص: «فإنه هكذا قال لي السيد في مدة سنة كسنة الأجير يفنى كل مجد قيدار وبقية عدد قسيّ أبطال بني قيدار تقل».

وهذا الذي حصل فإنه بعد سنة كسنة الأجير انتصر الرسول وجبابرة قيدار قد هلكوا.

وفي طبعة ليدن سنة ١٨٤٨م هكذا: «في مدة كسنة الأجير تفنى جبابرة قيدار».

وفي طبعة الموصل سنة ١٨٧٥ وطبعة لندن سنة ١٨٢٢ هكذا: «وبقية عدد أصحاب القسيّ الجبابرة من بني قيدار يتقللون».

وبنو قيدار هم العرب - كما هو معلوم - فإن قيدار هو ابن إسماعيل جاء في (سفر التكوين) في الإصحاح الخامس والعشرين:

«١٢ وهذه مواليد إسماعيل بن إبراهيم الذي ولدته هاجَر المصرية جارية سارة لإبراهيم.

١٣ وهذه أسماءُ بني إسماعيل بأسمائهم حسب مواليدهم: نبايوت بكر إسماعيل وقيدار...».

جاء في (هداية الحيارى): «قيدار جد النبي ﷺ وهو أخو بنايوت بن إسماعيل»[(١)].

وجاء في (الفارق) أن هذا النص «إشارة إلى هجرته عليه الصلاة والسلام من مكة المشرفة إلى المدينة المنورة واستقبالهم له وإضافتهم إياه وقيامهم بخدمته وخص أهالي تيماء لأنهم صالحوا النبي ﷺ، وتيماء هي في وادي القرى من أعمال المدينة كما ذكره ياقوت»[(٢)].

---

(١) هداية الحيارى ٤٠٢.

(٢) الفارق بين المخلوق والخالق ٣٩٨.

البشارة السادسة

جاء في (أشعيا) في الإصحاح الثاني والأربعين:

«١١ لترفع البرية ومدنها صوتها، الديار التي سكنها قيدار. لتترنم سكان سالع. من رؤوس الجبال ليهتفوا. ليعطوا الرب مجداً ويخبروا بتسبيحه في الجزائر».

☆ ☆ ☆

وهذا النص واضح في التبشير بمحمد فقد أشار إلى بلاد العرب وهي الديار التي سكنها قيدار وطلب منها أن تبتهج. ثم ذكر المدينة المنورة فقال: «لتترنم سكان سالع» وسالع هو «سَلع» وهو جبل في باب المدينة كما هو اسمه إلى الآن وهو سالع بالعبرانية.

جاء في (الفارق): «فإن (سالع) هو (سلع) جبل في باب المدينة كما في «مراصد الاطلاع» لياقوت والقاموس وغيرهما من كتب الجغرافيا واللغة. وأما (سالع) بالألف فلم يذكروه والظاهر أن الألف حصلت من إشباع الفتحة في اللغة العبرانية»[١].

وهذا النص صريح في التبشير به ﷺ. فأنت ترى أن الكتب السماوية ذكرت اسمه ونشأته ومكان نزول الوحي وهجرته وخَصَّ المدينةَ بالذكر لأنها دار هجرته ومستقره، فهل هناك من دلالةٍ أوضح من هذه؟

قال ابن سعد في «الطبقات»: «أخبرنا محمد بن عمر قال: حدثني الضحاك بن عثمان عن مخرمة بن سليمان عن كريب عن ابن عباس قال: كانت يهود قريظة والنضير وفدك وخيبر يجدون صفة النبي ﷺ عندهم قبل أن يبعث وأن دار هجرته المدينة»[٢].

فليحذفوا اسمه كما شاؤوا ولكن أليس في النصوص الباقية ما فيه الكفاية؟

---

(١) الفارق ٣٩٢.

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد، المجلد الأول ج١/ ١٠٤.

البشارة السابعة

جاء في (أشعيا) في الإصحاح التاسع:

«٦ يولد لنا ولد ونعطى ابناً وتكون الرياسة على كتفه ويدعى اسمه عجيباً مشيراً إلهاً قديراً أباً أبدياً رئيس السلام.

«٧ لنموِّ رياسته وللسلام لا نهاية على كرسي داود وعلى مملكته ليثبتها ويعضدها بالحق والبر من الآن إلى الأبد».

☆ ☆ ☆

في هذا النص إشارات إلى محمد ﷺ من وجوه:

١- قوله: (وتكون الرياسة على كتفه) ويعني بهذا خاتم النبوة الذي على كتف محمد ﷺ وفي النسخ القديمة (والشامة على كتفه)[(١)]. وهي علامة بدنية جعلها الله في بدنه زيادة في التوضيح إضافة إلى العلامات الأخرى.

جاء في (صحيح البخاري ومسلم) عن السائب بن يزيد قال: «ذهبت بي خالتي إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله إن ابن أختي وجعٌ. فمسح رأسي ودعا لي بالبركة ثم توضأ فشربت من وضوئه ثم قمتُ خلف ظهره فنظرت إلى خاتم النبوة بين كتفيه مثل زر الحجلة».

وأخرج مسلم نحوه في (صحيحه) عن جابر بن سمرة قال: «رأيت خاتماً في ظهر رسول الله ﷺ كأنه بيضة حمام».

وجاء نحوه عن عبد الله بن سرجس.

---

(١) الأجوبة الفاخرة ٢٥٥، الجواب الصحيح ٣/٣٢٧.

قال حسان:

أغـــرّ عليـــه للنبـــوةِ خـــاتـــم   مـــن الله ميمـــونٌ يلـــوحُ ويشهـــدُ

٢- قوله: (ويدعى اسمه عجيباً) أي ليس له نظير فيما عهد بنو إسرائيل من الأسماء، ثم إن اسمه عجيب في قومه وقد عجب قومه من عبد المطلب حين سماه بهذا الاسم.

٣- قوله: (مشيراً إلهاً قديراً) وهذا النص من تحريفات بعض الطبعات النصرانية وهو في طبعة لندن سنة ١٨٢٢ (مشاوراً الله) أي: لا يقول عن نفسه ولا يصدر عن هوى كما قال تعالى في محمد ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣﴾ [النجم].

والغرض من هذا التحريف في بعض الطبعات هو إبعاد البشارة عن محمد ومحاولة تطبيقها على عيسى لأن عيسى بزعمهم إله، وبقية النص تأبى ذلك.

جاء في (إنجيل لوقا) في الإصحاح الأول في بشارة الملاك لمريم:

«٣١ وها أنت ستحبلين وتلدين ابناً تسمينه يسوع. ٣٢ هذا يكون عظيماً وابن العليِّ يُدعى ويعطيه الرب الإله كرسي داود أبيه. ٣٣ ويملك على بيت يعقوب إلى الأبد ولا يكون لملكه نهاية».

وقد ذكرنا هذا النص وفنّدنا تطبيقه على عيسى:

٤- قوله: (أباً أبدياً) أي: لا تُنقض طاعته ولا تُنسخ شريعته إلى الأبد وهذه هي شريعة محمد.

٥- قوله: (رئيس السلام): ورئيس السلام هو الذي يقر السلام ويدعمه وينشره ومحمد كذلك فإن دينَ الإسلام مشتق من لفظ السلام وتحية الإسلام هي (السلام عليكم) والمسلمون ﴿. . وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۝٦٣﴾ [الفرقان]، وقال تعالى: ﴿ ۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۝٦١﴾ [الأنفال].

وهو الذي نشر السلام بين الناس فلم يضطهد أحداً بسبب عقيدته المخالفة للإسلام كما قال تعالى: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۝٢٥٦﴾ [البقرة]، وقال: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۝٦﴾ [التوبة].

وكان نصارى الشام وغيرهم ينعمون ويأمنون في ظل الإسلام ما لم ينعموا في ظل

نصارى الروم ولذلك قالوا للمسلمين: «أنتم أحبُّ إلينا من الروم وإن كانوا على ديننا» فعاشت الفرق المتباينة المتخالفة في ظل أمن وسلام.

وهذا النص لا ينطبق على المسيح فإنه قال: (ما جئت لألقي سلاماً على الأرض بل سيفاً) فلا يكون رئيساً للسلام.

٦- قوله: «لنموِّ رياسته وللسلام لا نهاية على كرسي داود وعلى مملكته ليثبتها ويعضدها بالحق والبر من الآن إلى الأبد».

وهو في طبعة لندن سنة ١٨٢٢ هكذا: «ليكثر سلطانه وسلامه ليس له فناء. على كرسي داود وعلى مملكته يجلس ليقيمها ويعضدها بالإنصاف والعدل منذ الآن وإلى الأبد».

أي تكون القدس جزءاً من مملكته وهو يقيمها ويعضدها بالإنصاف والعدل وهو كذلك فإن القدس وفلسطين أصبحت جزءاً من دار الإسلام وأقامها وعضدها بالإنصاف والعدل وستكون كذلك إلى الأبد. وأما ما تراه من سيطرة اليهود فهي سيطرة مؤقتة كسيطرة الصليبيين وسنرى مصداق قول الرسول فيهم إن المسلمين سيقاتلون اليهود حتى يقولَ الحجرُ والشجر يا عبد الله يا مسلم هذا يهودي خلفي تعال فاقتله.

البشارة الثامنة

جاء في (أشعيا) في الإصحاح الثاني والأربعين:

«هوذا عبدي الذي أعضده مختاري الذي سُرّت به نفسي. وضعتُ روحي عليه فيُخرج الحق للأمم. ٢ لا يصيح ولا يرفع ولا يسمع في الشارع صوته. قصبةً مرضوضةً لا يقصفُ وفتيلةً خامدة لا يُطفىء. يُخرج الحق لا يكل ولا ينكسر حتى يضع الحق في الأرض وتنتظر الجزائر شريعته».

وهذه صفات رسول الله محمد فقد وضع الله روحه عليه كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى].

وكان ﷺ لا يصيح ولا يرفع صوته فما كان ﷺ صخاباً ولا فاحشاً ولا يسمع في الشارع صوته وقد ذم القرآن الذين يرفعون أصواتهم فقال: ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ [لقمان].

وكان ﷺ متواضعاً لا يقصف قصبة مرضوضة وقد شبه الرسول المؤمن بالنحلة التي إذا وقعت على عود نَخِرٍ لم تكسره، قال ﷺ: «مثل المؤمن مثل النحلة إذا أكلت طيباً وإذا وضعت وضعت طيباً وإذا وقعت على عود نخر لم تكسره».

وإنه ﷺ جاهد لم يَكلَّ ولم ينكسر حتى وضع الحق في الأرض. ثم قال: (وتنتظر الجزائر شريعته) أي أن دعوته للعالم أجمع ليست خاصة بالعرب، وقد حصل ذاك فقد نشر المسلمون شريعة الإسلام في العالم أجمع.

وإكمال هذا النص من طبعة لندن سنة ١٨٤٨: «أنا الرب قد دعوتك بالبر فأمسكُ بيدك وأحفظك وأجعلك عهداً للشعب ونوراً للأمم...» فإن الله تعهد بحفظه بقوله «فأمسك بيدك وأحفظك» وهو مثل قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ ﴿٦٧﴾﴾ [المائدة]

وكان كما وعد[١].

وأما قوله (وأجعلك عهداً للشعب ونوراً للأمم) فهو كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ۝٤٦﴾ [الأحزاب].

وفي النسخ القديمة (مشفّح ولا يذل الصالحين الذين هم كالقصبة الضعيفة).

ومعنى (مشفّح) محمد. قال أبو محمد بن قتيبة: «مشفح محمد بغير شك واعتباره إنهم يقولون شفحاً لاها إذا أرادوا أن يقولوا: الحمد لله وإذا كان الحمد شفحاً فمشفح محمد بغير شك»[٢].

وعند النصارى إن هذا النص في المسيح كما جاء في إنجيل متى في الإصحاح الثاني عشر: ٢٤.

ولما كان النص في (أشعيا) كما ذكرنا (هو ذا عبدي) والمسيح في عقيدتهم إله حوَّله الكاتب إلى (هوذا فتاي) ليسهل القول بأنه ابن الله ولئلا يتناقض.

والعجيب أنه في الطبعة الواحدة تجد هذين النصين ففي (أشعيا) تجده (هوذا عبدي) وفي (متى) تجده (هوذا فتاي) ويحيلك إلى أشعيا. وهو في غاية العبث.

ثم كيف ينطبق هذا على المسيح الذي أُهين وقُتل وبُصق عليه - كما يقولون - وبقي أصحابه أكثر من ثلاثة قرون مطاردين وهذا النص يقول «يخرج الحق لا يكل ولا ينكسر حتى يضع الحق في الأرض»؟

إنه تَمحُّلٌ عجيب في تطبيق النص وذو اللُّبِّ يقرأ ويفهم.

---

(١) ذيل الفارق ٧٧-٧٩.

(٢) هداية الحيارى بهامش ذيل الفارق ص٥.

البشارة التاسعة

جاء في (أشعيا) في الإصحاح الحادي والعشرين من طبعة لندن سنة ١٨٢٢:

«٧ قال لي الرب اذهب وأقم الديدبان ليخبر بما يرى. فأبصر مركب فارسين أحدهما راكب حمار والآخر راكب جمل وتراقب حريصاً تراقباً شديداً... وإذا برجل راكب زواجاً من الفرسان فأجاب وقال: قد سقطت بابل وجميع أصنام آلهتها انكسرت ملقاة إلى الأرض»[١].

والنص في النسخ القديمة هكذا: «قيل لي قم ناظراً فانظر ماذا ترى؟ فقلت: أرى راكبين مقبلين أحدهما على حمار والآخر على جمل يقول أحدهما لصاحبه سقطت بابل وأصنامها للمنحر»[٢].

قال ابن تيمية: «قالوا فراكب الحمار هو المسيح، وراكب الجمل هو محمد ﷺ وهو أشهر بركوب الجمل من المسيح بركوب الحمار. وبمحمد ﷺ سقطت بابل»[٣].

وقال القرافي: «فراكب الحمار المسيح عليه السلام وراكب الجمل محمد عليه السلام... ومحمد عليه السلام أسقط أصنام بابل وغيرها»[٤].

وجاء في (الفارق): «والمراد براكب الحمار عيسى وراكب الجمل محمد عليهما

---

(١) النص في طبعة القاهرة لسنة ١٩٦٩ هكذا: «لأنه هكذا قال لي السيد اذهب أقم الحارس ليخبر بما يرى، فرأى ركاباً أزواج فرسان، ركاب حمير، ركاب جمال، فأصغى إصغاء شديداً فأجاب وقال: سقطت سقطت بابل وجميع تماثيل آلهتها المنحوتة كسَّرها إلى الأرض».

(٢) الأجوبة الفاخرة ٢٤٨، الجواب الصحيح ٣/٣٢٣، هداية الحيارى ٤٠٠.

(٣) الجواب الصحيح ٣/٣٢٣.

(٤) الأجوبة الفاخرة ٢٤٨.

أفضل الصلاة والسلام إذ لم يسمع عن عيسى أنه ركب الإبل بل الجحش حين دخل إلى أورشليم»[1].

---

(١) الفارق ٣٩٧.

البشارة العاشرة

قال (أشعيا) في الإصحاح الرابع والخمسين:

«تَرنَّمي أيتها العاقر التي لم تلد. أشيدي بالترنم أيتها التي لم تمخض لأن بني المستوحشة أكثر من بني ذات البعل قال الرب: أوسعي مكان خيمتك ولتُبسط شقق مساكنك. لا تمسكي أطيلي أطنابك وشددي أوتارك لأنك تمتدين إلى اليمين وإلى اليسار ويرث نسلك أمماً ويعمر مدناً خَرِبة. لا تخافي لأنك لا تخزين. ولا تخجلي لأنك لا تستحين. فإنك تنسين خزي صباك وعار تَرمُّلك لا تذكرينه بعد لأن بعلك هو صانعك رب الجنود اسمه، ووليُّك قدوسُ إسرائيل إله كل الأرض يدعى... لُحيظَةَ تركتكِ وبمراحم عظيمة سأجمعك. بفيضان الغضب حجبتُ وجهي عنك لحظة وبإحسانٍ أبديّ أرحمك قال وليُّكِ الربُّ... فإن الجبالَ تزول والآكام تتزعزع أما إحساني فلا يزول عنك وعهد سلامي لا يتزعزع قال راحمك الرب.

أيتها الذليلة المضطربة غير المتعزية ها أنذا أبني بالإثمد حجارتك وبالياقوت الأزرق أُؤسِّسك وأجعل شرفك ياقوتاً وأبوابك حجارة بهرمانية وكل تخومك حجارة كريمة وكل بنيك تلاميذ الرب وسلام بنيك كثيراً. بالبرّ تُثبَّتين بعيدة عن الظلم فلا تخافين وعن الارتعاب فلا يدنو منك... من اجتمع عليك فإليك يسقط... كل آلة صُورت ضدك لا تنجح وكل لسان يقوم عليك في القضاء تحكمين عليه. هذا هو ميراث عبيد الرب وبِرّهم من عندي يقول الرب».

☆ ☆ ☆

وواضح أنه يعني في هذا النص مكة المكرمة وذلك من وجوه:

١- قوله: (ترنمي أيتها العاقر التي لم تلد) فهو يعني بالعاقر مكة لأنها لم تلد نبياً قبل محمد. فمحمد أول نبي ظهر فيها، قال تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦﴾ [يس]، وقال: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ

﴿يَهۡتَدُونَ ۝٣﴾ [السجدة].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «يعني بالعاقر مكة لأنها لم تَلِدْ قبلَ محمد النبي ﷺ نبياً ولا يجوز أن يريد بالعاقر بيت المقدس لأنه بيت الأنبياء ومعدن الوحي وقد ولد أنبياء كثيراً»(١).

٢- قوله: (ويرث نسلك أمماً ويعمر مدناً خَرِبة) وهم العرب الذين خرجوا برسالة الإسلام ورثوا الأمم وعمروا مدناً خربة كما قال.

٣- قوله: «ووليك قدوس إسرائيل إله كل الأرض يُدعى» أي يدعى ربَّ العالمين لا إله شعبٍ معين كما في التوراة إن الله إله إسرائيل وربهم. قال تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة].

٤- قوله: (فإن الجبال تزول والآكام تتزعزع أما إحساني فلا يزول عنك) ذلك لأن رسالة الإسلام خالدة وهي خاتمة الشرائع وتعظيم البيت من شعائره وهو كذلك إلى قيام الساعة.

٥- قوله: (ها أنذا أبني بالإثمد حجارتك وبالياقوت الأزرق أؤسسك...) ولم توجد هذه الصفات إلا لمكة (ولأن المهدي من بني العباس والملوك قبله وبعد تأنقوا في بناء المسجد الحرام بالأحجار النفيسة والذهب والأصباغ واللازورد وحملت تيجان الملوك وذخائرهم فحلِّيتْ بها الكعبة حتى إن سقوف الحرم تأخذ بالبصر»(٢).

٦- قوله: (وسلام بنيك كثيراً) وذلك لأن تحية المسلمين السلام فهم يُحيِّي بعضهم بعضاً بقوله: (السلام عليكم).

٧- قوله: (بعيدة عن الظلم فلا تخافين وعن الارتعاب فلا يدنو منك) وذلك لأنه حرمٌ آمن قال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا حَرَمًا ءَامِنٗا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنۡ حَوۡلِهِمۡۚ ۝٦٧﴾ [العنكبوت]، وقال: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ ۝٩٧﴾ [آل عمران] وذلك ببركة دعاء إبراهيم عليه السلام ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا ۝٣٥﴾ [إبراهيم] فإذا رأى الرجل قاتل أبيه

---

(١) الجواب الصحيح ٣/٣٢٧، وانظر هداية الحيارى ٤٠٢.
(٢) الأجوبة الفاخرة ٢٤٩.

في الحرم لا يتعرض له.

وقوله: (بعيدة عن الظلم) مصداق قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [الحج].

٨- قوله: (من اجتمع عليك فإليك يسقط... كل آلة صُوّرت ضدك لا تنجح، وكل لسانٍ يقومُ عليك في القضاء تحكمين عليه) وهذا حق فمن أراد بيتَهُ بكيد أذلَّه الله وأهلكه كما فعل ربنا بأصحاب الفيل.

أفهناك أوضح من هذا النص على قدسية مكة وتشريفها وتشريف أهلها حَملَةِ رسالة الإسلام؟

البشارة الحادية عشرة

جاء في (أشعيا) في الإصحاح الستين:

«قومي استنيري لأنه قد جاء نورك ومجدُ الربِّ أشرق عليك. لأنه ها هي الظلمةُ تغطي الأرض والظلام الدامسُ الأمم. أما عليك فيشرق الربُّ ومجدُه عليك يُرى. فتسير الأمم في نورك والملوك في ضياء إشراقك.

ارفعي عينيك حواليك وانظري. قد اجتمعوا كلهم. جاؤوا إليك. يأتيك بنوك من بعيد وتُحمل بناتك على الأيدي. حينئذ تنظرين وتنيرين ويَخفقُ قلبك ويتسع لأنه تتحول إليك ثروة البحر ويأتي إليك غنى الأمم، تغطيك كثرة الجِمال بُكران مديان وعيفة كلها تأتي من شَبَا تحمل ذهباً ولباناً وتبشر بتسابيح الرب. كل غنم قيدار تجتمع إليك. كباشُ نبايوت تخدمك. تصعد مقبولة على مذبحي وأزين بيت جمالي...

وبنو الغريب يبنون أسوارك وملوكهم يخدمونك... وتنفتح أبوابك دائماً. نهاراً وليلاً لا تغلق... وشعبك كلهم أبرار. إلى الأبد يرثون الأرض. غصن غَرْسي عملُ يديّ لأتمجد».

☆ ☆ ☆

وهذا النص وصف لمكة وبيت الله الحرام ووصف للحج فإن في هذا النص أموراً:

١- قوله: (قومي استنيري... لأنه ها هي الظلمة تغطي الأرض...) هذا وصف لحالة أهل الأرض عند إشراق نور الإسلام فقد كانوا في ظلمة حالكة كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ ﴿٤١﴾﴾ [الروم].

٢- قوله: (تسيرُ الأممُ في نورك والملوكُ في ضياء إشراقك) وهذا حق فقد سارت الأمم ولا تزال تسير في نور الإسلام وإشراقه.

٣- قوله: (قد اجتمعوا كلهم جاؤوا إليك، يأتيك بنوك من بعيد) هذا وصفٌ لمشهد

الحج فإن المسلمين يجتمعون ويأتونها من بعيد.

وفي النسخ القديمة: (وتَحجُّ إليكِ عساكرُ الأمم)[1] وهوكذلك.

٤- قوله: (تغطيك كثرة الجِمال...) وهذا واضح في وصف قدوم وفد الحجاج فإنهم كانوا يجيئون على الجمال حتى تغطي مكة وكذلك عند النحر.

٥- قوله: (وتبشر بتسابيح الرب) وهذا وصفٌ للتلبية عند الحج فإن الحاج يلبي من مكان الإحرام رافعاً صوته بقوله «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك».

٦- قوله: (كل غنم قيدار تجتمع إليك وكباش نبايوت تخدمك تصعد مقبولة على مذبحي) وهذا وصف للذبح في يوم النحر. وقيدار ونبايوت من أولاد إسماعيل كما ذكرنا.

٧- قوله: (وبنو الغريب يبنون أسوارك وملوكهم يخدمونك) وهذا شأن كل مسلم. وملوك المسلمين وأمراؤهم في بقاع الدنيا يخدمون الكعبة المعظمة.

٨- قوله: (وتتفتح أبوابك دائماً. نهاراً وليلاً لا تغلق) وهذا وصف للكعبة المعظمة فإن أبوابها مفتوحة دائماً لا تغلق لا في ليل ولا في نهار ولا ينقطع عنها الطواف في ساعة من ليل أو نهار.

٩- قوله: (وشعبك كلهم أبرار إلى الأبد يرثون الأرض) وهم كذلك لأنهم خاتمة الأمم ونبيهم خاتم النبيين فهم يرثون الأرض كما قال تعالى في وصف هذه الأمة ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء] فلا تأتي بعدهم أمة ولا دين حتى تقوم الساعة.

ولا ينطبق هذا الوصف على مكان آخر غير الكعبة المعظمة زادها الله تعظيماً وتشريفاً.

---

(١) الأجوبة الفاخرة ٢٤٨.

البشارة الثانية عشرة

جاء في المزمور المائة والتاسع والأربعين من مزامير داود:

«ليبتهج الأتقياء بمجد. ليرنموا على مضاجعهم. تنويهات الله في أفواههم وسيفٌ ذو حدين في يدهم ليصنعوا نقمة في الأمم وتأديبات في الشعوب لأسرِ ملوكهم بقيود وشرفائهم بكبول من حديد ليجروا بهم الحكم المكتوب».

وهذا النص في النسخ القديمة هكذا:

«ليفرح الخلّاق ممن اصطفى الله تعالى له أمته وأعطاه النصر وسدد الصالحين منهم بالكرامة يسبحونه على مضاجعهم ويكبرون الله تعالى بأصوات مرتفعة بأيديهم سيوف ذوات شفرتين لينتقم بهم من الأمم الذين لا يعبدونه»(١). وهذا النص في وصف الأمة المحمدية من وجوه:

١- قوله: (يسبحونه على مضاجعهم) يشير إلى الذين وصفهم الله تعالى بقوله ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴿١٩١﴾ ﴾ [آل عمران] وهم المسلمون.

٢- قوله: (يكبرون الله تعالى بأصوات مرتفعة) يشير إلى رفع الأذان بالتكبير.

٣- قوله: (سيف ذو حدين في يدهم) وهذا وصف للسيوف العربية ذات الحدين.

٤- قوله: (ليصنعوا نقمة في الأمم وتأديبات في الشعوب لأسر ملوكهم بقيود وشرفائهم بكبول من حديد) وهذا ما حصل للأمة الإسلامية وجيش الإسلام فقد أسروا الملوك وكبلوا شرفاءهم بالحديد كالهرمزان وغيره.

قال الإمام القرافي: «يشير صلوات الله عليه إلى هذه الأمة ورفع أصواتهم بالأذانات

---

(١) الأجوبة الفاخرة ٢٤٦، الجواب الصحيح ٣/٣١٤، هداية الحيارى ٣٥٩/١٨.

فإنه لم يكن لغيرها من الأمم والسيوف العربية ذوات شفرتين والعجمية لها شفرة واحدة وانتقم الله تعالى بهم من الأمم»[١].

(١) الأجوبة الفاخرة ٢٤٦.

البشارة الثالثة عشرة

جاء في (سفر التثنية) في الإصحاح الثاني والثلاثين:

«٢١ هم أغاروني بما ليس إلهاً. أغاظوني بأباطيلهم فأنا أغيرهم بما ليس شعباً. بأمة غبية أغيظهم».

وفي طبعة أخرى هكذا:

«هم أغاروني بغير إله وأغضبوني بمعبوداتهم الباطلة وأنا أيضاً أغيرهم بغير شعب وبشعب جاهل أغضبهم».

والمراد بالشعب الجاهل العرب[١] وقد كان يسمى عصرنا ما قبل الإسلام الجاهلية قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾ [الجمعة].

ونحو هذا النص ما جاء في (أشعيا) في الإصحاح الخامس والستين: «أصغيت إلى الذين لم يسألوا. وُجدت من الذين لم يطلبوني. قلتُ ها أنذا لأمة لم تسمَّ باسمي. بسطتُ يدي طول النهار إلى شعب متمرد غير صالح وراء أفكاره».

وفي طبعة أخرى هكذا:

«طلبني الذين لم يسألوني قبل ووجدني الذين لم يطلبوني. قلت: ها أنذا إلى الأمة الذين لم يدعوا باسمي. بسطتُ يدي طول النهار إلى شعب غير مؤمن الذي يسلك بطريق غير صالح وراء أفكارهم...».

«فالمراد بالذين لم يسألوني ولم يطلبوني العرب لأنهم كانوا غير واقعين على ذات الله

---

(١) إظهار الحق ٢/٢٤٩.

وصفاته وشرائعه فما كانوا سائلين عن الله وطالبين له كما قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝١٦٤﴾[1].

(١) إظهار الحق ٢/٢٦٦-٢٦٧.

البشارة الرابعة عشرة

جاء في (أشعيا) في الإصحاح الحادي والأربعين:

«٢ من أنهض من المشرق الذي يلاقيه النصر عند رجليه. دفع أمامه أمماً وعلى ملوك سلَّطه جعلهم كالتراب بسيفه وكالقش المُنْذَرِي بقوسه. ٣ مرّ سالماً في طريق لم يسلكه برجليه. ٤ من فعل وصنع داعياً الأجيال من البدء. أنا الرب الأول ومع الآخرين أنا هو».

وهذا وصف لسيدنا محمد الذي أنهضه الله من المشرق ولاقاه النصر عند رجليه ووصفٌ لأمته العظيمة.

ونحو هذا الوصف ما جاء في (أرميا) في الإصحاح السادس:

«هكذا قال الرب. هو ذا شعبٌ قادم من أرض الشمال وأمة عظيمة تقوم من أقاصي الأرض تمسك القوس والرمح. هي قاسية لا ترحم، صوتها كالبحر يعجّ وعلى خيل تركب مصطفة كإنسان لمحاربتكِ يا ابنة صهيون. سمعنا خبرها. ارتخت أيدينا. أمسكنا ضيق ووجع كالماخض.

لا تخرجوا إلى الحقل وفي الطريق لا تمشوا لأن سيفَ العدو خوفٌ من كل جهة».

فالمراد بالأمة العظيمة التي تقوم من أقاصي الأرض هم العرب أهل القوس والرمح.

وقوله: (قاسية لا ترحم) يصدقه قوله تعالى: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح].

وقوله: (تركب الخيل) واضح.

وقوله: (مصطفة كإنسان) يصدقه قوله تعالى: ﴿يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾ [الصف].

وقوله: (ارتخت أيدينا. أمسكنا ضيق ووجع كالماخض) يصدقه قوله ﷺ: «نُصرتُ بالرُّعْبِ مسيرةَ شهر».

البشارة الخامسة عشرة

«قال حزقيال عليه السلام في نبوته يتهدد اليهود بنار: إن الله مظهرهم عليكم وباعث فيهم نبياً وينزل عليهم كتاباً ومملكهم رقابكم فيقهرونكم ويذلُّونكم بالحق ويخرج رجال بني قيدار في جماعات الشعوب معهم ملائكة على خيل بيض متسلحين فيحيطون بكم وتكون عاقبتكم إلى النار»[1].

ونقله في الجواب الصحيح عن دانيال. وجاء فيه: «وقال: تنزل الملائكة على خيل بيض. وهذا مما تواترت به الآثار أن الملائكة كانت تنزل على الخيل البيض فإنها نزلت يوم بدر لنصر النبي ﷺ وأمته ونزلت يوم الأحزاب وأحاطت ببني قريظة»[2].

قال تعالى في وقعة بدر: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾ [الأنفال].

وقال في الأحزاب: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ﴿٩﴾﴾. جاء في (صحيحي البخاري ومسلم) عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: «رأيت رسول الله ﷺ يوم أحد ومعه رجلان يقاتلان عليهما ثياب بيض كأشد القتال ما رأيتهما قبل ولا بعد».

---

(١) الأجوبة الفاخرة ٢٥٨، هداية الحيارى بهامش ذيل الفارق ص٦.

(٢) الجواب الصحيح ٣/ ٣٣١-٣٣٢.

البشارة السادسة عشرة

جاء في (سفر دانيال) في الإصحاح الثاني:

«٣١ أنت أيها الملك كنت تنظر وإذا بتمثال عظيم. هذا التمثال العظيم البهي جداً وقف قبالتك ومنظره هائل. ٣٢ رأس هذا التمثال من ذهب جيد. صدره وذراعاه من فضة. بطنه وفخذاه من نحاس. ٣٣ ساقاه من حديد. قدماه بعضهما من حديد والبعض من خزف. ٣٤ كنت تنظر إلى أن قُطع حجرٌ بغير يدين فضربَ التمثالَ على قدميه اللتين من حديد وخزف فسحقهما. ٣٥ فانسحق حينئذ الحديد والخزف والنحاس والفضة والذهب معاً وصارت كَعُصافة البيدر في الصيف فحملتها الريح فلم يوجد لها مكان. أما الحجر الذي ضرب التمثال فصار جبلاً كبيراً وملأ الأرض كلها.

٣٦ هذا هو الحلم فنخبر بتعبيره قدام الملك.

٣٧ أنت أيها الملك ملكُ ملوكٍ لأن إله السماوات أعطاك مملكة واقتداراً وسلطاناً وفخراً. ٣٨ وحيثما يسكن بنو البشر ووحوش البر وطيور السماء دَفعها ليدك وسلَّطك عليها جميعها. فأنت هذا الرأس من ذهب. ٣٩ وبعدك تقوم مملكة أخرى أصغر منك ومملكة ثالثة أخرى من نحاس فتتسلط على كل الأرض. ٤٠ وتكون مملكة رابعة صلبة كالحديد لأن الحديد يدق ويسحق كل شيء وكالحديد الذي يُكَسِّرُ تَسحقُ وتكسّر كل هؤلاء. ٤١ وبما رأيت القدمين والأصابع بعضها من خزف الفخار والبعض من حديد فالمملكة تكون منقسمة ويكون فيها قوة الحديد من حيث أنك رأيت الحديد مختلطاً بخزف الطين. ٤٢ وأصابع القدمين بعضها من حديد والبعض من خزف فبعض المملكة يكون قوياً والبعض قَصِماً... ٤٤ وفي أيام هؤلاء الملوك يقيم إله السماوات مملكة لن تنقرض أبداً وملكها لا يترك لشعب آخر وتسحق وتفني كل هذه الممالك وهي تثبت إلى الأبد...».

☆ ☆ ☆

جاء في (إظهار الحق): «فالمراد بالمملكة الأولى سلطنة بختنصر، وبالمملكة الثانية سلطنة المادئين الذين تسلطوا بعد قتل بلشاصر بن بختنصر كما هو مصرح في الباب الخامس من الكتاب المذكور، وسلطنتهم كانت ضعيفة بالنسبة إلى سلطنة الكلدانيين. والمراد بالمملكة الثالثة سلطنة الكيانيين لأن قورش ملك إيران الذي هو بزعم القسيسين كيخسرو تسلط على بابل قبل ميلاد المسيح بخمسمائة وست وثلاثين سنة، ولما كان الكيانيون على السلطنة القاهرة فكأنهم كانوا متسلطين على جميع الأرض. والمراد بالمملكة الرابعة سلطنة اسكندر بن فيلفوس الرومي الذي تسلط على ديار فارس قبل ميلاد المسيح بثلثمائة وثلاثين سنة، فهذا السلطان كان في القوة بمنزلة الحديد ثم جعل هذا السلطان سلطنة فارس منقسمة على طوائف الملوك فبقيت هذه السلطة ضعيفة إلى ظهور الساسانيين، ثم صارت قوية بعد ظهورهم فكانت ضعيفة تارة وقوية تارة. وتولد في عهد نوشيروان (محمد بن عبد الله) ﷺ وأعطاه الله السلطنة الظاهرية والباطنية وقد تسلط متبعوه في مدة قليلة شرقاً وغرباً وعلى جميع ديار فارس التي كانت هذه الرؤيا وتفسيرها متعلقتين بها فهذه هي السلطنة الأبدية التي لا تنقضي وملكها لا يعطى لشعب آخر»[1].

(١) إظهار الحق ٢/٢٦٨-٢٦٩.

البشارة السابعة عشرة

جاء في (سفر التكوين) في الإصحاح التاسع والأربعين:

«١٠ فلا يزول القضيب من يهوذا والمدبر من فخذه حتى يجيء الذي له الكل وإياه تنتظر الأمم».

وهذا النص هو من النسخ العربية المطبوعة سنة ١٧٢٢ وسنة ١٧٧٣ وسنة ١٨٣١ وسنة ١٨٤٤.

وفي ترجمة عربية سنة ١٨١١ (وإليه تجتمع الشعوب)[١].

فالمراد بالقضيب الحكم والسلطة، وقد زال القضيب من آل يهوذا قبل ظهور عيسى عليه السلام بمقدار ستمائة سنة[٢].

والمراد بالمدبر من فخذه عيسى لأنه من فخذ يهوذا فإنه بعد زوال حكم آل يهوذا لم يجيء صاحب شريعة إلا عيسى.

جاء في إنجيل متى في الإصحاح الثاني: «٦ وأنت يا بيت لحم أرض يهوذا لست الصغرى بين رؤساء يهوذا لأن منك يخرج مدبّر يرعى شعب إسرائيل».

وهذا الكلام في حق عيسى فهو المدبّر.

وفي هذا النص دلالة على مجيء سيدنا محمد بعد زوال السلطة والحكم من آل يهوذا وبعد زوال المدبّر وهو عيسى.

قال فيه: «حتى يجيءَ الذي له الكلُّ وإياه تنتظر الأمم» وفي طبعة أخرى (وإليه تجتمع الشعوب) وهذه صفات سيدنا محمد الذي له الكل وهو خاتم النبيين وإليه

---

(١) إظهار الحق ٢/٢٥٢، الجواب الفسيح ٧٩.

(٢) إظهار الحق ٢/٢٥٣.

اجتمعت الشعوب.

وقد عبث المترجمون بهذا النص عبثاً عجيباً.

ففي الترجمة المطبوعة سنة ١٨١١ هكذا: «فلا يزولُ القضيبُ من يهوذا والرسم من تحت أمره إلى أن يجيء الذي هو له وإليه تجتمعُ الشعوب».

والمقصود بالرسم التدبير.

وفي الترجمة المطبوعة بلندن سنة ١٩٥٢ وطبعة بيروت سنة ١٩٦١ هكذا: «لا يزول قضيبٌ من يهوذا ومُشترعٌ من بين رجليه حتى يأتي شيلون وله يكون خضوع شعوب».

«فانظر إلى اختلاف توراتهم التي يتمسكون بها ففي كل نسخة من نسخهم المطبوعة خلافُ ما في النسخةِ الأخرى ولم تجتمع نسختان على كلام واحد»[١].

(١) الجواب الفسيح ٣٨٧.

البشارة الثامنة عشرة

جاء في (سفر ملاخي) في الإصحاح الرابع:

«فهو ذا يأتي اليوم المتقد كالتنور وكل المستكبرين وكل فاعلي الشر يكونون قشاً ويحرقهم اليوم الآتي قال رب الجنود فلا يُبقي لهم أصلاً ولا فرعاً...

ها أنذا أرسل إليكم إيلياء النبي قبل مجيء يوم الرب العظيم والمخوف فيرد قلب الآباء على الأبناء وقلب الأبناء على آبائهم لئلا آتي وأضرب الأرض بلعن».

و(إيليا) ليس علَماً على شخص بل هو رمز.

جاء في (إنجيل مرقس) في الإصحاح الثامن: «٣٧ ثم خرج يسوع وتلاميذه إلى قرى قيصرية فيلبس وفي الطريق سأل تلاميذه قائلاً لهم: من يقول الناس أني أنا؟

٢٨ فأجابوا: يوحنا المعمدان، وآخرون: إيليا، وآخرون: واحد من الأنبياء.

٢٩ فقال لهم: وأنتم من تقولون أني أنا؟

فأجاب بطرس وقال له: أنت المسيح».

ونحن نرى أن المقصود بإيلياء محمد لأمور:

١- قوله: (ها أنذا أرسل إليكم إيلياء النبي قبل مجيء يوم الرب العظيم والمخوف) ومحمد خاتم النبيين وهو قد أُرسلَ بين يدي الساعة كما قال «بُعثت أنا والساعة كهاتين» وقرن بين أصبعيه الوسطى والسبابة. وقال: بعثت في نَفَس الساعة.

٢- قوله: (فيردُّ قلبَ الآباء على الأبناء وقلب الأبناء على آبائهم) وهذه صفة محمد ﷺ الذي رد قلب الآباء على الأبناء فمنع قتل الأولاد خشية الفقر ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ﴿٣١﴾﴾ [الإسراء] ومنع وأد البنات ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾﴾ [التكوير] وأمر بتربيتهم وتعليمهم.

وردَّ قلبَ الأبناء على الآباء فجعل طاعة الوالدين بعد طاعة الله وجعل عقوقهما من الكبائر ومن الموبقات بل هو بعدَ الشركِ بالله، وأمر بطاعتهما وحسن معاملتهما والدعاء لهما ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾ [الإسراء].

وأمر بحسن صحبتهما ولو كانا مشركين ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ ﴿١٥﴾ ﴾ [لقمان].

٣- إن إيلياء رمز عن أحمد «والدليل على ذلك أن اليهود كثيراً ما يراعون حساب أبجد في تفسير الآيات، وهذا الحساب معتبر في شريعتهم، وإذا لاحظنا هذه القاعدة في هذا الاسم أعني (إيلياء) نراه موافقاً لاسم (أحمد) لأن كلاً منهما ثلاثة وخمسون (إيلياء) (أحمد) وهو اسم نبينا عليه الصلاة والسلام»[١].

وذهب النصارى إلى أن إيلياء هو يوحنا المعمدان أي يحيى عليه السلام بدلالة ما جاء في (إنجيل متى) في الإصحاح السابع عشر:

«١٠ وسأله تلاميذه قائلين فلماذا يقول الكتبة إن إيليا ينبغي أن يأتي أولاً؟ ١١ فأجاب يسوع وقال لهم: إن إيلياء يأتي أولاً ويرد كل شيء. ١٢ ولكني أقول لكم إن إيليا قد جاء ولم يعرفوه بل عملوا به كل ما أرادوا. كذلك ابن الإنسان أيضاً سوف يتألم منهم. حينئذ فهم التلاميذ أنه قال لهم عن يوحنا المعمدان».

وهذا مردودٌ بجملة أمور منها:

١- ما قاله يوحنا عن نفسه حين سئل هل أنت إيليا؟ فأجاب: لا وهو نص صريح في أنه ليس إيلياء والأنبياء مُنَزَّهون عن الكذب.

جاء في (إنجيل يوحنا) في الإصحاح الأول:

«١٩ وهذه هي شهادة يوحنا حين أرسل اليهود من أورشليم كهنة ولاويين ليسألوه من أنت؟ ٢٠ فاعترف ولم ينكر وأقرّ أني لست أنا المسيح. ٢١ فسألوه إذاً ماذا؟ إيليا

(١) الفارق ٣٨٧.

أنت؟ فقال: لست أنا. النبيّ أنت؟ فأجاب لا . . .

فسألوه وقالوا له: فما بالك تعمّد إن كنتَ لست المسيح ولا إيليا ولا النبي؟» وهو واضح وصريح.

٢- النصوص الأخرى المبثوثة في الأناجيل تنفي أن يكون إيليا هو يوحنا. جاء في (إنجيل لوقا) في شفاء المرضى في الإصحاح التاسع:

«٧ لأن قوماً كانوا يقولون أن يوحنا قد قام من الأموات. ٨ وقوماً أن إيليا ظهر وآخر أن نبياً من القدماء قام».

فهم كانوا ينتظرون ظهور إيلياء بعد موت يوحنا.

وجاء في (إنجيل مرقس) في الإصحاح الثامن:

«٢٧ ثم خرج يسوع وتلاميذه إلى قرى قيصرية فيلبس وفي الطريق سأل تلاميذه قائلاً لهم: من يقول الناس أني أنا.

٢٨ فأجابوا: يوحنا المعمدان وآخرون إيليا وآخرون واحد من الأنبياء.

٢٩ فقال لهم: وأنتم مَنْ تقولون أنِّي أنا؟ فأجاب بطرس وقال له: أنت المسيح».

فنحن نرى أن المسيح لم يخبر تلاميذه أن إيليا هو يوحنا حين رآهم يفصلون بينهما.

وجاء نحو هذا النص في (إنجيل لوقا) في الإصحاح التاسع: ١٨، ١٩.

وجاء في (يوحنا متى) في الإصحاح الحادي عشر:

«١١ الحق أقول لكم لم يقم بين المولودين من النساء أعظم من يوحنا المعمدان.

ولكن الأصغر في ملكوت السماوات أعظم منه.

١٢ ومن أيام يوحنا المعمدان إلى الآن ملكوت السماوات يُغصب والغاصبون يختطفونه. ١٣ لأن جميع الأنبياء والناموس إلى يوحنا تنبأوا.

١٤ وإن أردتم أن تقبلوا فهذا هو إيليا المزمع أن يأتي. ١٥ مَنْ له أذنان للسمع فليسمع».

فهذا النص صريح في أن إيليا هو غير يوحنا.

٣- ثم إن النص الذي جاء في البشارة لا ينطبق على يوحنا لأن إيليا كما هو في النص يجيء قبل مجيء يوم الرب اليوم العظيم المخوف أي قبل يوم القيامة ومعنى ذلك أنه يكون آخر الأنبياء وإلا فجميع الأنبياء هم قبل يوم القيامة. ويوحنا ليس كذلك لأنه قتل في زمن عيسى.

جاء في الإصحاح الرابع عشر من إنجيل متى أن هيرودوس قطع رأسه وأحضره على طبق: «١٠ فأرسل وقطع رأس يوحنا في السجن. ١١ فأحضر رأسه على طبق ودفع به إلى الصبيّة فجاءت به إلى أمها. ١٣ فلما سمع يسوع انصرف من هناك في سفينة إلى موضع خلاء منفرداً».

وانظر إنجيل مرقس في الإصحاح السادس.

وعند النصارى أن تلاميذ المسيح هم رسُل كما جاء في إنجيل لوقا ١٧: «٥ فقال الرسل للرب زِدْ إيماننا».

والرسل هنا هم تلاميذ المسيح والمقصود بالرب هنا المسيح تعالى الله عما يقولون. و(بولس) عندهم رسول وعندهم رسل آخرون (انظر أعمال الرسل) فكيف ينطبق هذا النص على يوحنا المعمدان وقد جاء بعده رسل كثيرون كما يعتقد النصارى؟

وعندنا أن عيسى رسول وقد عاش بعد يوحنا فلا يصح أن يكون يوحنا هو إيليا.

٤- ثم إن ما جاء في البشارة أن إيلياء يرد قلب الآباء على الأبناء وقلب الأبناء على آبائهم، أي تكونُ تعليماته نافذة يؤمن بها الناس ويطبقونها فيرد بها قلوب الآباء والأبناء.

وهذا لا ينطبق على يوحنا لأن بني إسرائيل كذبوه ولم يؤمنوا به ورفضوه وقتلوه.

قال المسيح كما جاء في (إنجيل متى) في الإصحاح الحادي والعشرين. «٣٢ لأن يوحنا جاءكم في طريق الحق فلم تؤمنوا به».

فهم إذن لم يؤمنوا به ورفضوا تعاليمه وقتلوه فكيف تنطبق عليه هذه البشارة؟

إن هذه البشارة تنطبق على محمد الذي آمن به الناس وصدقوه ونفذوا تعاليمه فردّ قلوب الآباء والأبناء.

٥- ثم أين التعليمات التي جاء بها يوحنا المعمدان بهذا الخصوص أو بغيره؟

إننا لم نجد شيئاً من تعليمات يوحنا ولم تذكر الأناجيل عنها شيئاً فلا نعلم تعليماته بشأن الآباء والأبناء أو بغير هذا الشأن.

ولذا فإن البشارة لا تنطبق عليه وقد نفى هو ذلك عن نفسه، فتكون هذه بشارة بظهور سيدنا محمد وهي تنطبق عليه تمام الانطباق.

البشارة التاسعة عشرة

جاء في (إنجيل يوحنا) في الإصحاح الرابع عشر:

«١٦ وأنا أطلب من الآب فيعطيكم فارقليطاً آخر ليثبتَ معكم إلى الأبد.

١٧ روح الحق الذي لا يستطيع العالم أن يقبله لأنه لا يراه ولا يعرفه...

٢٦ والفارقليط روح القدس الذي يرسله الآب باسمي هو يعلِّمكم كل شيء ويذكِّركم كلَّ ما قلتُه لكم».

وفي الإصحاح الخامس عشر:

«٢٦ وإذا جاء الفارقليط الذي أرسله إليكم من الآب روح الحق الذي من عند الأب فهو يشهد لي».

وفي الإصحاح السادس عشر:

«٧ إنْ لم أنطلق لا يأتيكم الفارقليط. ولكن إنْ ذهبتُ أرسله إليكم.

«٨ ومتى جاء ذاك يُبكِّتُ العالم على خَطِيَّة وعلى بِرٍّ وعلى دينونة... وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمورٍ آتية. ذاك يمجدني لأنه يأخذ مما لي ويخبركم».

☆ ☆ ☆

هذه النصوص من طبعة الموصل سنة ١٨٧٦. والفارقليط هو الحامد أو الحماد أو أحمد ونحوها.

جاء في (الأجوبة الفاخرة): «والفارقليط عند النصارى الحماد وقيل الحامد وجمهورهم أنه المخلص»[١].

---

(١) الأجوبة الفاخرة ٢٣٩.

وجاء في (هداية الحيارى): «والفارقليط بلغتهم لفظٌ من ألفاظ الحمد إما أحمد أو محمد أو محمود ونحو ذلك وهو في الإنجيل الحبشي برنقطيس... والدليل عليه قول يوشع: مَنْ عمل حسنة يكون له بارقليط جيد أي: حمد جيد»(١).

وفي (سيرة ابن هشام): «فلو قد جاء المنحمنّا هو الذي يرسله الله إليكم من عند الرب. روح القدس هذا الذي من عند الرب خرج فهو شهيد عليّ وأنتم أيضاً».

والمنحمنّا بالسريانية محمد وهو بالرومية البرقليطس(٢).

ويترجمه كثير من النصارى بالمعزِّي أو المخلِّص والصواب ما ذكرناه، جاء في (قصص الأنبياء): «فارقليط» وهو تعريب لفظ بيريكلتوس اليونانية ومعناها الذي له حمدٌ كثير(٣).

وذكر الأستاذ عبد الوهاب النجار أنه سأل العلامة الكبير الدكتور كارلو نلينو المستشرق الإيطالي وهو حاصل على شهادة الدكتوراه في آداب اليهود اليونانية القديمة. وكان آنذاك في مصر:

ما معنى «بيريكلتوس»؟

فأجابني بقوله: إن القسس يقولون إن هذه الكلمة معناها «المعزي».

فقلت: إني أسأل الدكتور «كارلونلينو» الحاصل على الدكتوراه في آداب اللغة اليونانية القديمة ولست أسأل قسيساً.

فقال: إن معناها «الذي له حمدٌ كثير».

فقلت: هل ذلك يوافق أفعل التفضيل من (حمد)؟

فقال: نعم.

فقلت: إن رسول الله ﷺ من أسمائه (أحمد).

---

(١) هداية الحيارى ٣٦٦-٣٦٨، الجواب الفسيح ٨١.

(٢) سيرة ابن هشام ١/١٥٢-١٥٣، وانظر هداية الحيارى بهامش ذيل الفارق ١١.

(٣) قصص الأنبياء ٣٩٧.

فقال: يا أخي أنت تحفظ كثيراً. ثم افترقنا.

وقد ازددت بذلك تثبتاً في معنى قوله تعالى حكاية عن المسيح ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ۝﴾ [الصف][1].

ثم إن ورود ترجمة لفظ (فارقليط) بلغات أخرى في الأناجيل المختلفة يوضح المقصود به فهو في الإنجيل الحبشي (برنقطيس) وبالسريانية (المنحمنّا) وباليونانية (بيريكلتوس) وكلها تعطي معنى (محمد).

فدلّ ذلك على أن المقصود به سيدنا محمد كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ۝﴾ [الصف].

ثم إن هذه النصوص تنطبق على سيدنا محمد بغض النظر عن معنى لفظة (الفارقليط) فإن قوله (ليثبتَ معكم إلى الأبد) يعني أن رسالته خالدة إلى يوم الدين ويبقى تشريعه نافذاً لا ينسخ.

وقوله: (فهو يعلمكم بكل شيء) ينطبق عليه ﷺ الذي لم يترك سبيلاً من سبل الخير إلا دلّ عليه ولا سبيلاً من سبل الشر إلا حذر منه. كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ۝﴾ [النحل].

وقال يهودي لأحد الصحابة إن نبيكم يعلمكم كل شيء. فقال له: أجل إنه يعلمنا كل شيء.

وإن قوله: (يبكتُ العالمَ على خطية وعلى بر وعلى دينونة) لهو أوضحُ دليل على صفات سيدنا محمد الذي بكّتَ العالم على الخطية وأقامهم على البر. وفي بعض الطبعات (يُوبِّخُ العالم على خطية).

جاء في (الجواب الفسيح): «إن قول عيسى عليه السلام (يوبخ العالم) بمنزلة النصِّ الجليِّ على نبوة نبينا خاتم النبيين ﷺ لأنه كما هو معلوم... قد وَبَّخَ العالم... ومما يُضْحِكُ الأطفالَ ما قاله القسيس راتكين في كتابه المسمى (رافع البهتان) الذي ألفه في لسان الأوردو: إن لفظ التوبيخ لا يوجد في الإنجيل ولا في ترجمة من تراجمه قال:

---

(١) قصص الأنبياء حاشية ص٣٩٧-٣٩٨.

وإنما ذكره المسلمون ليصدق على محمد ﷺ صدقاً بيناً لأن محمداً وبخ وهدد كثيراً. انتهى.

فَنُسَخُ الإنجيل المترجمة قد ملأت العالم ولفظ (يوبخ) أو (يبكت) موجود فيها «الترجمة المطبوعة في رومية العظمى سنة ١٦٧١ والمطبوعة في بيروت سنة ١٨٦٠ والمطبوعة سنة ١٨١٤ وسنة ١٨٢٥ وفي التراجم الفارسية المتعددة الطبع...

إن في هذه الأيام من مترجمي العربية والفارسية وأوردو تركوا لفظ فارقليط في تراجمهم للإنجيل لشهرته عند المسلمين في النبي ﷺ»(١).

وقوله: (وأما متى جاء ذاك روحُ الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به) واضحٌ، فقد أرشد محمد العالم إلى جميع الحق ولم يتكلم من نفسه بل كان يتكلم بما يخبره الله به كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم].

وقوله: (ويخبركم بأمور آتية) ينطبق عليه فقد كان هذا شأن سيدنا محمد فقد أخبر بأمور آتية في القرآن والحديث كإخباره بانتصار الروم على الفرس في بضع سنين وإخباره بانتصار الإسلام وظهوره على الأديان وإخباره بظهور النار في الحجاز وغيرها من الأمور التي ذكرنا طرفاً منها.

وقوله: (ذاك يمجدني لأنه يأخذ مما لي ويخبركم) يدل عليه أيضاً فقد مَجَّدَ سيدنا محمد عيسى عليه السلام في القرآن الكريم قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝٤٥ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٤٦﴾ [آل عمران].

ونَزَّهه مما افترتْ عليه النصارى من ادعاء الربوبية، ونَزَّهه عن الكذب الذي ألصقته به وغير ذلك.

فهذه النصوص تدل على أن محمداً هو المقصود بهذه البشارات.

---

(١) الجواب الفسيح ٨٢-٨٣.

البشارة العشرون

جاء في (إنجيل متى) في الإصحاح الثالث: «١ وفي تلك الأيام جاء يوحنا المعمدان يُكرِّزُ في برية اليهود قائلاً: توبوا لأنه قد اقترب ملكوتُ السماوات».

وجاء فيه في الإصحاح الرابع: «١٧ من ذلك الزمان ابتدأ يسوع يكرز ويقول: توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السماوات».

وجاء في هذا الإصحاح أيضاً: «٢٣ وكان يسوع يطوف كل الجليل يعلّم في مجامعهم ويكرز ببشارة الملكوت».

وجاء فيه في الإصحاح السادس: «٩ فصلوا أنتم هكذا. أبانا الذي في السماوات ليتقدس اسمك. ١٠ ليأتِ ملكوتك».

وفيه في الإصحاح الحادي والعشرين: «٤٣ لذلك أقول لكم: إنَّ ملكوتَ الله ينزع منكم ويُعطى لأمةٍ تعملُ أثماره».

وفيه في الإصحاح الرابع والعشرين: «١٣ ولكن الذي يصير إلى المنتهى فهذا يخلص. ١٤ ويكرز ببشارة الملكوت هذه في كل المسكونة شهادة لجميع الأمم. ثم يأتي المنتهى».

وفي (إنجيل مرقس) في الإصحاح الأول: «١٤ وبعدما أسلم يوحنا جاء يسوع إلى الجليل يكرز ببشارة ملكوت الله. ١٥ ويقول: قد كمل الزمان واقترب ملكوت الله فتوبوا وآمنوا بالإنجيل».

مَعنى الملكوت

يظهر من هذه الفقرات أن المقصود بالملكوت هو دينٌ جديد يُنزله الله إلى الخلق وهو - فيما نرى - الإسلام ولا يصح أن يكون النصرانية لأن قوله: (اقترب ملكوت السماوات) يمنع من ذلك لأن النصرانية دين حاصل لا مقترب. وكذا قوله: (ليأتِ

ملكوتك) فلو كان المقصود به النصرانية لم يصبح لهذا الدعاء معنى، وكذا قوله: «إن ملكوت الله يُنزعُ منكم» أي: أن الرسالة ستُنزع منكم وقد نُزع منهم فعلاً وأُعطي للعرب.

جاء في (كتاب الإنجيل والصليب): «إذا سألتم راهباً مسيحياً ما هو الملكوت؟ يجيبكم فوراً: هو الكنيسة وإنْ لم يكن قد تَشكَّلَ في زمن المسيح مثلُ هذه الكنيسة ومثل هذه الملة والجماعة. فالمسيح وتلاميذه كانوا يدخلون (السيناغوغا) المسمى (كنشت كنيس) كسائر اليهود ويصلون ويتعبدون ولم يخطر على باله إحداث مذهب جديد أو جماعة جديدة وبناء على ذلك لم يتشكل ملكوت الله في زمن عيسى عليه السلام...

فالكنيسة المتخشعة الصارخة بضع مرات في كل يوم «ليأت ملكوتك» (متى ٦: ١٠) منذ أكثر من ألف وتسعمائة سنة لم تكن غير الجماعة العيسوية يا للتضاد، يا للعناد والعصيان، لقد مضى تسعة عشر عصراً إلى الآن ننتظر قائلين: (ليأتِ ملكوتك) فإن كان ملكوت الله هو الكنيسة فما بال الكنيسة تكرر بفمها ولسانها كل يوم هذا الدعاء وتطلب من الله أن يبعث لهم ملكوته؟»(١).

وادعاء أن المراد بالملكوت الكنيسة مردود ردها صاحب الكتاب ويردها الإنجيل نفسه. جاء في (إنجيل متى) ٢١: ٤٣ «ولذلك أقول لكم إن ملكوت الله يُنزَعُ منكم ويُعطى لأمة تعمل أثماره».

فلا يصح أن يكون معناه الكنيسة إذ ما معنى أن الكنيسة تُنزع منكم وتعطى لأمة تعمل أثمارها؟ وهكذا بقية النصوص.

وإنما هو - كما ذكرنا - تبشيرٌ بدينٍ جديد وهو الإسلام.

جاء في (إظهار الحق): «فظهر أن كلاً من يحيى وعيسى والحواريين والتلاميذ السبعين بَشَّر بملكوت الله وبشر عيسى عليه السلام بالألفاظ التي بشر بها يحيى فعلم أن هذا الملكوت كما لم يظهر في عهد يحيى عليه السلام فكذلك لم يظهر في عهد عيسى عليه السلام ولا في عهد الحواريين والسبعين بل كلٌّ منهم مُبشِّرٌ به ومُخبِرٌ عن فضله

---

(١) الإنجيل والصليب ٧٦-٧٧.

ومترجٍ لمجيئه فلا يكون المراد بملكوت السماوات طريقة النجاة التي ظهرت بشريعة عيسى عليه السلام وإلا لما قاله عليه السلام والحواريون السبعون إن ملكوت السماوات قد اقترب. . . فهو عبارة عن طريقة النجاة التي ظهرت بشريعة محمد ﷺ»[١].

وقد نزع الله ملكوته من بني إسرائيل وأعطاه لأمة تعمل أثماره وهي أمة الإسلام فكان كما أخبر السيد المسيح.

---

(١) إظهار الحق ٢/ ٢٧٢.

البشارة الحادية والعشرون

جاء في (إنجيل متى) في الإصحاح الحادي والعشرين:

«٤٢ قال لهم يسوع: أما قرأتم قط في الكتب: الحجر الذي رفضه البناؤون هو قد صار رأس الزاوية. من قِبَل الرب كان هذا وهو عجيب في أعيننا.

٤٣ لذلك أقول لكم إن ملكوت الله يُنزع منكم ويعطى لأمة تعمل أثماره.

٤٤ ومن سقط على هذا الحجر يترضَّض ومن سقط هو عليه يسحقه».

وهذا الحجر إنما هو سيدنا محمد، جاء في (صحيحي البخاري ومسلم) عن أبي هريرة وجابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثلِ رجلٍ بنى بيتاً فأحسنَهُ وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلا وُضِعَتْ هذه اللبنة؟ قال: فأنا اللبنةُ وأنا خاتم النبيين».

قال ابن القيم: «وتأمل قوله [المسيح] في البشارة الأخرى: ألم تر إلى الحجر الذي أخَّره البناؤون صار رأساً للزاوية، كيف تجده مطابقاً لقول النبي ﷺ: مثلي ومثل الأنبياء قبلي كمثل رجل بنى داراً فأكملها وأتمها إلا موضع لبنة منها فجعل الناس يطوفون بها ويعجبون منها ويقولون: هلاّ وضعت تلك اللبنة فكنتُ أنا تلك اللبنة.

وتأمل قول المسيح في هذه البشارة: إن ذلك عجيب في أعيننا. وتأمل قوله فيها: «إن ملكوت الله سيؤخذ منكم ويُدفع إلى آخر» كيف تجده مطابقاً لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء]، وقوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴿٥٥﴾﴾ [النور]»[1].

ونحو هذا النص ما جاء في (إنجيل متى) في الإصحاح الثامن:

---

(١) هداية الحيارى ٣٨١-٣٨٢.

«١١ وأقول لكم إن كثيرين سيأتون من المشارق والمغارب ويتكئون مع إبراهيم وإسحاق ويعقوب في ملكوت السماوات وأما بنو الملكوت فَيُطرحون إلى الظلمة الخارجية هناك يكونُ البكاء وصرير الأسنان».

وهذه بشارة تشير إلى ظهور أمة الإسلام التي تأتي من المشارق والمغارب وتكون مَرْضيةً عند الله مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحَسُنَ أولئك رفيقاً.

جاء في (الفارق): «أيها المسيحي إذا أنصفت تحكم بأن هؤلاء الذين سيأتون من مشارق الأرض ومغاربها هم الأمة المحمدية لأنكم مُخاطبونَ حاضرون إذْ ذاكَ والمسيحَ سلامُ الله عليه يخبر عن قومٍ سيأتون في مستقبلِ الزمن وقد أخرجكم بقوله: «وأما بنو الملكوت»[1].

ونحو ذلك ما جاء في (إنجيل يوحنا) في الإصحاح الرابع:

«٢٠-٢٤ قال لها يسوع: يا امرأة صدقيني أنه تأتي ساعة لا في هذا الجبل ولا في أورشليم تسجدون لله».

وهذا النص يشير إلى ظهور الدين الجديد وإنه سيتحول مركزه عن أورشليم ويشير إلى تحول القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المعظمة، قبلةَ أصحابِ الدين الجديد ويصدقه قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [البقرة].

فقد كان المسلمون أول الأمر يتجهون في صلاتهم إلى بيت المقدس ثم نزلت الآية بوجوب اتجاههم إلى بيت الله الحرام في مكة المكرمة.

فانظر إلى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴿١٤٤﴾﴾ [البقرة] أي: يعلمون أن هذا التحول من بيت المقدس إلى الكعبة حَقٌّ أُخبروا به في كتبهم. هدانا الله إلى الصراط المستقيم.

---

(١) الفارق ٥٤.

البشارة الثانية والعشرون

ذكر صاحب كتاب (الإنجيل والصليب) أنه جاء في (إنجيل لوقا) ٢: ١٤ «الحمد لله في الأعالي وعلى الأرض إسلام وللناس أحمد».

ولكن المترجمين ترجموها في الإنجيل هكذا:

«الحمد لله في الأعالي وعلى الأرض السلام وبالناس المسرة».

ومؤلف الكتاب يرى أن الترجمة الصحيحة ما ذكره هو.

يقول المؤلف أن ثمة كلمتين وردتا في اللغة الأصلية لم يدرك أحد ما تحتويان عليه من المعاني تماماً فلم تترجم هاتان الكلمتان كما يجب في الترجمة القديمة من السريانية.

هاتان الكلمتان هما:

أيريني - التي يترجمونها: السلامة.

و: أيودكيا - التي يترجمونها: حسن الرضا.

فالأولى من الكلمتين اللتين هما موضوع بحثنا الآن هي (أيريني) فقد ترجمت بكلمات (سلامة) (مسالمة) (سلام).

والمؤلف يرى أن ترجمتها الصحيحة (إسلام) فيقول في ص٤٠: «ومن المعلوم أن لفظ (إسلام) يفيد معاني واسعة جداً ويشتمل على ما تشتمل عليه ألفاظ (السلم، السلام) (الصلح، المسالمة) (الأمن، الراحة)... وتتضمن معنى زائداً وتأويلاً آخر أكثر وأعم وأشمل وأقوى مادة ومعنى ولكن قول الملائكة «على الأرض سلام» لا يصح أن يكون بمعنى الصلح العام والمسالمة؛ لأن جميع الكائنات وعلى الأخص الحية منها ولا سيما النوع البشري الموجود على كرة الأرض دارنا الصغيرة هي بمقتضى السنن الطبيعية والنواميس الاجتماعية خاضعة للوقائع والفجائع الوخيمة كالاختلافات والمحاربات

والمنازعات... فمن المحال أن يعيش الناس على وجه الأرض بالصلح والمسالمة».

ثم يستشهد بقول المسيح: «ما جئت لألقي سلاماً على الأرض، ما جئت لألقي سلاماً بل سيفاً» (متى ١٠: ٣٤).

ويستشهد بقول آخر للمسيح: «جئت لألقي ناراً على الأرض، فماذا أريد لو اضطرمت؟ أتظنون أني جئت لأعطي سلاماً على الأرض؟ كلا أقول لكم بل انقساماً» (لوقا ١٢: ٤٩- ٥٣).

وعلى هذا فالترجمة لا تنطبق ورسالة المسيح وأقواله والصواب: (وعلى الأرض إسلام). (انظر البحث من ص٣٨-٤٤).

كما يرى أن (أيادوكيا) بمعنى (أحمد) لا (المسرة أو حسن الرضا) كما يترجمها القسس وذلك لأنه لا يقال في اليونانية لحسن الرضا (أيودوكيا) بل يقال (ثليما).

ويقول: إن كلمة (دوكوثه) هي بمعنى (الحمد، الاشتهاء، الشوق، الرغبة، بيان الفكر). وها هي ذي الصفات المشتقة من هذا الفعل (دوكسا) وهي (حمد، محمود، ممدوح، نفيس، مشتهى، مرغوب، مجيد).

واستشهد بأمثلة كثيرة من اليونانية لذلك. وقال: إنهم يترجمون (محمديتو) في (أشعيا ٦٤ : ١١) بـ(أندوكساهيمون) ويترجمون الصفات منها (محمد، أحمد، أمجد، ممدوح، محتشم، ذو الشوكة) بـ(أيندكسوس).

واستدل بهذا التحقيق النفيس أن الترجمة الحقيقية الصحيحة لما ذكره لوقا هي (أحمد، محمد لا (المسرة) فتكون الترجمة الصحيحة لعبارة الإنجيل:

«الحمد لله في الأعالي وعلى الأرض إسلام وللناس أحمد»[١].

(انظر التحقيق من ٤٥-٥٣).

---

(١) انظر كتاب (الإنجيل والصليب) للأب عبد الأحد داود ٣٤-٥٣.

البشارة الثالثة والعشرون

جاء في (رؤيا يوحنا اللاهوتي) في الإصحاح التاسع عشر:

«١١ ثم رأيت السماء مفتوحة وإذا فرس أبيض والجالسُ عليه يدعى أميناً وصادقاً وبالعدل يحكم ويحارب. ١٢ وعيناه كلهيب من نار وعلى رأسه تيجان كثيرة وله اسم مكتوب ليس أحد يعرفه إلا هو. ١٣ وهو متسربل بثوب مغموس بدم ويُدعى اسمُه كلمةَ الله. ١٤ والأجناد الذين في السماء كانوا يتبعونه على خيل بيض لابسين بزاً أبيض ونقياً. ١٥ ومن فمه يخرج سيفٌ ماضٍ لكي يضرب به الأمم وهو سيرعاهم بعصاً من حديد وهو يدوس معصرة خمرِ سخطِ وغضبِ اللهِ القادر على كل شيء».

١- قوله (والجالس عليه يدعى أميناً وصادقاً) وهذه صفة رسول الله فقد كان يدعى الصادق الأمين قبل الرسالة - كما ذكرنا -. وفي طبعة الموصل (والجالس عليه يسمى الأمين الصادق). وقد قال المغيرة إلى المقوقس حين سأله: كيف صِدْقُ حديثه؟ قلنا: ما يسمى إلا الأمين من صدقه[١].

٢- قوله (وبالعدل يحكم ويحارب) وهذه صفة رسول الله وتعليمه قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ ﴿٨﴾﴾ [المائدة] أي: تحملكم عداوةُ قومٍ وبغضهم على عدمِ العدلِ بل اعدلوا.

وقال: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ ﴿٥٨﴾﴾ [النساء].

وكانت حروب رسول الله في غاية العدل والرحمة فقد كان يوصي أصحابه ألاَّ يقتلوا امرأة ولا شيخاً فانياً ولا طفلاً ولا عابداً في صومعته ولا يقطعوا شجرة إلا للأكل. وكانوا حافظين للوعود والعهود ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ ۚ ﴿١﴾﴾ [المائدة]، وقال تعالى: ﴿فَمَا ٱسْتَقَـٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ ﴿٧﴾﴾ [التوبة]، وقال: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [النحل].

---

(١) الجواب الصحيح ١/ ٩٩.

٣- قوله: (وعيناه كلهيبٍ من نار) أي: في عينيه حمرة، وهذه صفة رسول الله ﷺ فقد كان لا تفارق عينيه حمرة[1].

وفي طبعة الموصل (وكانت عيناه شِبْه وقيدِ النار).

٤- قوله: (وعلى رأسه تيجان كثيرة) أي: يستولي على أمم كثيرة فتكون تيجانها له. وهذا الذي حصل لمحمد وصحبه فقد استولوا على تيجان فارس وقيصر وغيرهما وقسموا خزائنها في سبيل الله.

٥- قوله: (وله اسم مكتوب ليس أحد يعرفه إلا هو) وهذا شبيه بالنص الذي نقلناه سابقاً (ويدعى اسمه عجيباً) أي: ليس اسمه من مُعتادِ بني إسرائيل بل إن اسمه ﷺ ليس مما اعتاد العرب التسمية به كما ذكرنا.

٦- قوله: (وهو متسربل بثوب مغموس بدم ويدعى اسمه كلمة الله) يشير إلى الحروب التي أثارها ﷺ وأصحابه من بعده في سبيل الله وإرساء دعائم الإسلام ونشره فهذا إشارة إلى لباس الحرب.

وأما قوله: (ويدعى اسمه كلمة الله) فهو - والله أعلم - من وضع المحرِّفين لأنها تتناقض والعبارة السابقة. (وله اسم مكتوب ليس أحد يعرفه إلا هو) فكيف يذكر هنا أن (اسمه كلمة الله)؟

ولعل المقصود أن اسمه عليه السلام ألقاه الله وعلَّمه للأنبياء السابقين في كلماته لهم فيكون اسمه على هذا كلمة الله.

٧- قوله: (والأجناد الذين في السماء كانوا يتبعونه على خيلٍ بِيضٍ لابسينَ بزاً أبيض نقياً) يعني أن الملائكة تنصره وتؤيده وتحارب معه، وهذه صفة رسول الله فقد نزلت معه الملائكة وأيدته في بدر والأحزاب وغيرهما من الوقعات كما ذكر القرآن الكريم.

٨- قوله: (ومن فمه يخرج سيفٌ ماضٍ لكي يضرب به الأمم) يشير إلى تعليماته النافذة التي تشبه السيف.

---

(١) طبقات ابن سعد ١، ج١، ١٠٦، ٨٣، م١، ج٢، ١٢١، وانظر هداية الحيارى بهامش ذيل الفارق ١٨، ١٩، ٢١.

وفي طبعة الموصل (سيف ماض ذو حدين ليضرب به الأمم) وهذه صفة السيوف العربية كما أسلفنا.

جاء في (الفارق): «أقول إن هذه الأوصاف لا تصدق إلا على أحمد ﷺ لأنه حارب وحكم بالعدل وهو المسمى بالصادق الأمين قبل النبوة وبعدها. وعيسى لم يسم بها الاسم. ثم نبينا وخلفاؤه استولوا على تيجان الملوك»[١].

---

(١) الفارق بين المخلوق والخالق ٤٠٠.

بشارات مِنْ إنجيلَ بَرنَابَا

إنجيل برنابا:

برنابا قديس ممتلىء من الروح القدس تُجِلُّه الكنيسةُ وتُعظِّمه. وهو مذكور في (أعمال الرسل) بالتجلّة والإكبار.

جاء في (أعمال الرسل) ١١: «٢٢-٢٤ فأرسلوا برنابا لكي يجتاز إلى أنطاكية... لأنه كان رجلاً صالحاً وممتلئاً من الروح القدس».

وجاء فيه ١٢: «٢٥ ورجع برنابا وشاول من أورشليم بعدما كملا الخدمة وأخذا معهما يوحنا الملقب مرقس».

وجاء فيه ١٣: «٢ قال الروح القدس أفرزوا لي برنابا وشاول للعمل».

لهذا القديس إنجيلٌ يُنسبُ إليه ورد اسمه في طائفة الأناجيل الممنوعة قبل الإسلام. جاء في كتاب (محمد في التوراة والإنجيل والقرآن) (إنجيل برنابا).

«ويقال: إن البابا جلاسيوس قد حرم قراءة هذا الإنجيل سنة ٤٩٢م. يعلن الدكتور تشارلس فرنسيس بوتر في كتابه (السنون المفقودة من عيسى تكشف) «أن إنجيلاً يدعى إنجيل برنابا استبعدته الكنيسة في عهدها الأول. والمخطوطات التي اكتشفت حديثاً في منطقة البحر الميت جاءت مؤيدة لهذا الإنجيل».

وتوالت بعد ذلك الاكتشافات التي لم يسمع عنها الجمهور لدينا كثيراً، وهذا هو سر التعجب فالمصادر التي تذكر هذه الأمور - كلها أجنبية غربية - قد ذكرت أن مخطوطاً آخر في الفيوم وآخر في مصر العليا»[١].

وجاء فيه: «إن الأمر الباباوي الذي أصدره البابا جلاسيوس الذي جلس على الأريكة البابوية سنة ٤٩٢م يبين أسماء الكتب المنهي عن مطالعتها وفي عدادها كتاب يسمى

---

(١) محمد في التوراة والإنجيل والقرآن ٩٣.

(إنجيل برنابا). وفي هذا دليل قاطع على أن هذا الإنجيل كان موجوداً قبل ظهور الإسلام ومشهوراً بين خاصة العلماء»[١].

اكتشافه:

وجدت نسخة من إنجيل برنابا في جو مسيحي خالص فإن «النسخة الوحيدة المعروفة الآن في العالم التي نقل عنها هذا الإنجيل إنما هي نسخة إيطالية في مكتبة بلاط فينا.. وأول من عثر على النسخة الإيطالية ممن لم يُعَفِّ التاريخ أثرهم هو كريمر أحد مستشاري ملك روسيا... ثم انتقلت إلى كريمر طولند ثم أهداها الأخير إلى البرنس أيوجين سافوي.

وجد النسخة الإيطالية راهب لاتيني يسمى (فرامرينو) وذلك أن هذا الراهب عثر على رسائل لايريناريوس وفي عدادها رسالة يندد فيها بالقديس بولس الرسول وإن ارينايوس أسند تنديده هذا إلى إنجيل القديس برنابا فأصبح من ذلك الحين الراهب (مرينو) المشار إليه شديد الشغف بالعثور على هذا الإنجيل.

واتفق أنه أصبح حيناً من الدهر مقرباً من البابا سكتس الخامس فحدث يوماً أنهما دخلا معاً مكتبة البابا فران الكري على أجفان قداسته فأحب (مرينو) أن يقتل الوقت بالمطالعة إلى أن يفيق البابا فكان الكتاب الأول الذي وضع يده عليه هو هذا الإنجيل نفسه فكاد أن يطير فرحاً من هذا الاكتشاف فخبأ هذه الذخيرة الثمينة في أحد ردنيه ولبث إلى أن استفاق البابا فاستأذنه بالانصراف حاملاً ذلك الكنز معه. فلما خلا بنفسه طالعه بشوق عظيم فاعتنق على أثر ذلك الدين الإسلامي...

ثم إنه لم يرد ذِكْرٌ لهذا الإنجيل في كتابات مشاهير الكتاب المسلمين سواء في الأعصر القديمة أو الحديثة حتى ولا في مؤلفات من انقطع منهم إلى الأبحاث والمجادلات الدينية مع أن إنجيل برنابا أمضى سلاح لهم في مثل تلك المناقشات وليس ذلك فقط لم يرد ذكر لهذا الإنجيل في فهارس الكتب العربية القديمة عند الأعارب أو الأعاجم أو المستشرقين الذين وضعوا فهارس لأندرِ الكتبِ العربية من قديمة وحديثة»[٢].

---

(١) محمد في التوراة والإنجيل والقرآن ١٤٥.

(٢) مقدمة الدكتور خليل سعاده لإنجيل برنابا.

بشاراته:

تحرم الكنيسة قراءة هذا الإنجيل ولا تعترف به لأنه يقوم على أسس تخالف عقائد الكنيسة تماماً فهو ينكر ألوهية المسيح وأنه ابن الله ويقول هو عبد الله ورسوله، وينكر الصلب، ويورد اسم محمد عليه السلام صراحة في كثير من المواطن ومن ذلك على سبيل المثال:

ما جاء في «٣٩: ١٤ فلما انتصب آدم على قدميه رأى في الهواء كتابة تتألق كالشمس نصها: لا إله إلا الله محمد رسول الله».

وجاء في الإصحاح الحادي والأربعين: «٢٩ فاحتجب الله وطردهما الملاك ميخائيل من الفردوس ٣٠ فلما التفت آدم رأى مكتوباً فوق الباب: لا إله إلا الله محمد رسول الله».

وفي الإصحاح الرابع والخمسين يتكلم على يوم الحشر إلى أن يقول:

«٩ ثم يحيي الله بعد ذلك سائر الأصفياء الذين يصرخون: اذكرنا يا محمد».

وفي «٩٧: ١٤ أجاب يسوع أن اسم مسيّا عجيب» إلى أن يقول: «قال الله اصبر يا محمد... ١٧ إن اسمه المبارك محمد».

وفي «١١٢: ١٧ ولكني متى جاء محمد رسول الله المقدس تُزال عني هذه الوصمة».

وفي «١٦٣: ٧ أجاب التلاميذ يا معلم مَنْ عسى أن يكون ذلك الرجل الذي تتكلم عنه الذي سيأتي إلى العالم؟

«٨ أجاب يسوع بابتهاج قلب: إنه محمد رسول الله».

إلى غير ذلك من البشارات المبثوثة في هذا الإنجيل.

خَاتِمَة البَحث

وفي خاتمة البشارات نذكر قولاً للسيد المسيح يضع فيه ميزاناً لمعرفة النبي من الدعيّ الكذاب.

جاء في إنجيل متى في الإصحاح السابع: «١٥ احترزوا من الأنبياء الكذبة الذين يأتونكم بثياب الحملان ولكنهم من داخل ذئاب خاطفة. ١٦ من ثمارهم تعرفونهم. هل يجتنون من الشوك عنباً أو من الحسك تيناً؟ ١٧ هكذا كل شجرة جيدة تصنع أثماراً جيدة وأما الشجرة الردية فتصنع أثماراً ردية. ١٨ لا تقدر شجرة جيدة أن تصنع أثماراً ردية ولا شجرة رديّة أن تصنع أثماراً جيدة. كل شجرة لا تصنع ثمراً جيداً تُقطع وتلقى في النار. فإذاً من ثمارهم تعرفونهم».

هذا الكلام حق فإن الشجرة تصنع ثماراً جيدة والشجرة الرديئة تصنع أثماراً رديئة.

وإذا طبقنا هذا القول على سيدنا محمد وعلى ثماره عرفنا أيَّ منزلةٍ في النبوة يحتلها هذا الرسولُ العظيم فقد عرَّفَ الإنسانَ بربه تعريفاً لا تجده في دين من الأديان ونزَّهه عن التشبيه والتمثيل وعما لا يليق وجاء بالخير الشامل والعدل العام والإحسان إلى الخلق أجمعين وغير ذلك من السلوك النبيل العالي والخلق المتين القويم ونهى عن الفحشاء والمنكر والبغي وعن كل ما يشين.

وقد ربى أصحابه على هذا الخلق العالي فلا تجد في الإنسانية نماذج أعلى من هذه النماذج بعد أنبياء الله.

ثم قال: كل شجرة لا تصنع ثمراً جيداً تقطع وتلقى في النار. وعلى هذا فالشجرة التي تصنع ثمراً جيداً تنمو وتثبت لينتفع بها الخلق وهكذا شجرة الإسلام الثابتة الوارفة الظلال قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴿٢٥﴾ ﴾ [إبراهيم].

فهذا الميزان الذي وضعه السيد المسيح أثبت لنا أن محمداً في أعلى مقامات النبوة

وصحبه من أعلى مقام المؤمنين.

نرجو من الآخرين أن يختبروا الثمار وما أمر معرفتها بعسير.

كَلِمَة أخِيرَة

بعد عرض هذه الدلائل العقلية من القرآن والحديث وعرض بشارات الكتب السماوية السابقة. تَبَيَّنَ لكلِّ ذي لبٍّ بصورة قاطعة أن محمداً نبيٌّ أرسله الله إلى الناس كافة بالحق الواضح والقسطاس المستقيم وأيده بالحجة القاطعة والبرهان المنير. بشرت به الأنبياء وذكرت اسمه ونعته الرسل. وأنه خاتم الأنبياء والمرسلين ليس بعده نبي ولا تشريع حتى يرثَ اللهُ الأرضَ ومَنْ عليها.

فالمهتدي مَن اهتدى بهديه والضالُّ مَنْ حاد عن نهجه وقصده.

وإن القرآن كتاب الله العظيم أنزله تبياناً لكل شيء وشفاء لما في الصدور أقام به الحجة على خلقه. فقد جعل فيه من الدلائل العقلية على نبوة محمد ما فيه مقنع لكل ذي لب.

وقد جعل أعلام نبوته لائحة منشورة يهتدي بها كل من ابتغى الهدى من خلقه ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾﴾ [النساء].

وقد ذكرنا طرفاً من هذه الأعلام والدلائل ومَنْ أراد المزيد فليرجع إلى كتاب الله فإن فيه ما يقنع العقل وتطمئن إليه النفس ويسكن معه الفؤاد على أن يستعين بالله ويسأله العون والسداد وأن يقرأه بعقل متدبر وقلب متيقظ فإن القرآن يعطيك أضعاف ما تعطيه من نفسك.

ولا بأس أن يستعين بكتب الدلائل فإن فيها مفتاحاً للوالجين وأعلاماً للسالكين. وأنا واثق بأن الله سبحانه سيؤتي رشده مَنْ يبتغي الرشد ويمنح هداه من يطلب الهدى وأنه تعالى سيفتح له ما استغلق ويقود له ما استعصى.

وهذا أمر جدير بإطالة البحث والتنقيب وإدامة التدبر والتفكير وأنت إنْ أفنيتَ عمرك في سبيله ثم حصلت عليه فما عمرك بفانٍ ولا ما أنفقتَ عليه بذاهب فإنه أثمن مما أفنيتَ، وأغلى مما أبليت، وأحسن مما أعطيت. فليس ثمة شيء أغلى منه بضاعة ولا

أربح منه تجارة.

وليس في الخاسرين أخسر من رجل حُرِمَ اليقين.

نسأله تعالى العون والسداد والهدى والرشاد وأن يجعلنا هداة مهدين غير ضالين ولا مضلين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

مَراجعُ البحث

- القرآن الكريم.

- الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة لشهاب الدين أحمد بن إدريس المالكي القرافي، طبع بهامش كتاب (الفارق بين المخلوق والخالق).

- الإذاعة لما كان وما يكون بين يدي الساعة للسيد محمد صديق حسن خان، مطبعة المدني، القاهرة.

- أسباب نزول القرآن لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي، تحقيق السيد أحمد صقر، ط١، ١٣٨٩هـ، ١٩٦٩م، دار الكتاب الجديد.

- الاستيعاب في معرفة الأصحاب لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر، تحقيق علي محمد البجاوي، مطبعة نهضة مصر.

- أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير، المكتبة الإسلامية بطهران.

- الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني، مطبعة مصطفى محمد بمصر، ١٣٥٨هـ- ١٩٣٩م.

- أضواء على المسيحية لمتولي يوسف شلبي، ط١، ١٣٨٨هـ- ١٩٦٨م، نشر الدار الكويتية.

- إظهار الحق لرحمة الله بن خليل الرحمن الهندي، تحقيق عمر الدسوقي، مطبعة الرسالة، مصر.

- أعلام النبوة لأبي الحسن علي بن محمد الماوردي، المطبعة البهية بمصر، ١٣١٩هـ.

- الله يتجلى في عصر العلم، ترجمة الدكتور الدمرداش عبد المجيد سرحان، نشر دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه.

- الانتصاف من الكشاف لابن المنير، طبع بحاشية (الكشاف) للزمخشري.

- إنجيل برنابا، نشر السيد محمد رشيد رضا.

- الإنجيل والصليب، تأليف الأب عبد الأحد داود، طبع بالقاهرة سنة ١٣٥١هـ.

- الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث لابن كثير، ط٣ بمصر.

- بحوث في تاريخ السنَّة المشرَّفة لأكرم ضياء العمري، مطبعة الإرشاد ببغداد، ١٣٨٧هـ- ١٩٦٧م.

- البداية والنهاية لابن كثير، ط١.

- تاريخ بغداد للحافظ أبي بكر أحمد علي الخطيب البغدادي، نشر دار الكتاب العربي، بيروت.

- تاريخ الرسل والملوك لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر ١٩٦٢م.

- تثبيت دلائل النبوة لقاضي القضاة عبد الجبار بن أحمد الهمذاني، تحقيق الدكتور عبد الكريم عثمان، دار العربية، بيروت.

- تراجم رجال القرنين السادس والسابع لأبي شامة، ط١، سنة ١٣٦٦هـ- ١٩٤٧م بمصر، نشر السيد عزت العطار الحسيني.

- تفسير ابن كثير، طبع بدار إحياء الكتب العربية.

- التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي، مكتبة ومطبعة عبد الرحمن محمد، مؤسسة المطبوعات الإسلامية.

- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تأليف أبي جعفر محمد بن جرير الطبري، ط٢، ١٣٧٧هـ- ١٩٥٤م، شركة مكتبة ومصطفى البابي الحلبي.

- الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٣٥٧هـ- ١٩٣٨م.

- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لشيخ الإسلام ابن تيمية، مطبعة المدني

بمصر.

- الجواب الفسيح لما لفقه عبد المسيح لأبي البركات نعمان خير الدين الأفندي الآلوسي، ط١، المطبعة الإسلامية، لاهور.

- دلائل النبوة لأبي نعيم الأصبهاني، ط١، مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية، حيدر آباد الدكن، سنة ١٣٢٠هـ.

- ذيل الفارق تأليف عبد الرحمن بك باجه جي زاده، طبع مع الفارق.

- ذيل مرآة الزمان لأبي الفتح موسى بن محمد اليونيني، ط١، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن، الهند، ١٣٧٤هـ- ١٩٥٤م.

- الرحلة المدرسية للشيخ محمد جواد البلاغي، مطبعة النعمان، النجف ١٣٨٢هـ- ١٩٦٣م.

- الرسالة المحمدية للسيد سليمان الندوي، المطبعة السلفية بمصر ١٣٧٢هـ.

- زاد المعاد في هدي خير العباد لابن قيم الجوزية، ط٢، ١٣٦٩هـ- ١٩٥٠م، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر.

- السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي للدكتور مصطفى السباعي، ط١، ١٣٨٠هـ- ١٩٦١م، مطبعة المدني بمصر.

- السنن الكبرى للبيهقي، ط١، حيدر آباد الدكن، مطبعة مجلس دائرة العارف العثمانية، سنة ١٣٤٧هـ.

- سنن النسائي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر.

- سيرة النبي ﷺ لمحمد بن إسحاق، هذبها ابن هشام، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، نشر محمد علي صبيح وأولاده، مطبعة المدني، ١٣٨٣هـ- ١٩٦٣م.

- صحيح البخاري، طبع بمطابع الشعب بمصر.

- صحيح مسلم، مطبوعات مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده.

- الظاهرة القرآنية لمالك بن نبي، ط١، ١٩٥٨، مطبعة دار الجهاد.

- الفارق بين الخالق والمخلوق، تأليف عبد الرحمن بك باجه جي زاده، ط١، مطبعة التقدم بمصر، سنة ١٣٢٣هـ، وطبع حديثاً في دار عمار بالأردن عام ١٩٩٧م، تحقيق عصام فارس الحرستاني.

- فتح القدير لمحمد بن علي الشوكاني اليماني، ط١، طبع بمطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر.

- الفصل في الملل والأهواء والنحل للإمام ابن حزم الظاهري الأندلسي، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده، القاهرة.

- قصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار، ط٣، ١٣٢٧هـ- ١٩٥٣.

- كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، تأليف البطريق أفتيشيوس المكنى بسعيد بن البطريق، طبع في بيروت بمطبعة الآباء اليسوعيين سنة ١٩٠٩م.

- كتاب الطبقات الكبير لمحمد بن سعد مصور عن كتاب طبع في مدينة ليدن المحروسة بمطبعة بريل سنة ١٣٢٢هـ من منشورات مؤسسة النصر، طهران.

- الكتاب المقدس، طبع في بريطانيا بمطبعة الجامعة، كامبردج.

- الكشاف عن حقائق التنزيل لجار الله الزمخشري، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ١٣٦٧هـ- ١٩٤٨م.

- محاضرات في النصرانية لمحمد أبي زهرة، ط٣، ١٣٨١هـ- ١٩٦١م.

- محمد في التوراة والإنجيل والقرآن لإبراهيم خليل أحمد (سابقاً القسيس إبراهيم خليل فيلبس)، نشر مكتبة الوعي العربي.

- مختصر التذكرة للإمام محمد بن أحمد القرطبي (اختصرها الإمام عبد الوهاب الشعراني)، المطبعة الميمنية بمصر ١٣١٦هـ.

- مصطلح الحديث، تأليف العلامة الشيخ عبد الغني محمود، ط٢، ١٣٣١هـ- ١٩١٣م، مطبعة الفتوح الأدبية بمصر.

- مطلع النور لعباس محمود العقاد، كتاب الشهر، ديسمبر ١٩٦٨م.

- موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين لمصطفى صبري شيخ الإسلام، طبع بدار إحياء الكتب العربية، ١٣٦٩هـ- ١٩٥٠م.

- هداية الحيارى من اليهود والنصارى للإمام ابن قيم الجوزية، طبع بهامش الفارق بين المخلوق والخالق، طبع في دار الجيل ببيروت بتحقيق عصام فارس الحرستاني.

- الوحي المحمدي لمحمد رشيد رضا، ط٥، ١٣٧٥هـ- ١٩٥٥م.

- وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى لجمال الدين أبي المحاسن عبد الله بن السيد الشريف السمهودي، مطبعة الآداب والمؤيد بمصر سنة ١٣٢٦هـ.

فهرس الموضوعات

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة

نبوة محمد صلى الله عليه وسلم

من الشك إلى اليقين

دار عمار للنشر والتوزيع
عمان - ساحة الجامع الحسيني - سوق البتراء - عمارة الحجيري
تلفاكس ٤٦٥٢٤٣٧ - ص.ب ٩٢١٦٩١ عمان ١١١٩٢ الأردن
info@dar-ammar.com
www.dar-ammar.com